معارج المقربين

الإمام المجدد

السيد محمد ماضي أبو العزائم

معارج المقربين

الإمام المجدد

السيد محمد ماضى أبو العزائم

١٢٨٦ - ١٣٥٦ هجرية / ١٨٦٩-١٩٣٧ ميلادية

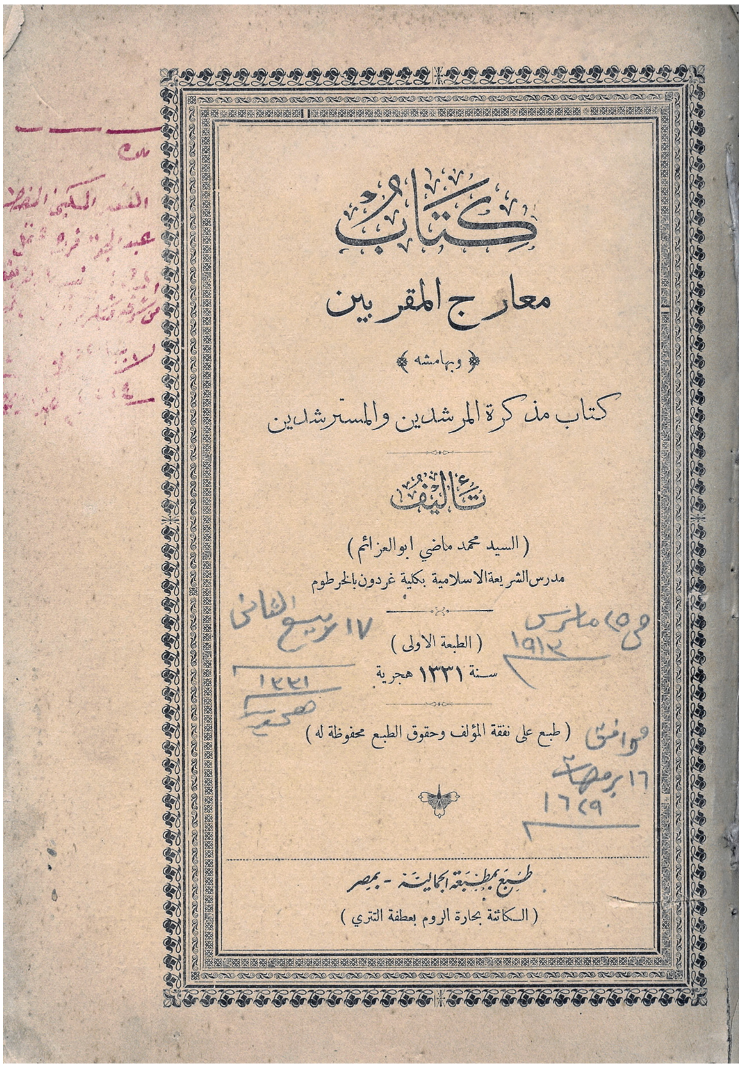
كتاب

معارج المقربين

﴿ وبهامشه ﴾

كتاب مذكرة المرشدين والمسترشدين

تأليف

(السيد محمد ماضي ابو العزائم)

مدرس الشريعة الاسلامية بكلية غردون بالخرطوم

(الطبعة الاولى)

سنة ١٣٣١ هجرية

(طبع على نفقة المؤلف وحقوق الطبع محفوظة له)

طبع بمطبعة الجمالية - بمصر

(الكائنة بحارة الروم بعطفة التري)

غلاف الطبعة الأولى ١٩١٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لك الحمد يا من وسعت رحمتك كل شئ، ولك الشكر والثناء يا واسع المغفرة وقابل التوب، ولك المجد والكبرياء والعزة يا من أكملت النعمة على خلقك ببعثة رسلك عليهم الصلاة والسلام، ولك الثناء الحسن الجميل كما أثنيت على نفسك فإنه لا يقدر قدرك إلا أنت، خلقت الخلق وأمددتهم بسابغ فضلك وعميم كرمك وهاطل برك وجودك، ثم تفضلت فبينت لهم سبل الهدى وطرق النجاة، ووفقت من أحببتهم بمعونتك وعنايتك لما تحب من الاعتقاد والأعمال والأحوال والمعاملات، وجعلت لهم نوراً فى قلوبهم فقهوا به أسرار تنزيلك وحكمة أحكامك، وحصنتهم بحصون حبك لهم من أن يخالفوا هدى حبيبك المصطفى أو يبتدعوا بدعة مضلة، سر قولك سبحانه: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ البقرة ٢٥٧، وقولك تقدست وتعاليت: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِ﴾ الكهف ١٧، وقولك سبحانك: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ الأنعام ٨٢، وقولك جل جلالك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ الأنبياء ١٠١، سبحانك أنت ذو الفضل العظيم.

وأبرأ إليك اللهم من شُح مطاع وهوى متبع وإعجاب بالرأى، ومن أن أقول برأيى فى كتابك أو فى سُنة رسولك ﷺ، وأعوذ بوجهك العظيم من زلل لسانى وعجلة جنانى، ومن عمد الخطأ وقصد الزلل، وأسألك العصمة يا ولى المؤمنين فإنك أنت العاصم لا عاصم إلا أنت، وفقهاً فى دينك وعلماً نافعاً بأسرار مرادك سبحانك، وحسن نية عن إخلاص لذاتك، وصدقاً فى معاملتك يا رب العالمين، ليكون ما وفقتنى له من القول والعمل والبيان خالصاً لوجهك الكريم، مقبولاً لديك يارب العالمين، نافعاً لى ولأولادى ولجميع إخوتى المؤمنين إنك مجيب الدعاء.

وأسألك كما شرحت صدرى لهذا الكتاب، أن تمدنى بروح منك ياذا الفضل العظيم والصلاة والسلام على الشمس الممدة لسُرُج القلوب ومصابيح النفوس وأنجم الهدى وأقمار البيان.

هذا وإنى أنا العبد المنكسر القلب المسكين الذليل الحقير محمد ماضى أبو العزائم أعتقد أنما وفقنى الله له من الحق والهدى ومتابعة السُنة والكتاب، هو من الله تعالى بتوفيقه ومعونته وفتحه وهباته ومننه وإمداداته الربانية، ومن نظرات وود حضرة رسوله ﷺ، وما حصل منى من العجلة والنسيان، فمن نفسى اللقسة وطبعى البشرى، أسأل الله تعالى أن يغفر لى زللى وعجلتى التى هى طبعى، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولً﴾ الإسراء ١١، وقال سبحانه: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ الأنبياء ٣٧، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ طه ١١٥، وهذا نبى كريم فكيف بمسكين يسأل الله أن يتولاه؟!

على أن أرجو من يطلع عليه فيجد فيه ما يظن أنه يخالف، أن يتروى ولا يتعجل، فعسى أن يظهر له وجه التأويل، أو ينسب ذلك إلى تسرعى وعجلتى، ويسأل الله لى المغفرة، قال ﷺ: (اتقوا زلة العالم وانتظروا فيئته) والله أسأل المعونة والتوفيق.

❊ ❊ ❊

موضوع البحث وتنبيهاته

موضوع البحث

لما كان الغرض من وضع هذا الكتاب بعد كتاب " أصول الوصول" إنما هو تنبيه السالكين والمرشدين إلى ما به صفاء جوهر النفس حتى تفقه القلوب أسرار الشريعة، ويظهر لها أن نيل الخير كله فى الدنيا والآخرة باتباع السُنة، وأن نوال السعادة الحقيقية فى الدنيا والآخرة بفهم روح الكتاب والسُنة، وتعليم العلوم النافعة التى بها يكون كل فرد من أفراد المسلمين قائماً بما وجب عليه لنفسه وعشيرته الأقربين، من والدين وأولاد وزوجة وأرحام وجيران فجميع المسلمين، حتى يكون المسلم مسلماً حقاً على ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه رضوان الله عنهم.

ولما كان هذا الغرض العظيم والمقصد الجليل لا يتسنى للإنسان إلا بعد تزكية نفسه، حتى يتحقق بالإيمان بيوم الحساب، وتنكشف له حقيقة الدنيا أنها دار ربح واكتساب، وتجمل

بفضائل ومعارف وعلوم، ينال بها السعادة بعد أوبته إلى دار البقاء، وأنها سوق للتجارة فى الفضائل، وموسم للزراعة فى الأعمال الصالحة، والجاهل من جهل أنه مسافر فترك الاستعداد بالزاد والراحلة والرفقة، حتى انتقل إلى الدار الآخرة بلا زاد ولا رفيق ولا شفيع، فندم ولات حين مندم، لذلك استحسنت أن أفتتح كتابى هذا بما ورد من الآيات القرآنية فى الاعتصام باتباع سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ، وما ورد من الأحاديث فى الاعتصام بالسُنة.

تنبيهات البحث

١ على أنى أنبه المطلع – إن كان ممن زكت نفسه – أن يحمل عملى هذا على أجمل المحامل كما هو شأن كل مسلم لأخيه، ويتأول ما لا تظهر له معانيه من العبارات بما يناسب المراد من وضع الكتاب.

وإن كان المطلع عليه ممن لم تتزك نفسه بالرياضة والمجاهدة، ولا بمطالعة سير السلف الصالح ولا بتلقى أسرارهم، فأرجو منه أن لا يتسرع بسوء الظن، ولا يشيع السوء بين الناس، وليأخذ ما صفا ويترك ما عكر، فإنى أطمع بحسن ظن فى الله تعالى أن يغفر لى زللى، وأنه سبحانه وتعالى لا يؤاخذنى إن نسيت أو أخطأت، وقد تسرع بعض من تعلموا العلم ليستظهروا على أولياء الله عداوة للحق وبغضاً لأهله، كما قال أمير المؤمنين سيدنا على بن أبى طالب عليه السلام عندما وصف العلماء لكميل وقمبر رضى الله عنهما، فإن هذا المتسرع رمانى بأنى أكتب كتابة لا تفهم لأخدع بها الناس، حتى اجتمعوا علىَّ وأنكروا فى كتاب "أصول الوصول" ما لا ينكره صغار المبتدئين، وإنى أستغفر الله لى ولهم، وأسأل الله تعالى أن يجعلنا جميعاً ممن يتعاونون على البر والتقوى، ويعيذنا سبحانه من التعاون على الإثم والعدوان.

٢ وأنبه القارئ إلى ما لابد منه؛ وهو أن التكلم فى العلوم الإلهية وما يتصل بها من علوم النفس والإيمان بالغيب وسر القضاء والقدر، علوم لا تفهم إلا لذى نفس زكية وقلب فقيه، فإنها ليست كالعلوم العقلية وذلك مثال علم الحساب وعلم الجبر، فإن علم الحساب مثال للعلوم العقلية لأنه يؤول إلى الحس وبراهينه عقلية، وعلم الجبر مثال لعلم النفس، فمن

لم يطهر نفسه بالمجاهدة والرياضة ينكر كل الإنكار علم الجبر ولا يتصور معادلاته، وكيف يتصور العاقل الذى لم يطهر نفسه معادلة جبرية مثل:

حـ + ء + س — ب = ا + ب — حـ + س

ما الذى يفهمه العاقل إذا رأى تلك الرموز؟! إلا أنه يتصور أنه سحر أو طلسمات، ومن جهل شيئاً عاداه، فأرجو المطلع على كتاب "شراب الأرواح" وقسم علوم اليقين من كتاب "أصول الوصول" وقسم علوم النفس من كتاب "معارج المقربين" وقسم الاصطلاحات وتزكية النفس من كتاب "تذكرة المرشدين والمسترشدين" أن يسلم حتى يمنَّ الله عليه بفهم تلك العلوم، أو يبتدئ بتزكية نفسه كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ الأعلى ١٤-١٥.

٣ ربما أنكر بعض المطلعين على هذه الكتب لتركى ذكر أسانيد الحديث، وذكر أسماء الكتب والرجال الذين أخذت منها، ولكنى والحمد لله على يقين أن العلم أمانة وأن كل الأحاديث التى وضعتها كلها فى كتبى هذه هى ما أوردها الأئمة فى كتبهم، وضعتها فى كتبى هذه لتكون لإخوانى أهل الطريق نوراً من نور السُنة المحمدية، وعوناً لهم بعد كتاب الله تعالى على ما يقرب إلى الله تعالى و إلى رسوله ﷺ، وكلها إما أن تكون مما أخرجه الشيخان، سيدنا الإمام البخارى والإمام مسلم فى جامعيهما أو أحدهما، أو أورده أبو داود والترمذى وغيرهما من الأئمة فى تصانيفهم رحمهم الله، وهى صحاح على شرط البخارى لأنها بنقل العدل عن العدل عن رسول الله ﷺ، إلا أنها لم تبلغ غاية شرط الشيخين فى علو الدرجة، وقد حذفت الأسانيد لعدم الإطالة حتى يسهل على المريد أخذ الأحكام الشرعية.

على أنى لا أبرئ نفسى من الزلل والخطأ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ يوسف ٥٣، فكل أخ ظهر له زلل كتبى هذه فإنما أنا إنسان مسكين تحريت بقدر ما فى وسعى، كما قال الله تعالى: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ الجن ١٤، فما كان من الزلل والخطأ فإنى أعوذ بالله أن يكون قصد منى، أو تغيير لسُنة رسول الله ﷺ، أو انتهاج على غير طريق المؤمنين، أعوذ بالله من مخالفة رسول الله ﷺ، كيف يرضى المؤمن بأن يكون من أهل جهنم بأن يتبع غير

سبيل المؤمنين؟! قال الله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ النساء ١١٥، اللهم إني أعوذ بوجهك الكريم وباسمك العظيم وبكلماتك التامات، من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن عمل لا يرفع، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الاعتصام بالكتاب والسُنة

الآيات الواردة فى الاعتصام بالكتاب والسنة

قال الله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ آل عمران ٣١، وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ النساء ٨٠، وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْ﴾ المائدة ٩٢ الآية، وقال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ آل عمران ١٠٣ الآية، وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ النور ٥٦، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُ﴾ النور ٦٢، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ النور ٢١، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الأنعام ١٥٣، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾ الأنفال ٢٠ الآية، وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ الأنفال ١، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ الأحزاب ٧٠-٧١.

الأحاديث الواردة فى الاعتصام بالكتاب والسُنة

عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: (من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد).

وعن جابر رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: (أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة). وقال رسول الله ﷺ: (أبغض الناس إلى الله ثلاثة، ملحد فى الحرم، ومبتغ فى الإسلام سنة الجاهلية، ومطلب دم امرئ مسلم بغير حق ليهريق دمه). رواه ابن عباس رضى الله عنهما وقال: (كل أمتى

يدخلون الجنة إلا من أبى، قالوا: ومن يأبى؟ قال: من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى). رواه أبو هريرة رضي الله عنه.

وعن جابر رضي الله عنه قال: (جاءت ملائكة إلى النبى ﷺ وهو نائم فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلاً فاضربوا له مثلاً، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: مثله كمثل رجل بنى داراً وجعل فيها مأدُبة، وبعث داعياً فمن أجاب الداعى دخل الدار وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعى لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة، فقالوا: أولوها له يفقهها، قال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: فالدار الجنة والداعى محمد، فمن أطاع محمداً فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً فقد عصى الله، ومحمد فرق بين الناس).

وعن أنس رضي الله عنه قال: (جاء ثلاثة رهط إلى أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادة النبى ﷺ فلما أخبروا بها كأنهم تقالوها، فقالوا: أين نحن من النبى ﷺ وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ فقال أحدهم: أما أنا فأصلى الليل أبداً، وقال الآخر: أنا أصوم النهار ولا أفطر، وقال الآخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء النبى ﷺ إليهم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إنى لأخشاكم من الله وأتقاكم له، لكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى).

وعن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ قال: (ما بال أقوام يتنزهون عن الشئ أصنعه، فوالله إنى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية). وقال رسول الله ﷺ: (أنتم أعلم بأمر دنياكم فإذا أمرتكم بشئ من أمر دينكم فخذوا به). رواه رافع بن خديج.

عن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: (إنما مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قوماً فقال: يا قوم إنى رأيت الجيش بعينى وإنى أنا النذير العريان فالنجاة النجاة، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم. فذلك مثل من أطاعنى فاتبع ما جئت به من الحق ومثل من عصانى وكذب بما جئت به من الحق).

وعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إنما مثلى كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التى تقع فى النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه فيتقحمن فيها، قال: فذلك مثلى ومثلكم، أنا آخذ بحجزكم عن النار، هلم عن النار، هلم عن النار، فتغلبونى تقحمون فيها). وقال النبى ﷺ: (مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير، أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ. فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه الله بما بعثنى به فعلم وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به). رواه أبو موسى الأشعرى رضي الله عنه.

وقالت عائشة رضى الله عنها: تلا رسول الله ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ آل عمران ٧، قالت: قال رسول الله ﷺ: (فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم). وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما: (هجرت إلى رسول الله ﷺ فسمع صوت رجلين اختلفا فى آية فخرج يعرف فى وجهه الغضب فقال: إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم فى الكتاب). وقال رسول الله ﷺ: (ذرونى ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشئ فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شئ فدعوه). رواه أبو هريرة رضي الله عنه. وقال: (إن أعظم المسلمين فى المسلمين جرماً من سأل عن شئ لم يحرم فحرم من أجل مسألته). رواه سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه.

وقال: (يكون فى آخر الزمان دجالون كذابون، يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم لا يضلونكم ولا يفتنونكم). رواه أبو هريرة رضي الله عنه وقال: (لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ البقرة ١٣٦، رواه أبو هريرة رضي الله عنه. وقال: (كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع) رواه أبو هريرة رضي الله عنه. وقال: (ما من نبى بعثه الله فى أمته قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسُنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون

ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل). رواه ابن مسعود ﵁. وقال : (لا يزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك). رواه معاوية ﵁، وقال: (لا يزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة). رواه جابر ﵁.

وقال: (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً). وقال: (بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء). وقال: (إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها). روى هذه الأحاديث الثلاثة أبو هريرة ﵁.

عن أبى رافع ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: (لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمرى مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول: لا أدرى، ما وجدنا فى كتاب الله اتبعناه).

عن المقدام بن معد يكرب ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: (ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، وإنما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلى، ولا كل ذى ناب من السباع، ولا لقطة معاهد إلا أن يستغنى عنها صاحبها، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه).

عن العرباض بن سارية ﵁ قال: قام رسول الله ﷺ فقال: (أيحسب أحدكم متكئاً على أريكته يظن أن الله لم يحرم شيئاً إلا ما فى هذا القرآن، ألا وإنى والله قد أمرت ووعظت ونهيت عن أشياء إنها لمثل القرآن أو أكثر، وإن الله لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن، ولا ضرب نسائهم ولا أكل ثمارهم إذا أعطوكم الذى فرض عليهم).

وعن العرباض بن سارية ﵁ قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ذرفت منها

العيون ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا، فقال: (أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن كان عبداً حبشياً، فإنه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسُنتى وسُنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة).

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنهما قال: (خط لنا رسول الله ﷺ خطاً ثم قال: هذا سبيل الله، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله، وقال: هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، وقرأ: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ الأنعام ١٥٣.

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به). وقال: (من أحيا سُنة من سُنتى قد أميتت بعدى فإن له من الأجر مثل أجور من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن ابتدع بدعة ضلالة لا يرضاها الله ورسوله كان عليه من الإثم مثل آثام من عمل بها لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً). رواه بلال بن الحرث المزنى وقال: (إن الدين ليأرز إلى الحجاز كما تأرز الحية إلى جحرها وليعقلن الدين من الحجاز معقل الأودية من رأس الجبل). وقال: (إن الدين بدأ غريباً ويرجع غريباً، فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدى من سنتى). رواه كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف بن زيد بن ملحة عن أبيه عن جده.

وقال ﷺ: (ليأتين على أمتى كما أتى على بنى إسرائيل حذو النعل بالنعل، حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية لكان فى أمتى من يصنع ذلك، وإن بنى إسرائيل تفرقت على اثنتين وسبعين ملة وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة كلهم فى النار إلا ملة واحدة قالوا: من هى يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابى)، رواه عبد الله بن عمر رضى الله عنهما، وفى رواية معاوية: (وواحدة فى الجنة وهى الجماعة، وأنه سيخرج فى أمتى قوم تتجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله). وقال: (لا تجتمع هذه الأمة — أو قال: أمة محمد – على ضلالة). (ويد الله مع الجماعة ومن شذ شذ فى النار)، رواه ابن عمر وأنس، ويروى عن ابن عمرو عن رسول الله ﷺ أنه قال: (اتبعوا السواد

الأعظم فإنه من شذ شذ فى النار).

وعن أنس ﷺ قال: قال لى رسول الله ﷺ: (يا بنى إن قدرت أن تصبح وتمسى وليس فى قلبك غش لأحد فافعل، ثم قال: يا بنى وذلك من سُنتى ومن أحب سُنتى فقد أحبنى، ومن أحبنى كان معى فى الجنة). وقال: (من تمسك بسُنتى عند فساد أمتى فله أجر مائة شهيد)، رواه أبو هريرة.

وعن جابر ﷺ عن النبى ﷺ حين أتاه عمر ﷺ فقال: (إنا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا أفترى أن نكتب بعضها؟ فقال: أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقية ولو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعى).

وعن أبى سعيد الخدرى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (من أكل طيباً، وعمل فى سنة، وأمن الناس بوائقه، دخل الجنة، فقال رجل: يا رسول الله إن هذا اليوم فى الناس لكثير، قال: وسيكون فى قرون بعدى).

وعن أبى هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: (إنكم فى زمان من ترك منكم عُشر ما أمر به هلك، ثم يأتى زمان من عمل منهم بعُشر ما أمر به نجا).

عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (نزل القرآن على خمسة وجوه، حلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال. فأحلوا الحلال وحرموا الحرام، واعملوا بالمحكم، وآمنوا بالمتشابه، واعتبروا بالأمثال).

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (الأمر ثلاثة، أمر بين رشده فاتبعه، وأمر بين غيه فاجتنبه، وأمر اختلف فيه، فكله إلى الله عز وجل).

عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يقول: (لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم، فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فتلك بقاياهم فى الصوامع والديار رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم).

الباب الثانى

العلم والإيمان

الفصل الأول

العلـوم وشـرفها

تعريف العلم

العلم هـو تصور النفس رسوم المعلوم فى ذاتهـا، بعد صفاء جـوهرها بـالتهذيـب والتصديق والتسليم. ومن البديهى الجلى أن العلوم كلها شريفة سواء كانت نـظرية أو عملية، وفيها عز وشرف فى الدنيا والآخرة. وأشرفها وأجلها وأنفعها ما به نيل السعادتين وخير النشأتين، وهو علم معـرفة الإنسان نفسه وحقيقة جوهـره وما تتصرف به الأمور حالاً بعد حال، إلى أن يبلغ إلى قـصارى غـايته الـتى هى متمـناه، وهـى أن يلقـى ربه فى الدنـيا بعـين اليقين قـبل الموت القهرى بالموت الإرادى، الـذى هو كمال تزكية النفس وعلم حقيـقة التوحيد. وأما فى الآخرة بعد فـراق الدنيا، قال ﷺ: (من عرف نفسه عرف ربه)، وقال عليه الصلاة والسلام: (إنكم لن تروا ربكم حتى تموتـوا)، وقال الله تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِى ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ الزمر ٩، وقـال سبحـانه: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾ آل عمران ٧، وقال سبحانه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتًا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورًا يَمۡشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ الأنعام ١٢٢.

واعلم أيها الـسالك المسـترشد أن هذا البـاب من العلم، هو طهـور ذوى الألباب ومعراج الوصول وعنصر الحكمة ونور المعرفة، فجاهد نفسـك واجتهد فى طلبه من العارفين به، فإنك به تنال شرف الدنيا وسعادة الآخرة، وقد بين القرآن الكريم والسُنة المطهرة شرف هذا العلم، وقـد شرحت جملاً منه فى كتاب " شراب الأرواح" خصـوصاً فى تهذيب النفـوس، وبيان كيفية ما يتـصرف به الإنـسان من الأمور حالاً بعد حال، وما يصير إليه الإنسان بعد مفارقة الدنيا إلى يوم البعث مما ورد فى الكتاب العزيز وفى السُنة.

واعلم أيها السالك أن أشرف الأمور التى ينالها الإنسان فى الدنيا، وأعلى مرتبة يبلغ إليها بجسمه قبل الموت، هى سرير الملك والعز والسلطان على أجساد أبناء جنسه، والقهر والغلبة بالقوة الغضبية، وهذا – لا شك – يفنى ويزول، ويكون له الحسنى إن أحسن، والمغفرة أو العذاب إن أساء.

ولكن الإنسان قد يبلغ بنفسه من المراتب العلية والدرجات الرفيعة أن يخصه الله تعالى ويصطفيه بالفضل المحض وسابقة الحسنى، بأن يجعله رسولاً منه إلى عباده يفضله بالوحى، وهو فضل عظيم من الله تعالى لا تبلغه النفوس بمجاهدة ولا تناله برياضة ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الحديد ٢١، هذا هو الشرف الحقيقى والمجد الحقيقى والعز الحقيقى والسعادة الحقيقية، وقد تبلغ النفس بكمال تزكيتها وصفاء جوهرها إلى كمال التصديق بالرسول ﷺ وبما جاء به والاقتداء بهديه فتبلغ السعادتين، وتكون من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء، هذا كله لأن الإنسان إنما هو جملة مجموعة من جسد جسمانى فى أحسن الصور، ومن نفس روحانية من أفضل النفوس، ولكل من جسمه وروحه غاية إليها ينتهى ونهاية إليها يرتقى، ولا يتسنى للإنسان أن يرتقى إلى معارج القرب، ويحظى بمشاهدة الرب سبحانه وبفهم أسراره وبكشف آياته، إلا بالعلم الذى به يعرف نفسه كما قررت لك، والله ولى التوفيق.

علم للوصال وعلم للأعمال

العلم إدراك المعلوم على ما هو عليه أو بوجه ما، وهو علم إدراك الكونيات من خواص الأشياء مفردة ومركبة واستخدام تلك الخواص فيما خلقت له الأشياء، ويلزمه العلم بمقدمات العلوم العقلية.

ومن العلم علم هو الفهم، وهو علم الأحكام الشرعية والعرفية من عبادات ومعاملات وأخلاق وعادات، ومن العلم علم هو إدراك عجز المتعلم عن إدراك المعلوم، بعد اليقين بعلم آياته وآثاره القائمة مقام الحُجة القاطعة على كمالاته العلية وهو العلم بالله.

١ العلم الذى هو للوصول

إذا تقرر هذا فالعلم الذى هو للوصال العلم بالله من طرقه الموصلة، وطرقه الموصلة أخبار الرسول ﷺ، وكلام الله تعالى بتسليم وانقياد، ثم العمل بما أمر به الرسول ﷺ مع الإخلاص الكامل، ثم الاقتداء بعالم عامل متمكن من علوم التوحيد واليقين وأسرار السُنة وعلم السير وأعمال الأئمة، ويكون الاقتداء بأكمل وجوهه وأتم شروطه حتى لا يخرج عن أوامره ولا يتحول عن إرشاده ولا يخالف إشاراته، ويكون له كالطفل الصغير مع والده، يطيعه فيما يعلم سره وما لا يعلم سره إطاعة عن اطمئنان قلب وإخلاص ضمير وسلامة نية.

فإذا توفرت تلك الأساسات الثلاثة التى هى سماع الأخبار والعمل والاقتداء بالإمام المرشد، أشرقت عليه أنوار العلم بالله، فيعلم ما لم يكن يعلم ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ البقرة ٢٨٢، ويرفعه الله درجات فى المشاهدات، ويكاشفه بأسرار الغيوب الملكوتية، حتى يترقى إلى مقامات العزة ومنازلات الجبروت، فتجلى له حقائق صادقة، وتلوح له أنوار قدسية بها يعلم العلم الذى لا جهل بعده ولا جهل فيه، علم العجز عن الإدراك وهو الإدراك، وهذا هو العلم الموصل وطرقه المتقدمة بيان أساساتها وشرح مقدماتها يحتاج إلى أسفار، وإن شاء الله تعالى سأكتب رسالة تبين مجمل هذا.

٢ العلم الذى هو للأعمال

أما العلم الذى هو للعمل فهو علم الأحكام الشرعية والعلم بالعلوم الضرورية للعمران، ويعبر عنه بالحكمة العملية التى لابُد فيها من العمل، ومنه علم الأخلاق وتزكية النفوس، وعلم المعاملات، ومعرفة الآداب العرفية والعوائد، فمن تعلم العلم الخاص بالعمل ولم يعمل فليس بعالم، ولكنه كالشمعة يضئ لغيره ويحرق نفسه، ومن لم يتعلم العلم الموصل قبل كل شئ، فإيمانه ناقص وإن صلى وصام وزكى وحج.

فعلى المريد أن يبدأ بما أوجبه الله تعالى أولاً، وهو العلم بالله والتمكن من معرفة الواجب له سبحانه، والمستحيل عليه سبحانه، ويجتهد فى تلقى علوم اليقين وأسرار التوحيد ومواجيد

أهل الحب وأحوال أهل القرب لينال الفوز، ثم يتعلم الأحكام بعد معرفة الحاكم سبحانه ليعمل بخشية ومراقبة لجلاله ورهبة من عظمته ورغبة فى جماله، وبذلك يكون عبداً مسلماً مؤمناً محسناً موقناً، والله سبحانه يمنحنا حقيقة الإيمان بجاه المصطفى ﷺ.

الوصول

الوصول وجدان باعث الوله إلى التخلق بأخلاق الربوبية، بعظيم المجاهدة فى التخلى عن الفطر والأخلاق الحيوانية والإبليسية، مع اللذة بالآلام والطرب عند فوات ما يلائم تلك القوى – مما حرصت على نيله – وبذله عند نواله فرحاً بمفارقته مسروراً بما استعاضه عنه، حتى تنمو المشابهة، وتتم الفطرة على ألفة ما ينافره، والرغبة فيما يؤلمه، مع وجدان الباعث على طلبه، والداعى له من توفر الشهوة، ووجود القدرة على تنجيز ما يلائم ولو كان ضرورياً، فيكون مع الرغبة فيه راغباً عنه، ومع الاحتياج إليه غنياً عنه، وبهذا يكون قائماً بمعانى القرآن بالمشابهة محفوظاً بالمجاهدة، وهو وصول السالكين، فيكون جهادهم التحفظ بسور الحفظ عن تعدى حدود المكانة لا حدود الأحكام، لأنهم محفوظون من تعدى حدود الأحكام بنص قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ الحجر ٤٢، وهو بداية للمقربين الذين كوشفوا بتلك المعانى فى أنفسهم وفى السماوات والأرض، أشرقت أنوار لطائف سريرتهم على الجوارح العاملة، فسلبت ظلال الوهم وأفياء الهوى والحظ، فجهادهم عن مشاهدة التوحيد بالتوحيد، فهم بعيون السريرة غرقوا فى عين الوحدة، وبأبصارهم شهدوا سر الحكمة، وبينهما برزخ لا يبغيان، فلا عباب مشاهد التوحيد يبغى على برزخ الحكمة فيفنى حقيقة العبودة، ولا مكفوف موج الحكمة يبغى على مسجور القدرة فيحجب أنوار التحقيق، وهو الجهاد الأكبر لأنه فى ذات الله تعالى، وإن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

الحكمة

الحكمة هى استكمال النفس الإنسانية بتحصيل ما عليه الوجود فى نفسه، وما عليه الواجب مما ينبغى أن يعمل من الأعمال ومما لا ينبغى، لتصير كاملة مضاهية للعالم الروحانى،

وتفوز بذلك بالسعادة القصوى الأخروية بحسب الطاقة البشرية.

وهى تنقسم بالقسمة الأولى إلى قسمين:

أ لأنها إن تعلقت بالأمور التى لنا أن نعلمها وليس لنا أن نعملها سميت حكمة نظرية.

ب وإن تعلقت بالأمور التى لنا أن نعلمها ونعملها سميت حكمة عملية.

وكل من الحكمتين منحصر فى أقسام ثلاثة:

أما النظرية فلأن ما لا يتعلق بأعمالنا إما أن لا تكون مخالطة المادة شرطاً لوجوده أو تكون، وحينئذ إما أن لا تكون تلك المخالطة شرطاً لتعقله أو تكون.

والأول: وهو ما لا تكون مخالطة المادة شرطاً لوجوده، وهو العلم الإلهى وهو العلم الأعلى.

والثانى: وهو أن تكون المخالطة شرطاً لوجوده دون تعقله، هو العلم الرياضى وهو العلم الأوسط.

والثالث: وهو أن تكون المخالطة شرطاً لوجوده وتعقله وهو الطبعى، كعلم المعادن والنباتات والحيوانات والطب والنجوم والصنائع وهو العلم الأسفل.

وأما العملية فلأن ما يتعلق بأعمالنا إن كان علماً بالتدبير الذى يختص بالشخص الواحد فهو علم الأخلاق، وإلا فهو علم تدبير المنزل إن كان علماً بما لا يتم إلا بالاجتماع المنزلى، وعلم السياسة إن كان علماً بما لا يتم إلا بالاجتماع المدنى.

ومبادئ هذه الثلاثة من جهة الشريعة الإلهية وفائدة الحكمة الخلقية أن يعلم الفضائل وكيفية اقتنائها لتتزكى بها النفس، وأن يعلم الرذائل وكيفية الوقاية منها لتتطهر منها النفس، وفائدة المنزلية أن يعلم المشاركة التى ينبغى أن تكون بين أهل منزل واحد لتنتظم بها المصلحة المنزلية التى تتم بين زوج وزوجة ووالد ومولود ومالك ومملوك، وفائدة المدنية أن يعلم كيفية المشاركة التى تقع بين أشخاص الناس ليتعاونوا على مصالح الأبدان ومصالح بقاء نوع الإنسان.

والمدنية قد قسمت إلى قسمين: إلى ما يتعلق بالمُلك والسلطنة ويسمى علم السياسة، وإلى ما يتعلق بالنبوة والشريعة ويسمى علم النواميس. لهذا جعل بعضهم أقسام الحكمة العملية أربعة، وليس ذلك بمناقض لمن جعلها ثلاثة لدخول قسمين منها تحت قسم واحد، ومنهم من جعل أقسام النظرية أيضاً أربعة بحسب انقسام المعلومات، فإن المعلوم إما أن يفتقر إلى مقارنة المادة الجسمية فى الوجود العينى أولاً، والأول إن لم يتجرد عنها فى الذهن فهو الطبعى وإلا فهو الرياضى، والثانى إن لم يقارنها البتة كذات الحق سبحانه وأسمائه وصفاته سبحانه فهو الإلهى، وإلا فهو العلم الكلى.

والحكمة الأولى كالعلم بالوحدة والكثرة والسبب والمسبب وأمثالها، مما يعرض للمجردات تارة وللأجسام أخرى ولكن بالعرض لا بالذات، إذ لو افتقر بالذات إلى المادة الجسمية لما انفكت عنها ولما وصفت المجردات بها، ولا منافاة بين التقسيمين كما عرفت، فهذه جملة أقسام الحكمة، ومن استكمل نفسه بها فقد أوتى خيراً كثيراً.

عين اليقين وحق اليقين

هذان المرتبتان فيض فضل بلا كسب بعد الرياضات وتزكية النفس.

عين اليقين

هى أن تصير النفس بحيث تشاهد فى المفارق المعانى الروحانية التى تدركها العقول بالبراهين الحقيقية رؤية هى نفس اليقين وخالصه.

حق اليقين

وهى أن تصير النفس بحيث تتصل بالمفارق اتصالاً روحانياً، وتلاقى ذاتها ذاته تلاقياً روحانياً، حتى تصير النفس نفساً ملكية تسبح فى فسيح الملكوت الأعلى.

فالمراد من الوصول إلى كمال المعرفة، الوصول إلى إحدى هاتين المرتبتين، ومرتبة حق اليقين مرتبة الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ

مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ الأنعام ٧٥، والمراد بالمفارق ما عدا عالم المُلك وهو عالم الملكوت والعزة والجبروت.

الفكر فى آلاء الله لا فى ذات الله

معلوم أن أكمل الأعمال هى أعمال القلوب، وأن أعمال الجوارح المجردة عن أعمال القلوب مختلف فى قبولها بنص قوله ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات). وبما ورد فى محكم الآيات القرآنية من الحث على الإخلاص والصدق والتفكر، حتى كانت كل دلائل التوحيد وبراهين الوحدانية الواردة فى القرآن الشريف كلها من طريق الفكر والنظر فى الآثار الكونية والآيات الربانية الظاهرة فيها كقوله تعالى:﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ الآية، إلى ﴿يَعۡقِلُونَ﴾ البقرة ١٦٤، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ آل عمران ١٩٠-١٩١، وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ﴾ يونس ١٠١ الآية، وقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾ فصلت ٥٣، وإلى قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ﴾ الغاشية ١٧-١٨، الخ فى الغاشية وآيات لا تحصى من المحكمات.

فأقام الله سبحانه وتعالى الدلائل على أنه سبحانه تفضل بالعناية الكبرى بالإنسان، وسخر له ما فى السماوات وما فى الأرض جميعاً منه ليتفكر فيما أحاط به وفيما فى نفسه، حتى تحصل له الطمأنينة بأن الله سبحانه وتعالى هو المبدع لكل ذلك الذى أنشأه من العدم، فيطمئن قلبه بربه وتسكن نفسه إليه سبحانه وتعالى، كامل الإيمان بحقيقة التوحيد، مصدقاً بالغيب الذى أخبر الله تعالى عنه من كمالاته الذاتية وأسمائه وصفاته، وما أعده لعباده الصالحين من النعيم المقيم، وما أعده للكافرين الظالمين من العذاب الأليم.

الفكر فى آلاء الله، موصل إلى السعادة الأبدية فإن الفكر فى تلك الآثار الكونية يدل على أنها مبدعة محدثة، خصوصاً إذا فكر فى تلك الأجرام السماوية العظام وإبداع صنعتها، وفى نفسه وما أحاط به وما فيها من غرائب الحكمة وبدائع القدرة مما تكل الأفهام عن إدراك بعض عجائبه، تحقق عظمة شأن الصانع وكبرياء سلطانه، لأن أكمل فكر وأصفى عقل

يعجز عن إدراك أسرار الآيات الظاهرة ويندهش العقل عند ظهور بعض حكمها، وما هى عليه من كمال النظام والترتيب العجيب، فسبحان من لا يعلم قدره غيره ولا يبلغ الواصفون صفته.

فإذا كان الفكر فى الآلاء عجز عن كشف أسرارها وعن نسب مراتبها، فكيف يتسنى للفكر أن يتفكر فى حقيقة الصانع البديع الخلاق العظيم؟! عن النبى ﷺ: (بينما رجل مستلق على فراشه إذا رفع رأسه فنظر إلى النجوم وإلى السماء فقال: أشهد أن لك رباً وخالقاً، اللهم اغفر لى، فنظر الله إليه فغفر له) وقال عليه الصلاة والسلام: (لا عبادة كالتفكر)، هذا والفكرة تذهب الغفلة وتحدث للقلب الخشية، وما جليت القلوب بمثل الأحزان ولا استنارت بمثل الفكر، قال رسول الله ﷺ: (تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى ذات الله).

ولما كان لابد لمن يريد أن يتفكر فى آلاء الله من أن يعرف ما أحاط به من الكائنات، فاستحسنت أن أعرف ما لابد للمتفكر منه بقدر ما يناسب عقل المسترشد، وقبل التعاريف أذكر تلك الآبيات الحاثة على الفكر فى آلاء الله، والمبينة لما اختص به الإنسان من حيث هو إنسان ذكرى لمن كان له قلب:

زجَّ بالفكرِ فى شئون المعانى ... بيقين محصنٍ بالأمانى
تتجلى من الشئون شموس ... مشرقات بنورها الربانى
لا تجاوز تلك الشئون بفكر ... فالمعانى جلت عن الإمكانى
ورياض التفكير تلك المرائى ... وهو كنز طَلَسْمُه بالمبانى
ودع القلب للمقلب يجلى ... فيه ما شاء من شهود بيانى
وإلى الله فِرَّ بالحول منه ... بسكونٍ لا حيرة وافتتان
ودع الحول للمحول واسكن ... مطمئناً بالواحد الصمدان
فمعانى الصفاتِ غيبٌ علىٌّ ... لا تراه القلوب والعينان
عدّ عن فكرك المقيد وارحل ... عن موازين عقلك الإنسانى
وبنورِ اليقينِ فاسكن إلى الله ... بصدق تفُزْ بالرَّوْحِ والريحانى

ما تـوهمَته بميزان كسب — فهو مهـواة حـاطبٍ حيران
نَزِّه الـذاتَ والمعانـى عن الفكر — وجُلْ فى سـائـر الأركـان
جلت الـذاتُ والمعـانـى تعـالت — هـى غيبٌ والكونُ أى البيـان
من يمت يحيى بـاقيـاً بحياة — وبقـاء منعماً بـالعيـان
يحيى بـالله سـامعـاً وبصيراً — يَبْقَى بـالله فى مقام التدانى
ذاك سرٌّ عـن دركه كل عقل — مبعد بـالحدود والإمكانى
وشهـودى معنـاى محوٌ وجودى — بـانبلاج المعنـى وحجب المبانـى
عندهـا الظاهرُ القريبُ تعالى — بـالتجلى منزهٌ عن ثـانـى
أنـا أفقُ الأنـوارِ سرُّ التجلى — فِيَّ آى مـن الجمال المصـان
بـى أضاءت ولى تراءت بنفسى — وبعجـزى علمـى به إيقانـى
كل مـا فى الأكـوانِ سُخِّرَ فضلاً — لى بمحضِ الحنـان والإحسـان

تعاريف تلزم لمن ذاق حلاوة الفكر فى الآيات

السالك طريق الله تعالى عليه أن يحصل على ما لابد له منه، مما أوجبه الله تعالى عليه من معرفته سبحانه، ومعرفة رسله وملائكته وكتبه وما أخبر عنه، ومعرفة آياته الدالة على بديع صنعه وعجيب قدرته ولطيف حكمته، حتى يكون سالكاً على منهج سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ، ويعرف ما أوجبه عليه من الأعمال والأخلاق والمعاملات، ليكمل كمالاً يجعله باقياً أبداً مع النبيين والصديقين والشهداء، محفوظاً من النقص المؤدى إلى عذاب الله ومقته وسخطه.

ولما كانت تلك الواجبات كلها أتى بها القرآن الكريم وبينها رسول الله ﷺ بياناً اطمأنت به النفوس الزكية وثلجت به القلوب السليمة، وكانت الآيات الحاثة على الفكر قد وردت فى الكتاب العزيز مفصلة ومجملة فى مواضيع كثيرة، خصوصاً التفكر فى النفس وفيما فى السماوات والأرض وفى الأفلاك والسحب والهواء والحيوانات والنباتات والجبال وأنواعها، كان ولابد للسالك أن يحيط علماً بتعريف كل نوع حتى يمكن أن يجول بنفسه المفكرة فى

أسراره المنطوية فيه وآياته الظاهرة، ليعلم من قدرة ربه تعالى ما يجعله موحداً، ومن حكمته سبحانه ما يجعله مسلماً، ولما كان الرسول ﷺ هو شمس تلك الأسرار المضيئة على القلوب والأبدان، والشراب الطهور للنفوس والأرواح، والنور المبين سبل الحق ومناهجه، لزم لطالب النجاة أن يعتصم بهديه ﷺ ويتحصن بسُنته صلوات الله وسلامه عليه، والعلماء ورثته ﷺ لكل منهم قسط من أنواره، والحكماء أكمل الناس فى التجمل بحلل الوراثة، والحكيم هو الذى يوجد فيه سبع خصال محمودة، أحدها أن تكون أفعاله محكمة، وصنائعه متقنة، وأقاويله صادقة، وأخلاقه جميلة، وآراؤه صحيحة، وأعماله زكية، وعلومه حقيقية.

قاعدة لمعرفة الكائنات المحيطة بنا

معلوم أن معرفة حقيقة الأشياء هى معرفة حدودها ورسومها وذلك أن الأشياء كلها نوعان: مركبات وبسائط.

فأما المركبات فتعرف حقائقها إذا عرفت الأشياء التى هى مركبة منها، والبسائط تعرف حقائقها إذا عرفت الصفات التى تخصها.

مثال ذلك: إذا قيل لك: ما حقيقة الطين؟ فيقال: ماء وتراب مختلطان. والسكنجبين فيقال: عسل وخل ممزوجان. والسرير: خشب وصورة مركبان. والكلام: ألفاظ ومعان مؤلفان. واللحن: نغمات حادة وغليظة متحدان. والحيوان: نفس وجسد مقرونان.

وعلى هذا القياس تجيب إذا سئلت عن هذه الأشياء المركبة، إذاً لابد من ذكر تلك الأشياء التى هى مركبة ومؤلفة منها، فأما الأشياء البسيطة فتعرف حقائقها إذا عرفت الصفات التى تخصها.

مثال ذلك إذا قيل لك: ما الجسم المطلق فيقال: جوهر بسيط قابل للصورة. فإن قيل: ما الصورة؟ فيقال: ماهية الشئ وله الاسم والعقل والقيمة. فإن قيل: فما الجوهر؟ فيقال: هو القائم بنفسه القابل للصفات. فإن قيل: فما الصفة؟ فيقال: عرض حال فى الجوهر لا كالجزء منه. فإن قيل: ما الشئ؟ فيقال: هو المعنى الذى يعلم ويخبر عنه. فإن قيل: ما الموجود؟ قيل:

هو الذى وجده أحد الحواس أو تصوره العقل أو دل عليه الدليل. فإن قيل: ما المعدوم؟ فيقال: ما قابل هذه الأشياء المذكورة فى الوجود. فإن قيل: ما المحدث؟ فيقال: ما كونه غيره. فإن قيل: ما الإحداث؟ فيقال: تكوين المكون. فإن قيل: ما العَالِم؟ فيقال: هو المتصور للشئ على حقيقته. فإن قيل ما العلم؟ فيقال: صورة المعلوم فى نفس العالم. فإن قيل: ما الحى؟ فيقال: المتحرك بذاته.

فإن قيل: ما القادر؟ فيقال: هو الذى لا يتعذر عليه الفعل متى شاء. فإن قيل: ما الفعل؟ فيقال: أثر من مؤثر فى مؤثر فيه. فإن قيل: ما معنى البارى تعالى؟ فيقال: مبدع المبدعات ومخترع الكائنات ومتقنها ومتممها ومكملها ومبلغها إلى أقصى مدى غاياتها ومنتهى نهاياتها بحسب ما يتأتى فى كل واحد منها.

فإن قيل: ما القدرة؟ فيقال: إمكان إيجاد الفعل. فإن قيل: ما الصنعة؟ فيقال: هو إخراج الصانع من فكره ووضعه فى الجسم. فإن قيل: ما المصنوع؟ فيقال: مركب من جسم وصورة.

فإن قيل: ما العقل الأول؟ فيقال: هو أول مُبْدع أبدعه الله تعالى وهو جوهر نورانى، وقد ورد فى حديث: (أول ما خلق الله تعالى العقل)، وورد (أول ما خلق الله نور نبيك من نوره) فيظهر أن العقل الأول هو نور رسول الله ﷺ.

النفس: هى جوهرة روحانية حية علامة فعالة بإذن الله تعالى. **الإرادة:** هى إشارة بالوهم إلى تكوين أمر ممكن كونه وكون خلافه لتخصيص أحدهما. **العقل الإنسانى:** هو التمييز الذى يخص كل واحد من أشخاصه دون سائر الحيوانات. **الجنس:** هى صفة جماعة مختلفة الصور يعمها معنى واحد. **النوع:** هى صفة جماعة متفقة بالصورة يعمها معنى واحد. **الشخص:** هو كل جملة يشار إليها دون غيرها مميزة من غيرها بالأفعال والصور. **الخاصة:** هى صفة مخصوصة بطيئة التحول. **النور:** هو جوهر مرئى يضئ من ذاته ويرى به غيره. **الظلمة:** هى عدم النور عن الذات القابلة للنور. **النهار:** هو ضوء الشمس. **الليل:** هو ظل الأرض. **الحرارة:** غليان أجزاء المادة. **البرودة:** جمود أجزاء الجسم المادى. **الرطوبة:** سيلان أجزاء المادة. **اليبوسة:** تماسك أجزائها. **اللون:** بروق شعاعات الأجسام. **الرائحة:** أبخرة

ذوات كيفيات تحلل من الأجزاء المركبة. **الصوت**: قرع فى الهواء من تصادم الأجسام. **الكون**: قبول الجسم صورته وخروجه من حيز العدم. **الزيادة**: تباعد نهايات الشئ **والنقصان**: تقاربها. **التغير**: تبدل الصفات على الموصوف. **النقلة**: خروج من مكان إلى مكان. **المكان**: كل موضع تمكن فيه المتمكن وهو نهايات الجسم. **الزمان**: عدد حركات الفلك وتكرار الليل والنهار. **الفلك**: هو جسم شفاف كروى محيط بالعالم. **العالم**: جميع الموجودات المتكونات التى يحويها الفلك. **الكواكب**: هى أجسام منيرة مستديرة. **الجسم**: هو ماله طول وعرض وعمق. **الجسم الشفاف**: هو كل جسم يرى ما وراءه. **النار**: هى نير حار يبدد الأشياء ويفرق أجزاءها ويردها إلى ذاتها البسيطة. **الهواء**: هو جسم لطيف خفيف سيال شفاف سريع الحركة إلى الجهات الست. **الجهات الست**: هى فوق وتحت وغرب وشمال وجنوب وشرق. **الماء**: هو جسم سيال قد أحاط حول الأرض. **الأرض**: هى جسم غليظ أغلظ ما يكون من الأجسام وتواقعت فى مركز العالم. **الزبد**: هو ماء وهواء. **الرياح**: هو تموج الهواء وسيلانه إلى إحدى الجهات. **الأثير**: هو الهواء الحار الذى يليه فلك القمر. **النسيم**: هو الهواء المعتدل الذى يلى وجه الأرض. **الزمهرير**: هو الهواء الذى هو فوق كرة النسيم ودون الأثير وهو بارد مفرط البرودة. **الشعاع**: هو نور الشمس والقمر والكواكب السيارة فى الهواء نحو مركز الأرض. **انعكاس الشعاع**: هو رجوع تلك الأنوار من سطح الأرض والبحار والأنهار والجبال فى الهواء. **البخار**: هو أجزاء مائية رطبة ترتفع عند غليان الماء فتتحرك به الآلات والأدوات لنفع العالم. **الدخان**: هو أجزاء أرضية لطيفة ترتفع فى الهواء مع الحرارة. **الغيم والسحاب**: هما الأجزاء المائية إذا كثرت فى الهواء وتراكمت. الغيم منها هو الرقيق، والسحاب هو المتراكم. **المطر**: هو تلك الأجزاء المائية إذا التأم بعضها مع بعض وبردت وثقلت ورجعت نحو الأرض. **الرياح**: هى تلك الأجزاء الأرضية إذا بردت ورجعت نحو مركزها. **البرق**: هو النار تنقدح من احتكاك تلك الأجزاء الدخانية فى جوف السحاب. **الرعد**: هو الصوت الذى يدور فى جوف السحاب ويطلب الخروج. **الصاعقة**: هى صوت يحدث من خروج تلك الرياح دفعة واحدة مع تلك البروق من اتحاد الكهربائية الجوية. **الصوت**: هو قرع يحدث فى الهواء من تصادم الأجسام بعضها مع بعض. **الضباب**: هو

البخار الرطب يثور من وجه الأرض يعقب الأمطار. **الهالة**: هى دائرة تحدث فوق سطح الغيم من انعكاس شعاع الشمس والقمر والكواكب. **قوس قزح**: هو نصف محيط تلك الدائرة إذا حدثت فى كرة النسيم ملونة بألوان متناهية فى أعلاها الحمرة والصفرة دونها، والخضرة دون الاصفرار والزرقة دون الخضرة. **الثلوج**: قطر صغار تجمد فى خلل الغيم تنزل برفق. **البرد**: هو قطر تجمد فى الهواء بعد خروجها من سمك السحاب. **السيول**: هى مياه أودية تجرى من كثرة الأمطار. **زيادة الأنهار**: هى من ماء العيون الذى ينزل من أصول الجبال فينصب ويجرى فى بطون الأودية، وزيادتها من كثرة السيول. **الزلزال**: هى حركة بعض بقاع الأرض من أبخرة ناتجة عن انفعالات فى جوف الأرض محبوسة، تلك الأبخرة تريد الصعود. **الجبال**: هى أوتاد الأرض وبها تتغير مجارى الرياح وتمد الأنهار بالمياه التى تستودع فيها من الأمطار وتجمد على رؤوسها ثم تجرى سيولاً. **الجزائر**: هى بقاع من الأرض فى وسط البحار. **البرارى**: هى بقاع من الأرض ليس فيها نبات ولا بناء. **الآجام والبطائح**: هى بقاع فيها مياه ونبات. **الغدران**: هى مواضع يجتمع فيها مياه الأمطار. **الأرض**: هى جسم كروى الشكل وقفت فى الهواء بإذن الله تعالى بجميع ما عليها من الجبال والبحار. **الهواء**: هو محيط بالأرض من جميع الجهات. **الفلك**: هو محيط بالهواء مثل ذلك. **مركز الأرض**: هى نقطة فى وسط عمقها ومن تلك النقطة إلى ظاهر سطح الأرض ثلاثة ونصف من اثنين وعشرين من المحيط (٣,٥ من ٢٢ من المحيط). **البحار**: هى مستنقعات على وجه الأرض حاجزة للمياه المجتمعة فيها. **زيادة البحر**: هى انصباب مياه الأنهار والأودية فيها، فإن قيل: ما العلة فى مد بحر فارس وجزره فى اليوم والليلة؟ يقال: علة كون المد عند طلوع القمر فإنه يؤثر فى غليان أجزاء المياه فى قعره وثوران انتفاخها ورجوع تلك الأنهار المنصبة إلى الخلف فيظهر المد فعله، كون الجزر هى عند مغيب القمر ورجوع تلك الأجزاء إلى قرارها ويؤثر بإزالة الغليان والفوران والانتفاخ السكوب فيظهر الجزر. العلة فى أن مياه البحار كلها مالحة مُرة غليظة ومياه الأمطار وأكثر الآبار عذبة لطيفة، لأن الحكمة الإلهية اقتضت حفظ الماء من التغير والتعفن فمزجته بالملح ليكون خزانة يصرف منه على عباده فى كل سنة القدر الذى أراده بالأمطار ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ الحجر ٢١، ولولا ذلك لتعفن الماء وأهلك العالم كله.

الطبائع الأربعة: هى البرودة والحرارة والرطوبة واليبوسة. **الأركان الأربعة**: هى النار والهواء والماء والأرض. **الأخلاط الأربعة**: هى الصفراء والسوداء والدم والبلغم. **المولدات الكائنة**: هى المعادن والنباتات والحيوان. **المعادن**: هى ما يكون فى عمق الأرض من الجواهر وغيرها مما يجرى مجرى الموات. **النبات**: هو الظاهر على وجه الأرض من نبات الأشجار. **الحيوان**: هو كل جسم متحرك حساس مؤلف من نفس حيوانية وبدن موات. وتقويمها على ضربين فمنها ما يتكون ويتولد فى الرحم، ومنها ما تخرجه البيض ومنها ما يتولد من أشياء، ومنها ما يجتمع من الطرفين يتوالد ويتولد. **الإرادة**: هى إشارة بالوهم إلى تكون شئ ما يمكن كون ذلك ويمكن كون غيره. **القدرة**: هى إمكان شئ من الأفعال اختياراً. **الاختيار**: هو قبول أحد الأمرين بالوهم من ذوات الباطن وذوات الظاهر بالحس. **الجهل**: هو تصور الشئ بغير صورته. **الاعتقاد**: هو عقد الاحتمال على تحقيق شئ. **الوهم**: هو قوة من قوى النفس الحيوانية متخيلة بها الأشياء. **الإيمان**: هو التصديق بما يخبر به المخبر. **الإسلام**: هو التسليم بلا اعتراض. **الطاعة**: هى من جماعة لرئيس ينتظر منه نيل الجزاء. **الكفر**: هو الغطاء. **الشرك**: إثبات ربوبية اثنين. **الجحود**: هو إنكار الحق. **المعصية**: هو الخروج عن الطاعة. **الطاعة**: هى الانقياد لأمر الآمر ونهى الناهى. **الميعاد**: هو رجوع الخلق إلى النعيم أو إلى العذاب. **الثواب**: هو ما يجعل لكل نفس من السعادة والراحة واللذة والسرور والفرح بعد الموت. **العقاب**: هو ما ينال الإنسان من الحزن والآلام والخوف بعد الموت وكل إنسان بحسب ما اكتسب من الخير والشر والله غفور رحيم. **المعروف**: هو كل فعل لم تنه عنه الشريعة والسُنة وجرت به العادة. **المنكر**: ما نهت عنه الشريعة ولم تجر به السُنة ولا العادة. **أجرة الأجير**: هو جزاء لما يستحق كل عامل بما يعمله. **الشكل**: صورة جسمانية. **اللون**: صورة روحانية. **النبات**: هو كل جسم يتغذى وينمو. **الحيوان**: كل جسم متحرك حساس. **الإنسان**: حى ناطق مائت، هو جملة مركبة من نفس ناطقة وبدن مائت. **الجسم**: جوهر لطيف طويل عريض عميق. **اللفظ**: كل صوت له هجاء. **الكلام**: كل لفظ يدل على معنى. **الصدق**: هو إيجاب صفة لموصوف هى له أو سلب صفة عن موصوف ليست له. **الكذب**: هو عكس ذلك، ويقال أيضاً: الصدق والكذب فى الأقاويل، والصواب والخطأ فى الضمائر، والخير والشر فى الأفعال، والحق والباطل فى الأحكام، والضر والنفع فى الأشياء

المحسوسة. **الدنيا**: هى مدة بقاء النفس مع الجسد إلى وقت افتراقها الذى يسمى الموت. **الموت**: هو ترك النفس استعمال البدن. **الآخرة**: هى نشأة ثانية بعد الموت، ويقال أيضاً: الموت هو بقاء النفس بعد مفارقة الجسد وخلوها عنه فى عالمها. **الجنة**: هى عالم المتقين. **جهنم**: عالم الكفار والفجار. **الجنة**: هى المرتبة العليا. **جهنم**: هى المرتبة السفلى. **البعث**: هو رجوع الأرواح للأشباح وانتباهها للقيامة. **النوم**: هو اشتغال النفس عن الجسد بغيره مع شمول عنايتها به. **القيامة**: هى قيام النفس والجسد من دور البرزخ. **الحشر**: هو جمع الخلق للحساب والجزاء. **الحساب**: هو عرض الأعمال على العمال أمام الحق. **الصراط**: هو طريق مستقيم قاصد إلى الله تعالى، المبين فى الكتاب والسُنة وفى الآخرة طريق على متن جهنم يمر عليه الناس. **الألوان المفردة**: هى البياض والسواد والحمرة والصفرة والخضرة والزرقة والمكدرة. **الطعوم**: تسعة أنواع وهى العفوصة والقبوضة والحموضة والحلاوة والملوحة والمرارة والحرافة والمزوزة والدسومة.

الفصل الثانى

العلم والإيمان

إن الله تعالى قد أكثر ذكر المؤمنين فى القرآن بالمدح والثناء الجميل عليهم ووعدهم الثواب الجزيل فى الدنيا والآخرة جميعاً، وهكذا أيضا قد أكثر ذكر الكافرين بسوء الثناء عليهم والزجر والتهديد والوعيد فى الدنيا والآخرة جميعاً. فنريد أن نبين من المؤمن حقاً ومن الكافر حقاً؟ إذ كان هذا أمراً قد التبس على كثير من أهل العلم، حتى صار يُكفِر بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً بغير علم ولا بيان ولكن من أجل أن كثيراً من أهل العلم لا يعرفون الفرق بين العلم والإيمان، احتجنا أن نبين ما الفرق بينهما، وذلك أن كثيراً من المتكلمين يسمون الإيمان علماً، ويقولون هو علم من طريق السمع وما يعلم بالقياس فهو علم من طريق العقل، فأريد أن أبين حقيقة العلم.

لما كان المعلوم لا يكون علماً للنفس إلا إذا تصورت النفس رسوم هذا المعلوم فى ذاتها، فالعلم هو تصور النفس رسوم المعلوم فى ذاتها.

ولما كانت أخبار الرسل عليهم الصلاة والسلام عن الله تعالى، بما يجب على الناس أن يصدقوا به من معانى الكمالات الإلهية وتنزيه ذاته عز وجل وما وصف به نفسه سبحانه وتعالى، لا يمكن للنفوس أن تتصور رسومه وتتبين معانيه قبل الإقرار والتصديق وتزكية النفس وتطهيرها من كثافة الجهل وظلمات العقائد الباطلة، والآراء الفاسدة والآمال المبعدة والحظوظ والأهواء، كان الإيمان هو الإقرار والتصديق بدون تصور رسوم المعلوم فى ذات النفس.

وبذلك يظهر التفاوت بين العلم والإيمان. ومن أجل هذا دعت الأنبياء أممهم إلى الإقرار أولاً، ثم طالبوهم بالتصديق بعد البيان، ثم حثوهم على طلب المعارف الحقيقية بدليل قول الله تعالى عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ البقرة ٣، ولم يقل: يؤمنون بالشهود. ثم حثهم على طلب العلم بقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَـٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ الطلاق ١٠، و﴿يَـٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ الحشر ٢، ثم

مدح فقال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ المجادلة ١١، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ الروم ٥٦، وكفى بهذا فرقاً بين العلم والإيمان.

فيجب أن أبين شرائط الإيمان وصفات المؤمن ليعلم كل إنسان، هل هو مؤمن حقاً أو شاك مرتاب؟ لأن المؤمنين هم ورثة الأنبياء وتلاميذهم، وأن الأنبياء لم يورثوا دراهم ودنانير بل ورثوا هدياً وعلماً وعبادة، فمن أخذ بها فقد نال حظاً جزيلاً، كما ذكر الله جل ثناؤه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ فاطر ٣٢، وقال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الجمعة ٤.

حقيقة العلم والإيمان

أريد أن أبين حقيقة العلم والإيمان فأقول: إن العلم هو صورة المعلوم فى نَفْس العَالِم، والإيمان هو التصديق لمن هو أعلم منك بما يخبرك عما لا تعلم. واعلم أنه رُبَ صورة فى نفس العَالِم ليس لها وجود فى الكون المحسوس، فنحتاج أن ننظر فى هذا الباب نظراً شافياً، فإن الشك يدخل الشُبه على العلماء من هذا الباب.

وأما الإيمان فهو التصديق للمخبر فيما قال وأخبر عنه، ولكن رُبَ مخبر بخلاف ما فى نفسه فيكون كذاباً إن كان قاصداً لذلك، ورُبَ مصدق أيضاً لكاذب، وهذا أيضاً يحتاج إلى نظر شاف، لأن الشُبهة تدخل على القائلين والمستمعين فى هذا الباب.

نتائج الإيمان

اعلم أيها السالك المسترشد أن الإيمان يورث العلم، لأنه متقدم الوجود على العلم، ومن أجل هذا دعت الأنبياء عليهم السلام الأمم إلى الإقرار بما أخبرتهم، والتصديق بما كان غائباً عنهم عن إدراك حواسهم وتصور أوهامهم، فإذا أقروا بألسنتهم سموهم عند ذلك المؤمنين، ثم طالبوهم بتصديق القلب، كما ذكر الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ التغابن ١١، فإذا وقع التصديق بالقلب سموهم الصديقين، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ الزمر ٣٣.

أول الإيمان

هو تصديق الأنبياء للملائكة فيما يخبرونهم عنه مما هو فوق إدراك النفوس البشرية الزكية قبل أن تخبرهم الملائكة، فالتصديق بأخبار الملائكة من الرسل عليهم الصلاة والسلام أول الإيمان، وذلك قبل أن تخبرهم الملائكة، فالتصديق سابق عن الخبر، كما قال الله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ البقرة ٢٨٥ إلخ.

واعلم أن الملائكة محتاجون إلى الإيمان فهم متفاوتون فى درجات العلوم، كما أخبر الله تعالى عنهم فقال: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ الصافات ١٦٤، لأن أشرف الملائكة حملة العرش الذين هم فى أعلى المقامات فى العلوم، وهم أيضاً محتاجون إلى الإيمان كما أخبر عنهم سبحانه فقال جل ثناؤه: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ غافر ٧.

وأنت أيها الراغب فى السعادة محتاج إلى الإيمان والتصديق بقول المخبر لك الذى هو فوقك فى العلم وأعلى منك فى المعارف، لأنك إن لم تؤمن بما يخبرك به حُرمت أشرف العلوم وأجل المعارف، واعلم أنه ليس لك طريق إلى تصديق المخبر لك فى أول الأمر إلا حُسن الظن بصدقه، ثم على مر الأزمان تظهر لك حقيقة ذلك، فلا تطالبه بالبرهان فى أوله، ولكن سلم له وذُق من لطيف عباراته وجميل إشارته وعلِّ أحواله وشريف أعماله، ما به تتروح روحك وتزكو نفسك، وينكشف لبصيرتك صدق ما يقول وحقيقة ما يفعله، والله الموفق لك.

تفاوت المؤمنين

إن القرآن الكريم بين أن المؤمنين درجات، وأن أهل العلم درجات، لأن الإنسان لا يبلغ درجة فى العلم إلا ويلوح له فوقها درجات لم يبلغها بعد، كما ذكر الله تعالى بقوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ يوسف ٧٦، فهو من أجل هذا يحتاج إلى الإقرار به والتصديق بقول من هو أعرف وأعلم منه، وإذ قد بان لك فضل العالم والمؤمن والعلم والإيمان، لزم لنا أن نبين أنواع الناس بالنسبة للعلم والإيمان.

أنواع الناس

أنواع الناس بالنسبة للمعارف أربعة:

١ نوع رُزق العلم ولم يُرزق الإيمان.

٢ ونوع رُزق الإيمان ولم يُرزق العلم.

٣ وفريق قد وفر حظه منهما جميعاً فضلاً من الله تعالى.

٤ وفريق حرم العلم والإيمان.

ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ الروم ٥٦، فأخبر سبحانه بهذا عن أشرفهم فى المعارف، إذ كان علم البعث والقيامة من أشرف العلوم.

وأما الذين أوتوا الإيمان ولم يرزقوا العلم فهم المُقرون بما فى كتب الأنبياء عليهم السلام من أخبار البعث وأمر المبدأ والمعاد، وأحوال الملائكة ومقاماتهم، وحديث البعث والقيامة والحشر والنشر والحساب والميزان والصراط، وجزاء الأعمال فى النشأة الآخرة، ونعيم الجنان وما شاكلها من الأمور الغائبة عن الحواس، البعيدة من تصور الأوهام. وهم مع قلة علمهم ساكنة نفوسهم لما أخبرت به الأنبياء، وما أشاروا به من الثواب فى الميعاد ونعيم الجنان، ومصدقون لهم فى السر والإعلان، راغبون فيها طالبون لها عاملون من أجلها، ولكنهم تاركون البحث عنها والتشوف لها والنظر فى حقائقها، كيف وأين ومتى ولم؟ وإليهم أشار بقوله: ﴿فَسَلَـٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ الواقعة ٩١، لهم الأمن واليمن والأمان والإيمان.

وأما الذين رزقوا حظاً من العلم ولم يرزقوا الإيمان، فهم طائفة من الناس نظروا فى كتب الفلاسفة والحكماء وبحثوا عنها وارتاضوا بما فيها من الهندسة والتنجيم والطب والمنطق والجدل والطبيعيات وما شاكلها، فأعجبوا بها وتركوا النظر فى كتب القرآن الشريف والسُنة، والبحث عن أسرار الحكم والأحكام الشرعية والكشف عن خفيات مرموزات الآيات

القرآنية والإشارات النبوية، فعميت عليهم الأنباء وانطمست بصيرتهم، فهم شاكون فى حقائقها، ومتحيرون فى معرفة معانيها، جاهلون بلطيف أسرارها، غافلون عن عظيم شأنها، وإليهم أشار بقوله تعالى: ﴿فَفَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ غافر ٨٣.

وأما الذين حرموا العلم والإيمان جميعاً طائفة من الذين أترفوا فى هذه الحياة الدنيا، وهم مشغولون الليل والنهار فى طلب شهواتها، مغرورون بعاجل حلاوات لذات نعيمها، تاركون لطلب الآداب معرضون عن العلم وأهله، غافلون عن أمر الديانات وأحكام الشرائع ومفروضات السُنن، التى الغرض منها نجاة النفس وطلب الآخرة، وإليهم أشار بقوله تعالى: ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ المؤمنون ٣٣، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ الحجر ٣، وقال تعالى: ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ محمد ١٢.

فأما الذين أوتوا من العلم والإيمان حظاً جزيلاً، فهم إخواننا المتقون الذين يخشون الله، والذين إليهم أشار سبحانه وتعالى بقوله: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ المجادلة ١١، وقد بينا عن مذهبهم وأخلاقهم وآرائهم فيما كتبناه من العقائد والأخلاق والمعاملات، فانظروا فيها أيها الراغبون نوال الحظوة، فلعلكم بفهم معانيها والعمل بها بمعونة الله وحسن التوفيق وبروح منه، تكونون من أهل المشاهد القدسية والدرجات العلية، وتهتدون لطريق ملكوت السماء وتنظرون إلى الملأ الأعلى، وتساقون إلى الجنة زُمراً.

شروط الإيمان وخصال المؤمنين

إذا علم الإنسان شرائط الإيمان وخصال المؤمنين، علم ما الإيمان ويعرف من المؤمن بالحقيقة.

الإيمان مقول على نوعين: ظاهر وباطن.

فالإيمان الظاهر هو الإقرار باللسان بخمسة أشياء:

١ الإقرار بأن للعالم صانعاً واحداً، حياً قادراً، حكيماً أحداً، صمداً عالماً، مريداً مدبراً، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، غنياً بذاته عن المكان والزمان، مُنزهاً عن الكم والكيف والنظير والند والضد، عليّاً عن الإدراك إذ لا يعلم حقيقته إلا هو وحده سبحانه، وهو الله خالق الخلق كلهم ومدبرهم لا شريك له فى ذلك.

٢ الإقرار بأن له ملائكة صفوة الله من خلقه، أقامهم لعبادته وطاعته وجعلهم حفظة لخلقه، ووكل كل طائفة بالقيام بشأن مما قدره ودبره وأراده من شئونه، التى يبديها فى خلقه ولا يبتديها فى عالم سماواته وأرضه ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ التحريم ٦.

٣ الإقرار بأنه قد اصطفى صفوة من بنى آدم، وهم رسله وأمناؤه الذين يبلغون الناس كلامه سبحانه المنزل عليهم، ويدعونهم إلى توحيده سبحانه والعمل بما أمر.

٤ الإقرار بأن هذه الأشياء التى جاءت بها الأنبياء عليهم السلام من الوصايا والأنباء باللغات المختلفة، منزلة معانيها من الله سبحانه وتعالى وحياً أوحى الله به إليهم بطرق الوحى المعلومة شرعاً وثبتت عقلاً.

٥ الإقرار بأن القيامة لا محالة كائنة وهى النشأة الآخرة، وأن الخلق كلهم يبعثون ويحشرون ويحاسبون ويثابون بما عملوا من خير ومعروف، ويجازون بما عملوا من شر ومنكر، أو يغفر الله وهو الغفور الرحيم، وذلك قول الله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ البقرة ٢٨٥، وقال: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ البقرة ١٢٦.

ويكمل الإيمان الظاهر بإقرار سادس أن يقر المؤمن بأن سيدنا ومولانا محمداً ﷺ خاتم الرسل وخيرهم، وأن كتابه مهيمن على جميع الكتب، وأن الدلائل والبراهين التى أقامها الله تعالى فى القرآن تكفى لمن سلم قلبه من العناد وطهرت نفسه من الخبث، أن يتحقق أنه رسول الله، وأن القرآن كلام الله، وأن من لم يؤمن به ﷺ كافر، وأن القضاء والقدر خيره وشره من الله تقديراً وإرادة وإيجاداً، وأن التكلم فيه بدون علم وتسليم ربما أدى إلى سلب الإيمان، ولا يكمل الإيمان الظاهر إلا بالعمل على قدر الاستطاعة بما أمر الله به، والنهى مطلقاً عما نهى الله عنه إلا لضرورة شرعية.

ومجموع هذا هو الإيمان الظاهر الذى دعت الأنبياء عليهم السلام الأمم المنكرة لهذه الأشياء إلى الإقرار بها، وهو يؤخذ تلقيناً كما يتلقن الصغار من الكبار والجهال من العلماء.

الإيمان الباطن

عقد القلب على اليقين الحق بما أقر به لسانه فهذا هو حقيقة الإيمان، بحيث يكون عقد القلب كعقد قلب من شهد بعينى رأسه عقداً لا يعتريه شك ولا ريب.

المؤمن ظاهراً

هو المقر بهذه الأشياء بلسانه، المتميز من اليهود ومن النصارى والصابئين والمجوس والذين أشركوا، وبهذا الإقرار يجرى عليه أحكام المسلمين من الصلاة والزكاة والحج والصوم وما شاكلها من مفروضات شريعة الإسلام وسُنة المؤمنين.

المؤمن ظاهراً وباطناً

أما الذين مدحهم الله فى كتبه ووعدهم الجنة، فهم الذين يتيقنون بضمائر قلوبهم حقائق هذه الأشياء المقر بها، وأما الطريق إليه سبحانه فهو بالتفكر والاعتبار والقيام بشرائطها وواجب حقها، كما قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ البقرة ٢١٤.

أكمل شرائط المؤمنين

أولاً التوكل على الله

منها التوكل على الله كما قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ المائدة ٢٣، وقال لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ الفرقان ٥٨، وأريد أن أبين ما التوكل ومن المتوكل على الله بالحقيقة.

اعلم يا أخى أن التوكل هو الاعتماد على الغير عند الحاجة بأن ينوب عنك فيها، واعلم أنه إذا كان المتوكل عليه ثقة يكون قلب المتوكل عليه ساكناً ونفسه مطمئنة، وإذا كان غير ثقة يكون قلب المتوكل عليه غير ساكن ونفسه غير مطمئنة.

واعلم يا أخى أن الناس كلهم متوكلون ولكن أكثر توكلهم على غير الله، من ذلك توكل الصبيان على آبائهم فيما يحتاجون إليه من الطعام والشراب واللبس وغيرها من الحاجات، فهم طول النهار مشغولون باللعب لا يفكرون فى أمر المعاش ولا يهمهم طلبه لاتكالهم على آبائهم، وقلوبهم ساكنة ونفوسهم هادئة ليقينهم بآبائهم، وهكذا العبيد مشتغلون بخدمة مواليهم لا يفكرون فى طلب المعاش اتكالاً على مواليهم فيما يحتاجون إليه، وهكذا جنود السلطان وخدمه لا يفكرون فى طلب المعاش اتكالاً على السلطان فى أرزاقهم المفروضة لهم، فهم مشتغلون فى خدمة سلطانهم.

وأما غير هؤلاء من الناس فهم طائفتان: الأغنياء والفقراء، فأما الأغنياء فاتكالهم على ذخائرهم وأموالهم وقلوبهم ساكنة ونفوسهم هادئة، ولكن الحرص والرغبة والطمع فى الزيادة تحثهم على الطلب، وهم فى الطلب متوكلون على رأس أموالهم وحرفهم وحذقهم بالبيع والشراء فى طلب الربح. وأما الفقراء فهم الصناع الذين يعملون بأبدانهم واتكالهم على صناعتهم وقوة أبدانهم، وأما المكذبون فاتكالهم على الناس فى مواساتهم من فضل ما فى أيديهم.

فبهذا الاعتبار لا تجد أحداً متوكلاً على الله حسن التوكل إلا الأنبياء وصالح المؤمنين،

وذلك أن الأنبياء قبل أن يوحى إليهم يكونون كأحد أبناء الدنيا فى طلب المعيشة، حتى إذا جاءهم الوحى والنبوة تركوا طلب المعاش واشتغلوا بتبليغ الرسالة، ويتوكلون على الله فيما يحتاجون إليه من عرض الدنيا، ويتيقنون به عز وجل وتطمئن به نفوسهم، لأنهم يعلمون ويتيقنون بأن مرسلهم يكفيهم ما يحتاجون إليه فى طاعتهم إذا اشتغلوا فى خدمته، كما أن الملوك يكفون جنودهم ما يحتاجون إليه فى طاعتهم، هكذا المؤمنون المحققون الذين هم ورثة الأنبياء يقتدون بهم ويسلكون مسلكهم فيما دلهم الله عليه، قال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ الأحزاب ٢١، فالتوكل إذن أحد الخصال التى يتبين بها من المؤمن حقاً.

ثانياً الإخلاص فى العمل والدعاء

من أكمل برهان على أن المؤمن كامل الإيمان ذائق حلاوة الإخلاص فى العمل والدعاء لما أمر الله تعالى بقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ غافر ١٤، وقال تعالى: ﴿لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ﴾ البينة ٥.

١ الإخلاص فى العمل هو أن لا يطلب بما يعمل جزاءاً ولا شكوراً من أحد من خلق الله، مثل إخلاص الوالدين فى تربيتهما الأولاد، فإنهما لا يطلبان جزاءاً ولا شكوراً لأنهما قد علما بأنها واجبة فى الجبلة، ومثل إخلاص العبيد الصالحين الذين يخدمون مواليهم من غير خوف من الضرب ولا طلب للعوض، لأنهم قد علموا بأن خدمتهم هى شئ تقتضيها الحكمة، فالعبد الذى يخدم مولاه خوفاً من الضرب أو طلباً للعوض عبد سوء، وهكذا من لا يطيع ربه إلا خوفاً من النار أو رغبة فى الأكل والشرب والجماع فى الجنة فهو أيضاً عبد سوء، والعبد السوء لا يكون مخلصاً فى الدعاء ولا فى العمل.

٢ الإخلاص فى الدعاء لا يكون المؤمن مخلصاً فى دعائه حقيقة الإخلاص ما دام له تدبير وحول وقوة فى دفع ما يدعو لكشفه، حتى يتحقق بالعجز عن دفعه بحوله وقوته وماله وأهله والناس أجمعين، مثال ذلك ما يحصل لأهل السفينة فإنهم يدعون الله تعالى مع اعتمادهم على الربان (رئيس النواتية) وعلى الملاحين (النواتية) فإذا علاهم موج كالظلل وجزع الربان والملاحون ودهشوا عند ذلك يخلص الكل الدعاء لله، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ لقمان ٣٢.

وقد يحصل الإخلاص الحقيقى فى الدعاء للأفراد الذين كوشفوا بحقيقة التوحيد وتحققوا أن الضار والنافع هو الله، فإنهم لخشيتهم من الله لا يتحققون بنفع الأشياء النافعة ولا بضرر الأشياء الضارة، فهم يدعون الله مخلصين أن يدفع عنهم الضر ويمنحهم النفع، ولا تخلو الأحوال التى تصيب بنى آدم فى أبدانهم وأموالهم وأهليهم من الحكم الربانية فيفزعون إلى الله تعالى، ويسألون العارف أن يدعو الله لهم ليكشف الله عنهم ما ألم بهم، فإن دعاء العارف يتلقنه الجاهل ويهدى النفوس إلى معرفته سبحانه، فيعلمون عند ذلك بنظرهم التجاء العقلاء فى دعائهم وتضرعهم إلى الله تعالى، ليكشف عنهم ما هم فيه، أن لهم إلهاً جباراً عالماً قادراً يسمع دعاءهم ويعلم ما هم فيه، وهو قادر على نجاتهم، يراهم وإن كانوا لا يرونه ولا يدرون أين هو، وعلى هذا القياس كلما يصيب الناس من الجهد والبلاء، فيضطرهم ذلك إلى الدعاء والتضرع إلى الله عز وجل، مثل الغلاء والوباء وآلام الأطفال ومصائب الأخيار وما شاكلها من الأمور السماوية التى لا سبيل لأحد فى دفعها عنهم إلا الله تعالى، فيكون ذلك دلالة لهم على الله عز وجل وهداية إليه، كما قال سبحانه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ النمل ٦٢.

ثالثاً الصبر

الصبر هو الصفة التى يتجمل بها من عرف الله، ويتحلى بها من يرجو ثوابه وهى علامة اليقين وحصن المتقين، كما قيل: (الصبر رأس الإيمان)، وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ النحل ١٢٧، وقال للمؤمنين: ﴿ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟﴾ آل عمران ٢٠٠ الآية.

واعلم يا أخى أن الصبر هو الثبات فى حال الشدائد بلا جزع لما يرجى من محمود العاقبة، والصبر مشتق من مرارة الصبر.

واعلم يا أخى أن الناس أكثرهم يصبرون فى الشدائد ولا يكون صبرهم بالله ولا لله، لأنهم يجزعون ويضطربون ويشكون ويظنون بالله ظن السوء، كما قال الله تعالى فى قصة المنافقين: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ الفتح ١٢، وذلك أن منهم من ظن أن تلك الشدائد التى أصابتهم جور منه إذ قضاها عليهم، ومن ظن أنه ليس من قضائه وحكمه، ومنهم من ظن

أنه ليس يعلم ما هم عليه من الجهد والبلوى، ومنهم من يعلم أنه يعلمه ولكنه يظن أنه لا يفكر فيهم ولا يهمه أمرهم، ومنهم من يظن أنه قاسى القلب قليل الرحمة وما شاكلها من ظنون السوء.

فأما الأنبياء والمؤمنون فإنهم يصبرون فى الشدائد والبلوى ويكون صبرهم بالله ولله، وذلك لأنهم يرون ويعتقدون أن الشدائد التى تصيب الخلق فيها ضروب من المصلحة لهم، وإن كان يخفى على كثير من العقلاء ما تلك المصلحة والحكمة، كما بينا فى باب الدعاء والإخلاص عند الشدائد، ومن حكمه فى آلام النفوس الحيوانية دون غيرها من نفوس النباتات والجمادات، حكمة ذلك أن آلام نفوس الحيوانات رحمة من الله تعالى بها لتسارع إلى دفع الأمراض المسببة للألم لتحافظ على سلامة أجسادها من التلف والفساد.

رابعاً الرضا بالقضاء والقدر

هو طيب النفس بما يجرى على الإنسان من المقادير، وجريان المقادير بالقضاء هو علم الله السابق بما رتبته القدرة وخصصته الإرادة فيما كان وما يكون، وإبراز ذلك فى زمانه ومكانه، والرضا بالقضاء والقدر صفة الرسل عليهم الصلاة والسلام وورثتهم من الصديقين والشهداء وقليل ما هم، لأنه عن التحقق بحقيقة التوحيد ومكاشفة حق اليقين، قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الفتح ١٨، وقال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ البينة ٨، والحقيقة أنه لا يرضى بمرارة ما يجرى به القضاء بطيب نفس إلا العارفون بالله تعالى، وفى رضاء هابيل بالقضاء حتى قتل ولم يمد يده، ورضاء السحرة بالقضاء حتى صلبهم فرعون، ورضاء سيدنا الخليل بإلقائه فى النار وقتل ولده طيبة بذلك نفسه، ورضاء سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ بكسر رباعيته وبالأذيات، كل ذلك هو الرضاء حقيقة عن حق اليقين، ورضاء الصحابة رضوان الله عليهم طيبة نفوسهم بالقتل فى حب الله تعالى وحب رسوله ﷺ.

* * *

علامة المؤمنين المتحققين

أن لا يخافوا ولا يرجوا غير الله تعالى لكمال توحيدهم وصدق يقينهم، كما أن الأولاد لا يخافون ولا يرجون إلا الآباء والأمهات، وهكذا الصبيان لا يخافون إلا من المؤدب، والتلامذة لا يخافون إلا من الأساتذة، وهكذا الجند لا يخافون إلا من صاحب الجيش، والناس كلهم لا يخافون إلا من سلطانهم القادر على أنفسهم، وكما حكى عن الملائكة فقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ النحل ٥٠، فالملائكة لا يخافون إلا من ربهم وهكذا العلماء، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا﴾ فاطر ٢٨، الذين يشاهدونه ويرونه كما قال تعالى: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الحديد ١٩ وكما قال رسول الله ﷺ حين سأله الأعرابى ما الإحسان؟ فقال: (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)، فهذه الرؤية والمشاهدة بعين الحقيقة وهى أن لا ترى فى الدارين أحداً غيره، والتباعد عما نهى.

أفضل خصال المؤمن

العمل بسُنة رسول الله ﷺ واتباع ما يأمر به صلوات الله وسلامه عليه من الطاعات والنهى عما نهى عنه من المعاصى، وهو السمع منه والطاعة له، وذلك أن أشرف أعمال البشرية وألذ أفعال الإنسانية، وأعلى رتبة ينالها المصطفون، الوحى من الله تعالى لمن اصطفاهم بأحكام الدين، هذا ومثل الأنبياء مع أتباعهم وما يستمعون منهم من العلوم، وما يأتمرون به من سُنن الشرائع، كمثل السماء وأمطارها والأرض ونباتها، وذلك أن كلام الرسل عليهم الصلاة والسلام وأقاويلهم كالأمطار واستماع أتباعهم كالأرض، وما ينتج بينهما من فوائد العلوم من الآراء والأعمال كالنبات والحيوان والمعادن، وإلى هذه المعانى أشار بقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ يعنى القرآن ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ يعنى حفظتها القلوب بمقاديرها من القلة والكثرة ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ يعنى ما تحتمله ألفاظه وظاهره من معان متشابهات حفظتها قلوب المنافقين الزائغة الشاكين المتحيرين ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ﴾ مثل آخر يعنى الجواهر المعدنية لها زبدة عند السبك كزبد السيل ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ﴾ يعنى أمثال الحقائق والأباطيل ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ يعنى

الأباطيل والشبهات تذهب، فلا ينتفع بها ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الرعد ١٧، يعنى ألفاظ التنزيل تثبت فى قلوب المؤمنين المصدقين وتثمر الحكمة كما ذكر، فقال عز وجل: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ إبراهيم ٢٤.

ومن المتحقق أن الشريعة لا تتم إلا بالأوامر والنواهى، والأمر والنهى لا ينفذان إلا بالوعد والوعيد، والوعد والوعيد لا يكونان إلا بالترغيب والترهيب، والترغيب والترهيب لا ينجعان إلا فيمن يخاف ويرجو، والخوف والرجاء لا يظهران ولا يعرفان إلا عند اتباع الأمر والنهى، فمن لا يخاف شيئاً ولا يرجو أملاً فهو لا يرغب ولا يرهب ولا ينجع فيه الوعد والوعيد، ولا يجتمع فيه الأمر والنهى، ومن لم يقم بأمر رسول الله ﷺ ولا ينتهى عن نواهيه ﷺ لا يكون له نصيب من السعادة والعلم بالله تعالى وآياته وأسراره وحكمه.

ما يخاف عاقبته الإنسان وما يرجو عاقبته

نوعان اثنان أحدهما دنيوى والثانى أخروى:

١ الدنيوى: مثل الرياسة وحسن الثناء والعز والمال ومتاع الدنيا مادامت النَفْس مقرونة مع الجسد، وما يبقى من الأثر فى الذرية والأعقاب بعد الممات.

٢ الأخروى: مثل نجاة النفس من الظلومية والجهولية، والخروج من هاوية البعد والقطيعة، والفوز بالصعود إلى ملكوت السماء، والدخول فى زمر الملائكة، والسياحة فى روضات الجنان ووسعة السماوات، والتنسم من ذلك الروح والريحان المذكور فى القرآن الذى يقصر الوصف عنها إلا مختصراً، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ السجدة ١٧.

بغية المؤمن العالم العامل

الفوز ببلوغ الوصول إلى حضرة الحق، والتجمل بالكمالات التى بها يحبه الحق، فيعمل الخير ويجتنب الزور والبهتان، لأن الحق هو غاية ليس وراءها نهاية، ولكن الطريق الموصل

إليه خفى دونها أمور متشابهة مشكلة، ومعلوم أن الألفاظ محتملة للمعانى والأوهام تذهب فى طلبها كل مذهب، فينبغى لك إذا سمعت لفظة محتملة للمعانى لا تحكم عليها حكماً دون أن تبين بعقلك كل المعانى التى تحتملها تلك اللفظة، لعلك تفهم الغرض الأقصى الذى هو الصواب، وتبلغ الغاية القصوى التى هى الحق.

المؤمن مطيع لله فى الشدة والرخاء

الإنسان لا يخلو من حالتى شدة ورخاء، والمؤمن فى كلتى حالتيه لا يعرض عن طاعة الله، وذلك أنه إذا كان صحيح الجسم قوى البنية غنى المال عريض الجاه كامل الآداب قادراً على ما يشاء مُمكناً مما يريد، فهو مع هذه الحالات كلها يكون مُتكلاً على الله مستنداً مستعيناً به متبرئاً من حوله وقوته إلا بالله، كما قال سليمان عليه السلام: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ النمل ٤٠، وأما الكافر فهو فى هذه الحالات كلها يكون راجعاً إلى نفسه وحوله وقوته ومشيئته وإرادته واجتهاده وحيلته، متكلاً على أسبابه معرضاً عن ربه ناسياً ذكره، كما قال قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ القصص ٧٨، وأما حال الشدة والبلوى فالمؤمن يكون فيها صابراً على قضاء الله، راضياً بحكم الله مقبلاً عليه حامداً له، حسن الظن به راجياً لرحمته سائلاً عفوه مستسلماً لأحكامه، كما ذكر الله تعالى بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ البقرة ١٥٦.

وأما الكافر فإنه يكون سيئ الظن بالله، ضجور النفس جزعاً من الشدائد، ساخطاً على المقادير ذاماً لأسبابه، آيساً من روح الله قنوطاً من رحمة الله، كما ذكر الله ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ الحج ١١.

الزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة

من أكمل شرائط الإيمان وخصال المؤمنين كما رغب الله تعالى نبيه ﷺ فقال: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ الضحى ٤، وقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ الأعلى ١٦-١٧،

وآيات كثيرة فى القرآن فى التزهيد فى الدنيا والترغيب فى الآخرة.

واعلم يا أخى أن الإنسان مطبوع على أن لا يترك النفع الحاضر والعاجل ويزهد فيه، ويطلب الغائب الآجل ويرغب فيه، إلا بعد ما يتبين له فضل الآجل على العاجل.

واعلم بأن المؤمنين والحكماء والأنبياء إنما زهدوا فى الدنيا وتركوا عاجل شهواتها، ورغبوا فى الآخرة وطلبوا آجل نعيمها على نعيم الدنيا، وشاهدوها بعيون قلوبهم ونور عقولهم كما شاهد أبناء الدنيا أمورها بحواسهم.

واعلم يا أخى بأن الطريق إلى معرفة حقيقة الآخرة ومشاهدة أحوالها، بالاعتبار والتفكر فى أمور الدنيا والمقارنة بينها وبين أمور الآخرة بالعقول السليمة من الآراء الفاسدة، والنفوس الصافية من الأخلاق الرديئة، ونتائج المقدمات الصحيحة الضرورية. بيان ذلك أن العاقل اللبيب إذا فكر فى قول الجمهور من الناس، وتسميتهم هذه الدار التى نشؤا فيها باسم الدنيا وذمهم نعيمها، يدل على الدار الآخرة وشرفها، لأن لفظة الدنيا تدل على الآخرة، كما أن لفظة الآخرة تدل على الأولى، لأنهما من جنس المُضاف.

ومن وجه آخر إذا اعتبرت أحوال الناس فى الدنيا وجدتهم كلهم طائفتين: أخياراً وأشراراً، فأما الأخيار فهم الذين يعملون من الأعمال ما رُسم لهم من الشريعة الإلهية، ولا يطلبون على ذلك عوضاً من جر منفعة إلى أجسادهم أو دفع مضرة عنها، فعند ذلك يقال لهم أخيار على الإطلاق وأنهم من أبناء الآخرة.

وأما الذين يطلبون العوض فيما يعملون من الخير والشر من جر المنفعة إلى أنفسهم أو دفع المضرة عنها، ولا يفكرون فى المعاد ولا يرجون فى الآخرة الخير، ولا يخافون العقاب ولا يهمهم أمر النفس ولا النظر فى حالها بعد الموت، فيقال عند ذلك إنهم أشرار وإنهم من أبناء الدنيا.

ووجه آخر إذا اعتبر أحوال هؤلاء الأخيار الذين تقدم ذكرهم، وأنهم قد أفنوا أعمارهم كلها فيما وصفنا من أعمال الخير، ثم ماتوا ولم يحصل لهم عوض على ما عملوه قبل الموت،

فتعلم العقول وتقضى بالحق، لأن ذلك لا يضيع عند الله شيئاً، فيصح بهذا الاعتبار أنه بعد الممات الذى هو مفارقة النفس الجسد حالة أخرى يجازى فيها الأخيار، وهى التى تسمى الدار الآخرة، وهكذا إذا اعتبر حال الأشرار الذين سعوا فى الأرض بالفساد طول أعمارهم ثم ماتوا ولم يعاقبوا على ما فعلوا، فتعلم العقول وتقضى بأن هؤلاء لم يفوزوا، وأن حالهم بعد الممات ليس كحال أولئك الأخيار، وذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ الجاثية ٢١، هذا وإذا قد ذكرنا طرفاً من خصال المؤمنين وشرائط الإيمان وخصال الكافرين وماهية الكفر، فنريد أن نذكر طرفاً من علم المؤمنين الراسخين، وخصال العارفين المستبصرين، الذين هم ورثة النبيين وأنصار المرسلين وإخوان الصديقين المتألهين الربانيين، الذين هم فى أعلى رتبة الإنسانية أعلى عليين، ونذكر أيضاً طرفاً من صفة إخوان الشياطين الضالين المضلين الذين هم فى أدنى رتبة الإنسانية مما يلى رتبة البهيمية أسفل السافلين، ونبين كل ذلك فى " مذكرة السالكين" التى سنشرح فيها بمشيئة الله تعالى الطريقة المستقيمة واصطلاحات أهلها وآدابهم وأحوالهم، وإن سبق لى أنى تكلمت فى قسم علوم اليقين من كتاب " أصول الوصول" على بعض علوم أهل اليقين، إلا أنى سأوضح ما يتعلق بالطريق فى كتاب " التذكرة" بمشيئة الله تعالى وعنايته وحسن توفيقه. والله تعالى أسأل أن يمن علىَّ، وعلى جميع أخوتى المؤمنين، بمنن التوبة والإنابة والإخلاص والصدق والمحبة والمعرفة والسعادة فى الدنيا والآخرة إنه مجيب الدعاء.

استفت قلبك ولو أفتاك المفتون

لا يكون الإنسان إنساناً له قلب إلا بعد معرفة نفسه مبدأ ونهاية، وبقدر ما ينكشف له من الكمالات والفضائل التى تأهل للتجمل بها والتكمل بمعانيها والترقى لمراتبها، تكون معرفته للفضائل والرذائل عن كشف وعيان، وتتفاوت مراتب المعرفة، فقد تكون فضائل رتبة رذائل أخرى بالنسبة لمبلغ العلم بالنفس واستعداداتها، وبالنسبة للمقادير التى اكتسبها العقل من التجارب والنظر، لأن للعقل وسائط يستمد بها الحكم على الأشياء بيقين أو بظن وحدس تخمين تكون كالمقدمات المنتجة، وبقدر يقين تلك المقدمات تكون النتائج، فكلما

كانت المعلومات والتجريبات أكثر، كلما كان للقلب طمأنينة بالحكم وسكون، وهذا فى حيطة المعقولات.

فإذا زكت النفس واستعد الخيال للتمثيل، واجه القلب حضرة الملكوت الأعلى، بعد معرفته بكمالات المُلك الأدنى، وفطرته على الأجمل من لوازمه والأكمل من أموره، وبمواجهة القلب للملكوت الأعلى لا يحتاج إلى العقل، لأنه صار عقلاً يعقل عن الملكوت، ويمد الخيال بصور الكمالات الملكوتية، وبديع الجمالات الروحانية، فتكون تلك الصور منطبعة فى لوح الخيال أمام النفس المدركة التى قام بها الإنسان، فترى الإنسان يحاول أن يتجمل بتلك الفضائل والكمالات، ويتحلى بحلل تلك المعانى الجميلة، وتحصل المواجهة بين الصورة الملكوتية وبين صورته الإنسانية، فيرى نفسه فى حاجه إلى تكميله وتتميم حقيقته بتلك الجمالات، ولذلك فإنك ترى أهل النفوس الزكية يرون أنفسهم دائماً مسيئين لمواجهتهم للملكوت، وانتزاع الخيال لتلك الصور العلية الجميلة التى تتعشقها النفس، فتشتاق أن تتشبه بها ويكون القلب فى هذا الحال بالنسبة للأحكام الشرعية هو الحاكم حقيقة، لأن الأحكام الشرعية حدود الله، التى من تعداها أو داناها هلك أو كاد.

فإذا اقتضى الوقت حكماً من أحكام الشريعة، وعرضه على قلبه فربما لا يطمئن القلب إليه، لأنه متحقق أنه الحد، ويجب أن يجعل له حيطة، خشية من أن يدانى الحد، فيقع بين حكم المفتى وحكم قلبه، فيكون الترجيح لحكم القلب، لأنه إنما يطالب بالأكمل والأجمل والأحوط، ويكون تلقيه عن القلب، لأنه تلقى عن الحق، وعمله به عمل بالحكم الشرعى لمقامه ورتبته.

وتزكية النفس هو الجهاد الأكبر، لأن الإنسان مسكين بين جاذب ودافع، إن كان له قلب فقلبه يدفعه عن حظه وهواه العاجل إلى حظه وهواه الآجل، ونفسه الحيوانية وأعضاؤه العاملة وما فى فطرته من الاحتياج وما جُبل عليه من الأمل يجذبه إلى ما يلائمه ويلذذه ويعظمه أمام الخلق إلى المنافسة وإلى التكاثر، وهى أمور محسوسات سريعة الإنتاج، تشغل القلب والجوارح. وكثيراً ما يكون السالك على المنهج القويم مخلصاً فى العزم، صادقاً فى

القصد، مفطوراً على الخير، فيناله من عمله وحاله إقبال الناس ومواساتهم بما يلائمه وما يسد الضرورة والكماليات، فتبتهج نفسه وتأنس جوارحه ويطيب بما نال، فيتناسى المقصد الأول والعزم، ويغيب عن الحضور والمراقبة، ويعمل عمل المعتاد بدون استحضار، وربما والعياذ بالله تعالى انحط إلى أن صار العمل لقصد هذا النوال الدنئ وبلوغ هذا المتاع القليل.

كل تلك العقبات تجعل الرجل دائم المجاهدة كثير المفاكرة طويل المحاسبة لنفسه، حتى يتمكن الخيال من أن يمثل الصورة الكاملة الملكوتية مثالاً لا يحجب عنها، حتى إذا حصل السهو أو النسيان تذكرت فأبصرت تلك الصورة فحنت وجاهدت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ الأعراف ٢٠١، وفى هذه المنزلة يكون الإنسان فرحاً بالقليل من الدنيا، مطمئناً بالله تعالى، وإذا سخر الله له الدنيا قام بها هكذا وهكذا، رغبة فيما عند الله وخوفاً من أن تلابس قلبه أو تتجمل له فيألف أو يكاد فهو لا يسأل الناس لأنه تقيٌّ، ولا يرد لأنه موحد، وهو مع الله فى حاليه إن كان لا يملك قوت يوم، أو كان يملك الأرض وما فيها، فلا العدم يشغل قلبه لثقته بوعد الرزاق الكريم، ولا ادخار الكنوز ينسيه حقيقة اضطراره وفقره إلى الوليِّ المختار المريد، فهو فى احتياجه لقوت يوم غنى بربه، وفى ادخاره للكنوز شديد فى احتياجه إلى الله تعالى، وجماله الفقر فى الحالين وكماله الاضطرار فى المشهدين، حتى إذا كملت تزكية النفس قلب القلب مُقلبُهُ، والبصر مبصره من الملكوت إلى العزة فصح نزل العبودية، وكمل الخوف من مقام الربوبية ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ الشمس ٩.

جمال به الإنسان صورة مولاه ... وأفق لتشرق فيه شمس علاه
وبيت على عامر بجماله ... يشاهد أنواراً أضاءت بمجلاه

اتقوا الله ويعلمكم الله

إن الله جلت قدرته وتقدست صفاته، خلق الإنسان على أكمل صورة وأتم معنى، وجعل خَلْقَه الجميل مَحلاً للتجمل بالخُلق الجميل وهداه النجدين، وأبدع له من الآيات، ما قامت به الحجة وثبتت به المحجة وظهر به البرهان، ووَضح به البيان على قدرة القادر البديع بداهة، بأول جولة للنظر فيما فى السماوات والأرض، وفيما هو فى نَفْس الإنسان، حتى أشعر قلبه بأنه سبحانه هو الموجد البديع بدلائل حسية، قامت واضحة البرهان، أقربها إليه احتياجه لما حوله واحتياج ما حوله إليه، وتغير الكل فى اللحظة من حال إلى حال، حتى برهن الكل أنه صنعة قادر حكيم مدبر بديع ولى وهاب، ثم مَنَّ سبحانه على الإنسان ببعثة الرسل صلوات الله تعالى عليهم وسلامه يدعون الخلق إلى الحق الذى شعرت به قلوبهم، وقامت الأشياء كلها دالة على وحدانيته وكمال قدرته ومشيئته، فأقاموا الحجج الناصعة على أنهم رسل ربنا بالأدلة الواضحة، وعمل المعجزات الباهرة التى هى فى قوة (صدق عبدى فى كل ما يبلغ عنى فاتبعوه).

بينوا لنا ما يجب أن نعقد عليه القلب من عقائد التوحيد، وما يلزم أن نعلمه من كمال التنزيه، وما نطالب به من التسليم لأوامره وأحكامه، وما لابد لنا من التصديق به من أحوال المرجع إليه سبحانه، ومواهبه اللدنية التى مَنَّ بها على المصطفين من خيرة عباده. وتفضل سبحانه فكلفنا بما يسره لنا ويسرنا له، بدون فادح كلفة ولا عظيم مشقة من المعتقدات الحقة، التى تعترف بها العقول السليمة، والأخلاق الطاهرة التى تتعشقها النفوس الطيبة، والعبادات التى تشعر بوجوبها الفكرة الصائبة، شكراً لذاته العلية على منن ومواهب وإحسانات عمت الكل فرداً فرداً، بل شملت كل كائن. ثم أطلق لنا العنان فى الفكر فى بدائع الكائنات، والبحث عن أسرار الآثار، مما ينكشف بظهوره حجاب الغفلة، ويفتح قفل الشك ويزيل الوسواس، كل ذلك سعياً وراء معرفة بدائع صنعه، وحكم مكوناته، ودلائل قدرته وبراهين وحدانيته، لنزداد إيماناً على إيماننا، وهو المنهج المستقيم والصراط القويم، الموصل لحضرة الحق جل جلاله.

ثم وفق سبحانه من اجتباهم لهذا النهج، فتلقوا تعاليم الرسل بقلوب مبتهجة بما تلقت، قد فقهت الأحكام والحكم، وأبدان هينة لينة للسمع والطاعة، مسارعة فى تأدية ما أمرت به، وعمل ما كلفت بعمله، بإخلاص فى النية، وإتقان فى العمل، وصدق فى المعاملة، وإقبال بالكلية على الوهاب الذى عمهم بفضله وشملهم بكرمه، وألزمهم بما عمهم به بشكره شعوراً بالقلوب وحساً بالجوارح، وحكماً بالعقل وبياناً من الشرع. فلما وفقهم للقيام بما أمر كاشفهم بعلم أسرار الأحكام وحقيقة الحكم، فاطمأنت قلوبهم وقوى يقينهم، وانشرحت صدورهم بما شرحه لهم من العلم المكنون والسر المصون.

علمهم ما لم يكونوا يعلمون وأشهدهم ما لم يكونوا يشهدون، حتى صاروا راسخين فى العلم، فانكشف عنهم الحجاب، وانمحى البين من البين، حتى علموا حق اليقين، وغاب الوهم الحاجب والوسواس المشكك والجدل القاطع والبحث بالعقول والأفكار السخيفة، تارة بقياس الغائب على الشاهد، وتارة بتأويل كلام الله تعالى، بظلمة فكره وقصر رأيه، معجباً برأيه متبعاً هواه، مغروراً بما مَنَّ الله عليه من العافية والمال والعلم حتى يكون على غير الصراط المستقيم، ويحسب أنه يحسن العمل، ويتجاوز الأدب مع الحق ومع رسله صلى الله عليهم، وعلى أهل العلم بالله تعالى، وربما ظن لقصر عقله وظلمة بصيرته، أن رأيه هو الحق وما سواه هو الباطل، ويرمى من خالفه بالكفر أو بالضلال، ولو أنه عمل بما علمه من الدين، بأن اعتقد العقيدة التى قررها القرآن الكريم بالحُجة الواضحة، وبينها سيدنا رسول الله ﷺ، وقام بأركان الدين بإخلاص وتسليم، وترك الجدل والبحث، لأن الله سبحانه أغنى عباده بكلامه الذى هو تفصيل لكل شئ، وأغنانا سبحانه ببيان سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ، الذى جعل الله سبحانه بيانه هو عين بيانه سبحانه وتعالى.

حكمة بعثة الرسل

لما لم يكن الإنسان بحيث يستقل وحده بأمر نفسه إلا بمشاركة آخر من بنى جنسه، وبمعاوضة ومعارضة تجريان بينهما، يفرغ كل واحد منهما لصاحبه عن مهم لو تولاه بنفسه لازدحم على الواحد كثير، وكان مما يتعسر إن أمكن، وجب أن يكون بين الناس معاملة

وعدل يحفظه شرع يفرضه شارع، متميز باستحقاق الطاعة لاختصاصه بآيات تدل على أنها من عند ربه، ووجب أن يكون للمحسن والمسئ جزاء من عند القدير الخبير، فوجب معرفة المجازى والشارع، ومع المعرفة سبب حافظ للمعرفة، ففرضت عليهم العبادة المذكرة للمعبود، وكررت عليهم ليستحفظ التذكير بالتكرير، حتى استمرت الدعوى إلى العدل المقيم لحياة النوع، ثم زيد لمستعمليها بعد النفع العظيم فى الدنيا، الأجر الجزيل فى الآخرة، ثم زيد للعارفين من مستعمليها المنفعة التى خصوا بها فيما هم مولون وجوههم شطره.

فانظر إلى الحكمة ثم الرحمة والنعمة تلحظ جناباً تبهرك عجائبه، ثم أقم واستقم وتحقق أن الرسول ﷺ هو النعمة العظمى على العالم بأجمعه، وأن اتباعه على الوجه الأكمل هو السعادة الحقيقية، والفوز بمقعد صدق عند مليك مقتدر، ونيل محبة الله التى ينال من فاز بها المجد الأبدى والبقاء السرمدى، فى مواجهة قدس الجبروت الأعلى مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ آل عمران ٣١، ولما كان اتباعه ﷺ على الوجه الأكمل، يجعلك يا أخى على ما كان عليه ﷺ هو وأصحابه فتكون من الفرقة الناجية الذين هم أهل معية رسول الله ﷺ، وخاصة أولياء الله تعالى من العلماء الراسخين والمخلصين الروحانيين، أسأل الله تعالى أن يشهدنا مشاهد أهل محبته، ويناولنا من طهور المقربين إنه مجيب الدعاء، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

حكمة أحكام الشريعة

حكمة أحكام الشريعة والمراد للشارع سبحانه من كلامه خفى جداً بعيد الغور، لا ينكشف لك فى أول وهلة إلا بفضل عظيم من الله تعالى، أو إحسان سابق لك من استعداد للنظر والفكر والفطنة والفطرة على الذكاء، وتهذيب نفسك وتزكيتها، هذا فيما يتعلق بالعقائد والعبادات، فأما فى الأحكام الشرعية فإن أحكام الشريعة لا يدرك حكمها الإنسان من أول وهلة إلا بعد البحث، وعلم المُراد من النفع العام لجميع العباد، ومساواة الأفراد فى الخيرات، وإن ظهر للإنسان أن الأحكام على غير ذلك فى أول نظرة، ولكنه بعد الرياضة يعلم حق

العلم أن أحكام الشرع هى القسطاس المستقيم، وما عداها باطل وإن ظهر حسنه فى أول نظرة.

مثال لذلك: ضرب العلماء الربانيون مثلاً، فقالوا: إنه كان رجلان اصطحبا فى طريق على سفر، فلما انتهيا إلى شاطئ نهر قعدا للغذاء فأخرج كل واحد زاده، فكان مع أحدهما رغيفان ومع الآخر ثلاثة أرغفة، فكسراها فى موضع واحد ليأكلاها، إذ مر بهما مجتاز، فدعواه إلى طعامهما فأجاب وجلس وأكل معهما، فلما فرغوا قاما ورمى بين يديهما خمسة دراهم، وقال: اقسموها بينكما بالسوية، ومضى هو لسبيله، فقال صاحب الرغيفين لصاحبه: لك النصف ولى النصف الباقى، لأنه قال بالسوية، وقال صاحب الثلاثة أرغفة: بل العدل أن يكون لى ثلاثة دراهم ولك درهمان، لأنه قال بالسوية بحسب الرغيفان، فتنازعا وتخاصما وتحاكما إلى قاض من حكام الشريعة، فحكم بينهما أن لصاحب الرغيفين درهم واحد، ولصاحب الثلاثة أربعة، وكان هذا الحكم هو الحق وغاية الصواب، فتفكر يا أخى فيه، فإن فهمت معناه، وتوجه لك الصواب، فأنت فقيه فى أحكام الشريعة، وإن ذهب عليك فيه وجه الصواب وغاية الحقيقة، فاذهب إلى حاكم الشريعة ليعرفك وجه الصواب، وحقيقة المعنى.

هذا وبعض من لم يتفضل الله عليهم بنور المعرفة من بعض العقلاء الذين يطالعون فى كتب الفلاسفة والمعقولات، إذا فكروا بعقولهم فى أحكام الشريعة وقاسوها بآرائهم وتمييزهم وفهمهم يؤديهم اجتهادهم وقياساتهم إلى أن يروا ويعتقدوا فى كثير من أحكام الناموس، أن العدل والحق والصواب فى مخالفة كل ذلك، لقصور فهمهم وقلة تمييزهم وعجز معرفتهم عن كنه أسرار أحكام الشريعة.

مثال ذلك: أنهم إذا تفكروا فى حكم المواريث أن للذكر مثل حظ الأنثيين، فيرون أن الصواب كان أن يكون للأنثى حظ الذكرين، لأن النساء ضعفاء قلائل الحيلة فى اكتساب المال.

ولا يدرون ولا يبصرون أن هذا الحكم الذى حكمت به الشريعة، سيئول الأمر به إلى ما أشاروا إليه وأرادوه، وذلك أن الشريعة لما حكمت للذكر مثل حظ الأنثيين حكمت أيضاً أن

المهر فى التزويج والنفقة على الرجال للنساء، فهذا الحكم يؤول الأمر به إلى أن يحصل للأنثى فى المال مثل حظ الذكرين وأكثر، والأمثلة ظاهرة.

يثبت من ذلك أن أحكام الشريعة ليست جزئية لنفع البعض فقط، بل هى كلية لنفع العام، والمساواة الحقيقية والصلاح للكل فى العاجل والآجل، والخير فى الدنيا والآخرة جميعاً بالنظر فى العواقب، والله أسأل أن يمنحنا الفقه فى قلوبنا، ويكاشفنا بمراده سبحانه وتعالى فى أحكامه، ويوفقنا لحسن اتباع سيدنا ومولانا محمد ﷺ.

تذكرة

أيها المريد الصادق، اعلم أن نعم الله كثيرة على الخلق لا يحصى عددها، ولكن نذكر طرفاً مما يخص الإنسان، وهو نوعان: أحدهما من خارج الجسد كالمال والقرين والولد ومتاع الدنيا أجمع، والآخر من داخله وهو نوعان: أحدهما فى الجسد كالصحة وحسن الخلق وحسن الصورة وكمال البنية والقوة والجلد وما شاكلها، والآخر فى النفس وهو نوعان: أحدهما حُسن الخلق، والآخر زكاة النفس وصفاء جوهرها وهى الأصل فى جميع المعارف:

بين بحث العقول فى الآثار ... وشهود القلوب للأنوار
بين ساع فى ظلمة ووهاد ... ومهنى ببهجة الأسفار
مطمئن الفؤاد منشرح الصدر ... وبمرآى حقيقة الأسرار
واجهته الأنوار فانسلب ... الفئ بنور الشموس والأقمار
نور الله قلبه بهبات ... فرأى الوجه مشرقاً بالفخار
وتجلت له المعانى جهاراً ... فى مرائى حقيقة الآثار
لم يغب طرفة عن الحق لما ... أن تحلى بحلة الأذكار
ذاك نور يعطى بفضل ولى ... ورءوف ومنعم ستار
يرفع الحجب عن عيون مراد ... فيرى الحق من ضيا الأبصار
وتلوح الشؤون حججاً أشارت ... لمعانى الوهاب والغفار
ناطقات بالآى فى كل حال ... لمريد فى بهجة الأفكار

بين بحث العقول فى الآثار ... وشهود القلوب للأنوار
بين ساع فى ظلمة ووهاد ... ومهنى ببهجة الأسفار
مطمئن الفؤاد منشرح الصدر ... وبمرآى حقيقة الأسرار
واجهته الأنوار فانسلب ... الفئ بنور الشموس والأقمار
نوّر الله قلبه بهبات ... فرأى الوجه مشرقاً بالفخار
وتجلت له المعانى جهاراً ... فى مرائى حقيقة الآثار
لم يغب طرفة عن الحق لما ... أن تحلى بحلة الأذكار
ذاك نور يعطى بفضل ولى ... ورءوف ومنعم ستار
يرفع الحجب عن عيون مراد ... فيرى الحق من ضيا الأبصار
وتلوح الشؤون حججاً أشارت ... لمعانى الوهاب والغفار
ناطقات بالآى فى كل حال ... لمريد فى بهجة الأفكار
وتحصن بالشرع فهو أمان ... وتجمَّل بسنة المختار
واجعل العقل باحثاً عن إمام ... عرف الحق ظاهر الأنوار
فاتبعه مسلماً لتهنى ... بالتحلى بحلة الأخيار
وصلاة على الحبيب المرجى ... قبضة النور مقصد الأبرار

الباب الثالث

الطريق إلى الله تعالى

تعريف الطريق إلى الله

عمارة كل وقت من أوقات السالك فيما اقتضاه الوقت من اللازم الشرعى من عمل قلبى فقط، أو عمل بدنى فقط، أو عمل مزدوج منهما، وبذلك ينتقل على معارج القرب فى كل لمحة ونفس، لأن الزمن هو المراحل التى ينتقل منها إلى حضرة الرب سبحانه وتعالى، وإنما العمر هو المسافة التى بين العبد وربه: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ العلق ٨، فكلما مضى من عمره نَفَس انتقل مرحلة إلى ربه، وفى كل نَفَس له كمالات يتجمل بها إذا عمر الوقت بواجبه، فإن أهمل خسر الوقت وخسر الربح فيه وطولب بواجبه، لأن تلك الصحف ترسم فيها صور الأعمال محلاة بنور القبول والثناء من الله أو بظلمة المعصية والمقت من الله، ولا يعد المريد سالكاً على الطريق إذا لم يحط علماً بواجب الأوقات وبصحبة من سلك، وعرف المبدأ والمرجع، وتمكن من معرفة النفوس وعلم أمراضها ودواءها وتكميلها.

على أنى لا أحكم أن المريد معصوم عن المعاصى، ولكنى أرى أنه يقع فى صغائر الأمور التى تشتبه عليه لأنها خفية، وانتفاؤها عن المريد متعذر، كما يحصل من بعض المريدين من المسارعة فى عمل النوافل، والتساهل بالواجبات من بر أو صلة أو نجدة أو عيادة أو جهاد أو اكتساب، فقد يكون واجباً يقتضيه الوقت، فيترك ذلك ويقبل على الأوراد والصيام والسهر فى القيام، فتكون تلك المعاصى تدخل على المريد من حيث لا يعلم، وأمثال هذه كثيرة، نكتفى بما تقدم من المثل، لهذا يجب على المريد صحبة المرشد الكامل.

إذا تحقق هذا من أن العمر هو المسافة، لزم على كل مريد أن يعلم الحقوق الواجبة عليه لنفسه ولربه سبحانه وللناس بحسب مراتبهم، ويعلم مواقيت تلك الحقوق وشروطها، فقد يكون الوقت يقتضى الشكر فيصرفه فى الذكر، وقد يقتضى السعى على المعاش فيصرفه فى الصلوات، وإنى أحب أن أضع مقدمات للمريد وضوابط، إذا لاحظها يسهل عليه معرفة

مقتضى الوقت، ويعلم الأحكام الشرعية التى تجب عليه فى نفس الوقت، والله الموفق.

المقدمات والضوابط

المقدمات

المقدمة الأولى: العلم بالنفس، العلم بالله، العلم بأحكامه، العلم بأيامه.

المقدمة الثانية:

١ إخلاص النية عند العمل.

٢ تأدية العمل على الوجه الشرعى.

٣ الفرح به من حيث أنه لله وبتوفيقه.

٤ الشكر بعده لله على عنايته وإقامة العبد مقام عامل له سبحانه.

٥ عدم الاعتماد على العمل.

٦ تحققه بالعجز عن حقوق الشكر بعد العمل.

٧ جعل كل الأعمال لله تعالى ولو كانت من شهواته الحيوانية بتصريفها بحسن النية.

٨ مجاهدة نفسه حتى لا يجد سروراً فى نفسه بالعمل أمام الناس أو فى الخلوة لصحة توجهه إلى الله تعالى، فإن نشط أمام الخلق وكسل فى الخلوة جاهد نفسه ليكون حاضراً مع الله فى الحالين، غائباً عن الخلق فى المشهدين، كما يحصل للعامل إذا عمل عملاً نافعاً لذاته، فإن الأمر يستوى عنده فى الخلوة والمجتمع.

٩ تلبية قلبه فيما يدعوه إليه، إلا فيما أوقع فى ريبة فى عين الخلق أو شبهة عنده، فإنه يحفظ الخلق من الوقوع فى محرم بشأنه، أو من الوقوع فى محرم بالاقتداء به.

١٠ غض البصر عن عورات الناس وعيوبهم ومساوئهم ليستريح ويريح، إلا من أمر بمعروف أو نهى عن منكر بشروطه الشرعية.

١١ المسارعة عند النشاط على القربات بعد الفرائض.

١٢ قهر النفس عند الكسل على عمل الواجبات فى أوقاتها، ولو بالتكلف.

١٣ تسليم ما يجهل من أسرار الحكمة والقدرة للعالم الأكبر سبحانه وتعالى، حتى يفتح له باب العلم بها بدون بحث بعقل ولا تنقيب بفكر، فإنه ولد جاهلاً أولاً.

١٤ ترك الجدل مرة واحدة، فإنه باب القطيعة ومهاوى البعد، لأنه إذا ترك الظالم أو المبتدع فى ضلالته، خير له من أن يجادله ليرده إلى الحق لأن الجدل بدعة مضلة ولا يأتى الشر بالخير ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ الزخرف ٥٨، وقال ﷺ: (إذا غضب الله على قوم أوتوا الجدل).

١٥ يكون مقصده الرضا من الله تعالى وحسن الثناء منه سبحانه، الأمر الذى يصغر الخلق فى عينه فلا يحزنه سخطهم وإدبارهم، ولا يفرحه إقبالهم ورضاهم إلا من وجهة حب الخير لهم وبغض الشر لهم، ورؤية الفضل من الله عليه فى الحالين بالشكر فى الإقبال، والابتهال والتضرع فى الإدبار.

الضوابط

أيها المنتسب إلى الطريق والمتزيى بزى أهله، مسافة ما بينك وبين وصولك بمقصودك واتصالك بمحبوبك وفوزك بالفلاح هو مدة عمرك المعدودة لحظاته المحدودة مسافته، التى لا تزيد ولا تنقص نفساً ولا أقل ولا أكثر، والعمر قصير والمطلوب عظيم والأنفاس معارج، فلو أضعت نفساً فى غير عمارته بما يجعله معراجاً لقربك وكنزاً محفوظاً لك وخيراً مدخراً لآجلك، أعقبك بُعداً عن الحق ونقصاً من الأجر وجهلاً بما لابد من عمله، ولو أنفقت النفيس فى رجوعه لتعمره لاستحال ذلك.

وبديهى أن تلك الأنفاس مرتبة خصوصياتها بعضها على بعض كما يترتب البيت على أسه،

فرب ضياع وقت أدى إلى رد أعمال ما بعده من الأوقات، وإن مفاتيح كنوز ما فى الأوقات من الأسرار هى القلب والعينان واللسان والشم والذوق واللمس والبطن والفرج، فإذا عطلت تلك المفاتيح بما يشغلها بما جبلت عليه النفس من الحظوظ والأهواء، والطمع والأمل والغرور وزهرة الدنيا وحب العلو فيها، ونسيان الآخرة، وصرفت تلك المفاتيح فى فتح أبواب الشر، بجلب حطام الدنيا والعمل لها، والتجمل للخلق وحب الأثرة، فتح المريد على نفسه أبواب الشر ووقف عن السير، وبقيت المسافة بينه وبين الوصول كما كانت يوم ولادته، وطويت سجلات عمره مسودة بالمساوئ والغرور، وهو لجهله يظن أنه يحسن عملاً، حتى يتنزل به داعى الرحيل فيقهر على مفارقة الدنيا آسفاً عليها، حزيناً على ما فارقه، خائفاً مما يلقاه، وليس هذا من أهل طريق أولياء الله.

وولى الله من كان الله تعالى ورسوله ﷺ وأحكام الله وأيام الله غاية مقصوده وقصارى آماله، وتحقق أن نوال ذلك لا يكون إلا بالعلم والعمل، فأقبل بكليته على صرف الأنفاس فيما يقربه إلى الله ويبلغه رضوانه وينيله الفوز، فيكون قائماً لله تعالى بما أوجبه، ويكون طالباً لله فى كل أحواله وشئونه من أحوال نفسه وأحوال أهليه وحسن المعاملة. ويكون ذلك كله عبادة لله، يرتقى السالك بها درجات القرب، ويفوز بطهور الحب، ويتجمل بحلل القبول ومعانى الرضوان، ويكون نومه وأكله وشربه وعمله فى الدنيا قربات وطاعات مع أنه فى عمل نفسه، ولكن تعلق قلبه بربه جعل أنفاسه وحركاته عبادات.

فتنبه أيها المريد السالك، وكن أبخل الناس بنفائس الأنفاس، وأكرم الناس بما عداها فى سبيل عمارتها، لتصل إلى ربك بمضى تلك المسافة، فرحاً بلقائه لا تخاف من عقوبته، ولا تحزن على ما خلفته وراءك، فتكون قد فزت بالنعيم المقيم.

الأصل الأول فى حقيقة الطريق إلى الله تعالى

صفاء جوهر النفس

إخوانى منحكم الله الوصول إلى مقامات القرب، اعلموا أن السلوك فى طريق الله تعالى للوصول إلى جنابه العلى متوقف على أصلين عظيمين، أولهما صفاء النفس، والثانى استقامة الطريق.

صفاء جوهر النفس

النَفْس جوهر الإنسان، فإن اسم الإنسان إنما هو موضوع للنفس والبدن، والبدن هو هذا الجسد المؤلف من اللحم والدم والعظام والعروق والعصب والجلد وغيرها، وهى أجسام أرضية مظلمة متغيرة.

وأما النَفْس فإنها جوهرة سماوية روحانية نورانية إذا لم تتراكم عليها الجهالات، ولم تدنسها الأعمال السيئة، ولم تحجبها الأخلاق الفاسدة، ولم تتعوج بالعقائد الباطلة، فإنها تشاهد الأنوار الملكوتية بلطافتها كما تشاهد المحسوسات بحواسها، فإذا كانت النفس جاهلة وتدنست بالأعمال السيئة، وحجبت بالأخلاق الرديئة، أو اعوجت بالعقائد الفاسدة بقيت محجوبة عن إدراك الحقائق الروحانية بعيدة عن الوصول إلى الله تعالى، وتحرم نعيم الآخرة، قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ المطففين ١٥، وحجابها جهالتها جوهرها وجهلها بربها وجهلها بمعادها، وتلك الجهالة من سوء أعمالها وقبح أفعالها، كما قال تبارك وتعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ المطففين ١٤، وأما اعوجاجها فهو من أجل عقائدها الفاسدة وأخلاقها الرديئة، كما قال الله تعالى: ﴿لَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ الصف ٥.

إخوانى، منحكم الله القرب والحب، إن النفس ما دامت على هذه الصفات لا تبصر ذاتها، ولا تشاهد فى حقيقتها المشاهدة القدسية والمعانى العلية، كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا

تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ الزخرف ٧١، وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٌ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ السجدة ١٧.

إخوانى أشهدكم الله الملكوت ونعمكم بالنظر إلى وجهه الجميل، اعلموا أن النفوس لا تشتاق إلى الجناب الإلهى ولا ترغب فيما عنده، ولا تطلب القرب من حظائر القدس، ولا تتأله لهذا الجناب العلى إذا لم تشاهد أنوار الملكوت وأسرار اللاهوت، فتبقى كأنها عمياء كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ الحج ٤٦، وبعماها تحرص على الدنيا وتتمنى الخلود فيها، وترضى بها وتأنس ولا تميل إلى الآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾ يونس ٧، وقال تعالى: ﴿يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾ الممتحنة ١٣، ومالت عن الموعظة وتكبرت على العارفين بالله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ﴾ الصافات ١٣، فيدوم عماها وطغيانها إلى الممات ﴿كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗا﴾ لقمان ٧.

تعريف النفس

وقف العقل الكامل عن إدراك حقيقة النفس ورسمها بحد، لأنها من أمر ربنا سبحانه وتعالى، كما قال سبحانه: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ الاسراء ٨٥، ولا يزال الإنسان من لدن نشأته الأولى والنفس محل بحثه ونظره، حتى أن أكثر الحكماء المتقدمين والحكماء المسلمين، رأوا أنها ليست بجسم ولا بعرض، لأنهم أثبتوا وجودها لما لها من الأفعال الخاصة بها، والأحوال القاصرة عليها، التى تغاير بالمرة أعمال الأجسام وخواص الأعراض، وتضاد أيضاً أجزاء الأجسام وخواصها، حتى لا تشاركه فى حال من الأحوال، وتباين الأعراض وتضادها كلها غاية المباينة، من حيث أن الأجسام أجسام والأعراض أعراض، لأنه ثبت أن النفس لا تتحيز ولا تتغير، وتدرك جميع الأشياء بالسوية بدون أن يلحقها فتور ولا ملل ولا كلال.

وشرح ذلك أن أى جسم من الأجسام له صورة فإنه لا يمكن أن يقبل صورة أخرى من نوع صورته الأولى، إلا بعد أن يفارق صورته الأولى مفارقة حقيقية، فإنا لو فرضنا أن جسماً

ما على شكل مربع أو مثلث، وأردنا أن نجعله مستطيلاً أو أسطوانياً، فلا يمكننا ذلك إلا بعد مفارقته شكله الأول، وكذلك إذا نقش فى جسم ما صورة من الصور، فلا يمكن أن ننقش فيه صورة أخرى إلا بعد مفارقة الأولى، حتى لو بقى فيه بعض الصورة الأولى لما قبل الصورة الثانية على التمام، بل تختلط به الصورتان، والمُثل بينة.

والحال أننا نجد أنفسنا نقبل صور الأشياء كلها على تباينها وكثرة أنواعها من المحسوسات والمعقولات بغير نقص ولا تفاوت، ولا مفارقة للأولى ولا تعاقب ولا زوال رسم، بل تبقى الصورة الأولى تامة، وتقبل الرسم الثانى، ثم لا تزال تقبل الصور المختلفة، صورة بعد صورة دائماً أبدا، بدون أن تضعف أو تفتر فى وقت من الأوقات عن قبول ما يرد عليها ويتجدد لها من الصور، بل تزداد بالصورة الأولى قوة على ما يرد عليها من الصورة الأخرى، وهذه خاصة من خواصها تباين بها الأجسام، ولهذه الخاصة يزداد الإنسان فهماً كلما ارتاض، وتكمل بالعلوم والآداب.

ينتج من هذه المقدمات أن النفس ليست جسماً، وتقرر أنها ليست عرضاً، لأن العرض لا يحمل عرضاً، ولأن العرض فى نفسه محمول أبداً موجود فى غيره لا قوام له بذاته، وجوهر النفس قابل أبداً حامل ما هو أتم وأكمل من حمل الأجسام للأعراض.

لهذا يظهر أن النفس ليست جسماً ولا جزءاً من جسم ولا عرضاً، هذا والطول والعرض والعمق من المعانى التى صار الجسم بها جسماً، تحصل فى قوة النفس الوهمية من غير أن تصير به طويلة عريضة عميقة، وتزداد فيها تلك المعانى أبداً بلا نهاية، فلا تغيرها عن حقيقتها ولا تتغير إذا تصورت كيفيات الجسم من الألوان والطعوم والروائح، ولا يمنع بعضها قبول بعض من أضدادها كما يمنع فى الجسم، وكذلك حالها فى المعقولات، فإنها تقوى بقبول بعض المعقولات على قبول غيرها أبداً بلا نهاية، وتلك الخواص فى غاية البعد عن الأجسام، والجسم لا يعرف العلوم إلا من الحواس، فيشتاق إليها بالملامسة كالشهوات البدنية ومحبة الانتقام، فإن الجسم يشتاق إلى تلك الأشياء، ويزداد بها قوة ويستفيد منها كمالاً، ويفرح بها لأنها تتمم وجوده وتمده.

وأما النفس فإنها كلما تباعدت عن الشهوات البدنية وخلت بذاتها، ازدادت قوة وكمالاً، وتجملت بالعلوم الحقة والآراء الصحيحة، بذلك يثبت أن طباعها وجوهرها تباين طباع الجسم والبدن، وأنها أكرم جوهر، هذا مع شوقها إلى معرفة حقائق الأمور الكونية، ولهفها لفهم المعانى الإلهية وإيثارها لها، ولا يمنع من ذلك أنها أخذت كثيراً من مبادئ العلوم عن الحواس، لأن لها من نفسها علوماً أخرى، وأفعالاً لا تأخذها عن الحواس أبداً، وذلك ثابت بديهى خصوصاً فى علوم النظر، وما تكاشف به من أسرار الملكوت والفقه فى دين الله تعالى، وهى التى تحكم على الحس بالصدق أو الكذب، فكثيراً ما يشهد الحس الأمور على غير حقيقتها وهى ترده إلى الحق، كما ترى العين الشمس صغيرة، ويرى العامود الموضوع فى الماء معوجاً، ويرى الراكب فى السفينة أنه ساكن، ويرى الأشجار حوله تمشى، كل تلك العلوم من نفسها. وقد يخطئ فيما يراه من بعد أو قرب، وكل الحواس تخطئ وتردها النفس، فقد تذوق حاسة الذوق الحلو مراً عند انحراف المزاج، وكل تلك المعلومات ليست من الحس، بل هى من ذات النفس.

من هذا حكموا أن النفس ليست جسماً ولا جزء منه ولا عرضاً، والمراد بالنفس إذا أطلقت النفس الملكية التى تسمى بالناطقة، وإذا أردت أن أعرفها فإنما تعرف بما يقرب حقيقتها لا حقيقتها، فأقول: هى جوهرة سماوية روحانية نورانية من أمر ربنا سبحانه وتعالى، ومما قلته فيها:

نفسى هى الكنزُ فيها سرُّ معناه ... بغير كيف وفيها نورُ مجلاه
جهلى بها الحجبُ عن علمى بمبدعِها ... وعلمُها كشفُ حجبى فهمُ معناه
نفسى مثال تراءى لى به وضحت ... آياتُه وبه أُعطيتُ جدواه
نفسى له صورةٌ تنبى مشاهدَها ... إذا تحققَ أن المبدعَ الله
جهلى بها اللبسُ والتشكيكُ أجمعُه ... وعلمُها الكشفُ عن غيبٍ وأخفاه
جهلى بها التيهُ بل والبعدُ عن نسب ... بها يلوح جمالُ الوجهِ أجلاه
لو أنها أشرقت نَفَساً لعالمِها ... فُكت طلاسمُه ورقى لعلياه
يا نفسُ ما أنت؟ نورُ أنت أم عرضُ؟ ... أم كوكبُ مشرقُ بضياءِ؟ مبناه

وهل بك الجسم قد قامت معالمه؟ أو قُمْتِ فيه فهذا السرُّ أهواه
حيرتِ أفكارَ أهلِ العقلِ لم يصلوا إلى يقينٍ وفيكِ ضلَّ أهداه
العقلُ يعقلُ محسوساً ونسبتَه لا يدركا رتبتى والمنعمُ الله
سرى خفىٌّ عن الألبابِ يحجبها عنه نظائره فيه وأشباه
من أمر ربى ومن يطلبه يعرفه فيعرف الله ربَّ العرش مولاه
ونفخةٌ منه تجلى للمراد له فتشهدُ الوجهَ بالتنزيهِ عيناه
من كان يعرفنى بالفضلِ يعرفهُ أنا المثالُ له أفقٌ لمرآه

النفس واحدة وقواها ثلاث

قوة تسمى النفس الملكية أو الناطقة، وهى أعلى النفوس وأكملها، وقوة تسمى النفس السبعية أو الغضبية وهى أدنى من النفس الملكية، وقوة تسمى النفس البهيمية أو الشهوانية وهى أدنى النفوس.

والإنسان حقيقة لا يكون إنساناً كاملاً إلا بالنفس الملكية، لأنه بها يشارك الملائكة وبها يمتاز عن البهائم، فأكمل الناس وأشرفهم من كملت فيه تلك النفس وانصرف إليها، وأما من غلبت عليه إحدى النفسين انحط عن رتبة الإنسانية بقدر غلبتها عليه، فتدبر أيها السالك فى نفسك، أين تحب أن تكون من المنازل؟ ومن تحب أن تشارك؟ ومع من تكون؟ ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ﴾ القيامة ١٤، وشتان بين من يرضى أن يكون بهيمياً أو سبعياً، ومن لا يرضى إلا أن يكون مَلَكاً كريماً.

وبين تلك المقامات والمنازل مراتب شتى، بقدر أنواع الحيوانات ومقامات الملائكة ﴿وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ الحديد ٢٩.

وقد نرى من الناس من هم أقل من البهائم، ومنهم من تتولى خدمتهم الملائكة، ومنهم من هم شر من إبليس ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ الشمس ٩-١٠، ومن زكى نفسه

وطهرها، بلغ من المقامات إلى رتبة فيها تسبح نفسه فى عوالم الملكوت مشابهة للملائكة، وأن يكون جسمه مجملاً بالأخلاق الطاهرة والأعمال الصالحة.

ومنهم من ينحط حتى تنحصر آمالهم فى شهواتهم فحسب، كالمأكول والمشروب والملبوس والوطء، وهؤلاء هم الذين تجذبهم الشهوات لقوة نفوسهم البهيمية، فيرتكبوها ولا يرتدعوا عنها، ولكن تبقى فيهم بقية ضئيلة من النفس الملكية، فيستترون حياءً عند فعل القبائح والرذائل فى البيوت، حتى إذا اضمحلت النفس الملكية واختفت فى ظلمات طبعهم انتفى الحياء عنهم، فجاهروا بالقبائح كما تفعل البهائم، وتركوا أوامر الله وارتكبوا نواهيه بدون خوف منه سبحانه ولا حياء من خلقه، ولو أنك سألت المعظمين للذة والشهوات الذين يتسترون عند عملها، هل ما تستحسنونه من الملاذ فضيلة أم رذيلة؟ فإن كان فضيلة فلم تتسترون عند عمله؟ وإن كان رذيلة فلم عمله؟ والله سبحانه وتعالى يجملنا بالنفس الملكية إنه مجيب الدعاء.

فضائل النفس ورذائلها

معلوم أن لكل موجود عملاً خاصاً به وكمالاً يصل إليه، ومنزلة أهله الله تعالى لها بحيث لو قصر عنها انحط إلى ما دونه، وأن الله تعالى خلق الإنسان وجعل له كمالاً خاصاً به، وأعمالاً خاصة به، وهيأ له ما به يرث الملك الكبير، وأمده بما به يحظى بالنعيم المقيم فى الفردوس الأعلى مع النبيين والصديقين والشهداء، فإذا أعانه الله تعالى وصدرت عنه أعماله الخاصة به ووفقه فتكمل بكمالاته الخاصة، نال السعادتين وفاز بالخير كله، وإذا صدرت عنه الأفعال بعجلة وحظ وشهوة، وميل عن الحنيفية البيضاء والمحجة السمحاء لأجل الشهوة التى شارك فيها البهائم، والخبث الذى شارك فيه الشياطين، أو الاغترار بزهرة الفانية التى تشغله عن تزكية نفسه التى يبلغ بها منازل المُلك الرفيع والسرور الحقيقى، ويرفعه الله بها إلى قرة العين التى قال تعالى فيها: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ السجدة ١٧، ويمنحه الله بها إلى أن يشاهد وجهه الجميل فى النعيم المقيم، والملاذ التى لم ترها عين ولا سمعتها أذن ولا خطرت على قلب بشر.

فمن خدعته شهواته الخبيثة، عن الفوز بتلك المواهب الأبدية الشريفة، وفرح بتلك الخساسات والرذائل التى لا ثبات لها، فقد أعد نفسه للمقت من خالقه عز وجل، وسارع فى تعجيل العقوبة له، وإراحة العباد والبلاد منه.

ومعلوم أن الخيرات والشرور من الأفعال الإرادية إما باختيار ما أمر الله به، والعمل به والرضا عنه فيه، أو باختيار ما نهى الله عنه والتلذذ به والغفلة عن التوبة.

ولما كانت السعادات الدنيوية وتحصيل السعادات الأخروية، لا يمكن أن يقوم بها كل واحد بنفسه، لزم أن يقوم بها جماعة كثيرة من الناس، وأن يجتمعوا على تحصيل تلك السعادة المشتركة، لتكميل كل فرد بمعاونة الباقين له، حتى يكون المسلمون كجسد واحد، كل فرد منهم عضو عامل لخير الجسد كله فتكون الخيرات مشتركة، والسعادة بينهم، حتى يقوم كل واحد منهم بجزء منها، وتحصل للجميع بمعاونة الجميع، ولذلك أوجبت الشريعة على الناس أن يحب بعضهم بعضاً، وحرمت التباغض والتنافر والعداوة والاعتداء، لأن كل واحد يرى كماله عند الآخر، وكمال الإنسان بتمام أعضاء بدنه.

ولما كانت قوى النفس ثلاثة كما تقرر، وهى القوة التى بها الفكر والشوق إلى معرفة الله تعالى، وتحصيل العلوم الحقيقية المساة "بالملكية أو الناطقة". والقوة التى بها الغضب والنجدة والإقدام على العظائم، والميل إلى التسلط والترفع، وأنواع الكرامات والسعى فيما يبلغ إلى نوال ذلك وتسمى "بالغضبية أو السبعية". والقوة التى تكون بها الشهوة وطلب الغذاء والحظوظ الجسمانية التى فى المأكل والمشرب والمنكح، وتسمى "البهيمية أو الشهوانية".

ومن المعلوم أن إحدى تلك القوى إذا قويت أضرت بغيرها، أو أبطلت عمل غيرها، كما نرى فى بعض من قويت نفسه الشهوانية أنه أدنى من البهائم لفجوره ومجاهرته، وبعض من قويت نفسه الغضبية أنه أضر من الوحوش لتهوره وظلمه، ومن غلبت عليه نفسه الملكية، فارق نوع الإنسان وصار شبيهاً بالملائكة فى أخلاقه وأعماله الصادرة عنه، وخير الأمور الوسط، وهو الفضيلة التى أمر الله بها وأمر بها رسول الله ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ

ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ الفرقان ٦٧، وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ البقرة ١٤٣، وكما قال ﷺ: (ألا أخبركم بأحبكم إلىَّ وأقربكم منى مجالساً يوم القيامة؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: أحاسنكم أخلاقاً، الموطئون أكنافاً، الذين يألفون ويألفون) وكما قيل: خير الأمور الوسط.

وقد تكون تلك القوى – مع التوسط – نفساً واحدة، لأنها تنقاد للنفس الملكية، فلا تختار إلا ما يحبه الله تعالى ورسوله من العقائد والعبادات والآراء والأخلاق والمعاملات.

وشرح هذا الباب لا يعنينا فى هذا المختصر الذى قصرنا النظر فيه على الكليات التى بها يستنير قلب المرشد والمسترشد، ويكفى المطلع أن يعلم أن للنفس قوى ثلاث متباينة، يقوى بعضها ويضعف حسب المزاج أو العادة أو التزكية.

ولما كان لكل نفس كمال به يكون جمالها، وتصدر عنها الفضائل، كانت الفضائل ثلاث، لأن للنفس الملكية فضيلة وهى " العلم والحكمة " ، لأنها متى كانت حركة النفس الملكية من ذاتها ومعتدلة، واشتاقت إلى المعارف الصحيحة التى ليست بجهالات حدثت عنها فضيلتها التى هى فضيلة " العلم" اللازم لها " الحكمة" ، ومتى كانت حركة النفس الشهوانية معتدلة منقادة للنفس الملكية غير منهمكة فى اتباع هواها حدثت عنها فضيلة " العفة" ويلزمها " السخاء" ومتى كانت حركة النفس الغضبية معتدلة مقتدية بالنفس الملكية غير متهيجة، حدثت منها فضيلة " الحلم" وتلزمها فضيلة " الشجاعة" ومتى اعتدلت تلك النفوس وقويت النفس الملكية وظهرت الفضائل الثلاث، لزمها فضيلة رابعة وهى أكمل الفضائل وأعلاها، وهى فضيلة " العدالة" .

فالفضائل إذن أربع: العلم ويتبعه الحكمة، والعفة ويتبعها السخاء، والحلم ويتبعه الشجاعة، والعدالة وهى جماع الخير بها الفخر، وبتوفرها فى الشخص السعادة ولا فخر بغيرها.

ومن افتخر بآبائه وأجداده فذلك لأن الله وهبهم تلك الكمالات، ومَنَّ عليهم بهذه المحاسن.

ولا تكون تلك الفضائل فضائل حقيقية إلا إذا ظهرت لوازمها فى غير الشخص المتجمل

بها، فإن العلم لا يكون فضيلة للشخص إلا إذا نفع غيره، والشجاعة لا تكون كذلك إلا إذا نفعت الغير بالذود عن الدين وعن الضعفاء وعن الأعراض وإقامة الحدود، والسخاء لا يكون فضيلة إلا إذا بذل المال فى وجوهه الشرعية، وأعان به العلماء العاملين الأتقياء الصالحين لوجه الله العظيم، وكل تلك الفضائل لا تسمى فضائل حقيقية إلا إذا كان صاحبها من العارفين بالله تعالى، العالمين بتصريف الأحوال والنيات.

رذائل النفس

تقدم أن الفضائل أربع، لأن كل فضيلة وسط بين رذيلتين كما قررنا، إلا أن أصول الرذائل أربع، وهى أضداد الفضائل: الجهل والشره والجبن والجور، وتحت هذه الأجناس أنواع من الرذائل لا تحصى، وهى أمراض نفسانية تحدث منها علل كثيرة، كالخوف والحزن والغضب لغير الله تعالى، وأنواع العشق الشهوانى وضروب من سوء الخلق، من أحب معالجتها فليراجع ما كتبناه فى الأخلاق فى غير موضع من كتاب " شراب الأرواح " وفيما كتبناه من الآداب فى " أصول الوصول " وما كتبناه من الحكم فى رسالة " أصول الطريق "

هى النفس للدانى تحنُّ وترغبُ   وللعاجل الفانى تميلُ وتطلبُ
هى النفس تهوى حظَّها ولو أنها   أضاء لها التحقيقُ من ذاك تهرب
أيا نفسُ لو تدرين عاقبة الذى   ترومينَه جهلاً لصحَّ التجنب
فزهرةُ دنياك الغرورةِ بهجةٌ   ولكنها سُمٌّ يُذابُ ويُشرب
تغرُّ رجالاً جاهلين بقدرهم   وتخدعهم بجمالها ثم تسلب
أيا نفسُ إن تصفى وتزكى وتطهرى   تلوح لك الأنوارُ يصفو التقرب
وتشرق شمسُ الحقّ من كل وجهةٍ   عليك وهذا الوهمُ بالحقِّ يغرب
أيا نفس يا كنزَ الجمالاتِ كلِّها   ويا مطلع الأسرارِ ربى أقرب
فلو نَفساً طُهِّرْتِ من رينِ مبعدٍ   لك الراحُ فى روضِ المعيِة يُوهب
دعى عنك زهرةَ عاجل وتحققى   وللحق أوبى تصفُو ثَمَّ المشارب
على سنة المختارِ طه إمامِنا   ألا فانهجى فالمستقيمُ محبب

تعريف الفضائل

١ **الحكمة** هى فضيلة النفس الملكية، وقد تقدم شرحها مفصلة فى أول الكتاب، ولكنى أقول هنا باختصار: الحكمة أن تعلم الأمور الإلهية والإنسانية حتى ينتج من العلم بهما أن تعرف ما يجب أن يعمل شرعاً وعقلاً، وما يجب أن يترك شرعاً وعقلاً.

٢ **العفة** هى فضيلة الحس الشهوانى، وهى حفظ الأعضاء من المحظور شرعاً مع البهجة بذلك، حباً فى ذات الله وتعظيماً لأحكامه، حتى لا يخالف أوامر الله تعالى فى صغيرة ولا كبيرة بمجاهدة تامة، حتى تكون فطرة للنَّفْس ويصير ذلك عبداً لذات الله، حراً لا يستعبده شئ من شهواته.

٣ **الشجاعة** هى فضيلة النفس الغضبية إذا اقتدت بالنفس الملكية باستعمال ما يوجبه الشرع من الأعمال الهامة، كالصبر على العظائم، والإقدام على القيام بالعظائم، والجلد عند الهول، كل ذلك فى ذات الله تعالى وفى نوال فضله ورضوانه، فلا يخاف من الأمور المزعجة إذا كان فعلها لله تعالى، والصبر عليها محمود.

٤ **العدالة** هى فضيلة النفس تحدث لها إذا تجملت بتلك الفضائل الثلاثة، وأحبت الجناب المقدس ورغبت فى فضله ورضوانه، فإنها بذلك توسم بسمة يختار بها الإنسان دائماً الإنصاف من نفسه على نفسه أولاً، ثم الإنصاف والانتصاف من غيره وله، كل ذلك حباً فى الحق، وتخلقاً بأخلاقه العلية سبحانه، وتحت كل فضيلة من تلك الفضائل أنواع من الفضائل، تُعلم لمن صفت نفسه بالبداهة.

دواء النفس من أمراضها

أكثر علماء الأخلاق الكلام فى أمراض النفوس وعلاجاتها، كما أكثر الأطباء الكلام فى أمراض الأجسام وأسبابها وعلاماتها، والحقيقة أن النفس تكون أمراضها إما لازمة لها مقهورة عليها، ولا سبيل إلى علاجها كما يحصل لأصحاب الأمزجة المختلفة، والذين اختلف تركيب أبدانهم، فنشأوا غير مؤهلين للفضائل ولا قابلين لها ممن فقدوا قوة العقل

والفهم، وابتلوا بفساد المزاج واختلاف الأعضاء، وكل واحد من هؤلاء إنسان فى الصورة، ولكنه يشبه نوعاً من أنواع الحيوانات عملاً أو خلقاً إن نافعاً وإن ضاراً، وأما من اعتدلت أمزجتهم، وتناسبت أعضاؤهم، فهم المؤهلون للعلوم والفضائل، وأكمل دواء لهم العناية بهم وهم صبيان، بتمرينهم على الأعمال الفاضلة والأقوال الفاضلة، وبث روح الدين فى قلوبهم، حتى ينشأوا مؤمنين بالله ورسله وكتبه، مصدقين بالثواب والعقاب، محافظين على ما ينالون به حسن الجزاء فى المستقبل والخير والكرامة، ويتباعدون به عن العقوبة والشر والغرامة.

وكل ذلك لا يمكن أن يتحصل عليه إلا بمدارسة التعاليم القرآنية والوصايا النبوية، وتلقينها بالعمل أولاً من الآباء والإخوان، وبالعلم من العلماء والأساتذة، وبالتذكير عند النسيان أو الغفلة بعبارات مؤثرة مقبولة على قدر عقل الطفل، فإذا كبر ووقع فى رذيلة من الرذائل فالدواء الحقيقى إقامة الحدود الشرعية التى تكبح جماح المفسد وتكون عبرة لغيره، والشفاء الحقيقى كتاب الله وسُنة رسوله وهدى الأئمة الراشدين المرشدين، والعمل الجميل لا يخفى على إنسان، والله أسأل أن يمنحنا العناية والتوفيق لما به نيل رضاه وفضله آمين.

لذة النفوس الطاهـرة

تكون باتباع أولياء الله تعالى، واعتقاد عقيدة الخواص من عباده الصالحين، ومذهب الربانيين الذين أسلموا لربهم ولم يشركوا معه غيره لا سراً ولا علناً، وهم الذين صفت قلوبهم عن درن الشهوات الجسمانية، وطهرت أخلاقهم من العادات الرديئة، فاضمحلت عن ضمائرهم الآراء الفاسدة، وصانوا جوارحهم عن الأعمال السيئة، وألسنتهم عن الفحشاء والمنكر، وأخلصوا سرائرهم مع الله ولم يعترضوا عليه فى شئ من تدبير خلقه سراً وعلانية، فأصلح الله قلوبهم وزكى نفسهم وطهر أخلاقهم، فهم لا يضمرون لأحد من خلق الله تعالى سوءاً، ولا يرون لهم على أحد فضلاً، صالحوا الخلق سراً وجهراً لما وصفهم الله بقوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ الفرقان ٦٣، فهم يمشون على الأرض بأجسادهم، ونفوسهم متعلقة بالمحل الأعلى، ذلك أنهم لما عرفوه تركوا كل شئ سواه، واشتغلوا به وبذكره ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ البقرة ١٩٥، ﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن

سَبِيلٍ﴾ التوبة ٩١، وسئل النبى ﷺ ما الإحسان؟ فقال: (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) كيف لا يراه أولياء الله؟! ولا يشاهده أصفياؤه؟! وهم معتقدون متحققون بقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ المجادلة ٧، وبقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ ق ١٦، وقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ الطور ٤٨، وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ طه ٤٦، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ الحديد ٤.

هذا وليس من لذة النفوس ولا سرور الأرواح ولا فرح القلوب ألذ وأروَح من روح الأنوار، وبرد اليقين فى قلوب أولياء الله تعالى، بما وعدهم يوم يلقونه من نعيم الجنان، وما يرضونه من نيل الثواب وجزيل العطاء فى الآخرة، وما يجدون فى نفوسهم من شدة الشوق إلى رؤيته لشدة محبتهم إياه وكثرة ذكرهم إحسانه، كما قيل: جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ البقرة ١٦٥، وقد وبخ الله من يحب غيره، وذمهم بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ البقرة ١٦٥.

ثم اعلم أنه هذه اللذة التى وصفناها أن قلوب أولياء الله تسارع نحوها فى دار رضوانه الأكبر ومقر رحمته ونعيمه المقيم، انكشفت لقلوبهم فى تلك الدار الدنيا بعين اليقين، كما تكشفت لهم الدنيا عن حقيقة زوالها ودناءتها، فاشتد شوقهم إلى ما أعده الله لهم وأخبرهم به سبحانه رغبة فى نوال رضاه الأكبر، والفوز بسعادة التنعم بجمال وجهه العظيم.

تولوا ربهم بالقيام بأوامره، والإقبال بالإخلاص على ذاته، فتولاهم الله تعالى بحقيقة الولاية حتى صار سبحانه ولياً لهم وهم أولياء له، فلم تشغلهم الدنيا عن الآخرة، لأن الله سبحانه رغبهم فيها، ولا الآخرة عن الله تعالى، لأن الله وليهم، فهم المنظورون بأعين الله تعالى، المشاهدون لجمال وجهه سبحانه ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ الأنبياء ١٠٣، أعانهم الله فصفت نفوسهم، وواجههم بوجهه الجميل فأشرقت عليهم أنوار القرب وعلامات الحب، فهم صفوة الله من عباده ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ

ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ المطففين ٢٦، أسأل الله تعالى أن يجعلنى وإخوانى وأهلى ممن صافاهم واصطفاهم إنه مجيب الدعاء.

بهجة الروحِ بالجمالِ العلى لا بملك يفنى وحظ دنى
وابتهاجُ الحيوانِ أكلٌ وشربٌ ونكاحٌ وذاك قصدُ القصى
وابتهاجُ الشيطانِ حسدٌ وكبرٌ بفسادٍ وفرقةٍ وبغَى
وابتهاجُ النفوسِ بعد زكاها رغبة الفوزِ بالمقامِ الهنى
فى رياض الجناتِ فى رغد العيش بمرأى هذا الجمالِ الجلى
بين تلك النفوس بونٌ بعيدٌ فى خفاءٍ عن مدركِ الألمعى
هى نفس إن طهرت وتزكت تتهنى بحظوةٍ بالولى
وهى إبليسُ إن أبتْ وتعالت وتعامت عن سِرها الآدمى
وهى حيوان بل أضل سبيلاً إن تَسَلتْ عن حسنِها بالدنى

التنافس

النفس الملكية تواقة إلى عالمها العلوى، تشتاق للاتصال به علماً وعملاً وحالاً، ولكن الفطر البشرية تحول بينها وبين ما جبلت عليه من الاستشراف إلى علومها ومعارفها ومشاهدها، فإذا أكرم الله الإنسان بعالم عامل بجميع الأعمال وعلىٍّ الأحوال، وكانت قواه البشرية متوسطة لا تحجب النفس الملكية عن شهود علومه وأعماله وأحواله لاشتغالها بدواعى الحظوظ والأهواء البشرية، فإن النفس بميل الإنسان إلى هذا العالم تستيقظ من نومها بحظوط الجسم، واشتغالها بأهوائه، فتشرق عليه شمس أنوار الملكوت وتنكشف له حقائق الأسرار وما عليه العالم العلوى من المشاهدات، والقيام بالطاعات والقربات فتحصل العزيمة والرغبة والشوق والوله والمسارعة إلى المزيد من العمل، وتحصيل المعارف الحقة، والعقائد الحقة، والتخلى عما كان عليه من قبيح العمل، ورديء الاعتقاد، وسيء الخلق، وشر الحال، فتحصل المنافسة فى طلب الخير، والتجمل بالمعانى القدسية، حتى يتشبه بالملائكة الروحانيين، وتدوم منافسته حتى تجلى له حقائق صادقة فى نفسه وفى الآفاق، فتبدل

صفاته وأطواره ومعارفه وعقائده وأعماله بالمعانى الروحانية، حتى يكون روحانياً حقاً ربانياً صدقاً.

وبذلك يتخلق بأخلاق ربه العلىِّ ويتصف بالقرآن، ويكون فى معية رسول الله ﷺ، وهو البدل الكامل والإنسان الكامل، الذى انجذب بكليته إلى الجناب العلى، وواجهته الجمالات الربانية، وفاز بالمنازلات الإلهية، ويكون قلبه مواجهاً الجبروت الأعلى بعد مواجهته للملكوت والعزة، وتكون همه وعزائمه و إقباله ومعارفه وفقهه فى الله ومن الله، وله فى كل نفس فيوضات ومواهب ترد عليه من حضرة المنعم الوهاب سبحانه وتعالى، وقد تبلغ المنافسة مبلغاً تجعل المنافس يبذل النفس والنفيس فى نوال حظوة من حظوات القدس.

نسأل الله تعالى أن يمنحنا الإخلاص لذاته، والصدق فى معاملته، والحفاظ على السنة والعمل بها، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وورثته والتابعين آمين.

السرائر

المريد الصادق يجاهد نفسه فى بدايته أن تألف الحسن من العمل والقول، ويجتهد فى تحملها العمل الفادح لتقف عند الحد الوسط فى خير الأعمال، خوفاً من أن تتعاصى عليه عند عمل الواجب أو تتهاون به، حتى إذا ارتاضت وألفت جمال الأعمال والأقوال، وأنس منها بالسهولة عند تأدية ما لابد منه، حرمها من بعض لوازمها ومعتاداتها، مما لا يضر بها عقلاً ولا جسماً، حتى تعتاد الخشن من الملبس، والنذر القليل من المأكل، وترضى بالمنزلة التى كانت تستنكف منها وتستقبحها، وتألف الابتذال والتقلل من الدنيا وزينتها، والتجافى عن زهرتها وغرورها، آلفاً الفضائل الشرعية والكمالات الدينية، آنساً بالذكر والفكر والشكر والابتهال، حتى يملك نفسه ملكاً يجعلها منقادة له سلسة الانقياد، فيما ينفعها فى آجلها مما هو خير وجميل شرعاً.

لديها يعطف عليها ويجدد أنسه بها بقدر معلوم، ما دامت فى طوعه متلذذة بالكمالات النفسانية، ويعينها على ما تحن إليه من الشوق إلى عوالم الأرواح، ومشاهدات الأنوار

والتشبه بالصديقين، والسعى إلى منازل القرب من حظائر القدس الأعلى، والمسارعة إلى جنات المشاهدات التى عرضها السماوات والأرض، وكشف حجب الجهالة والحظ والهوى عن نفسه الملكية، التى بكمالها يدخل تلك الجنة، فلا يرى شيئاً فى السماوات والأرض إلا ويشهد فيه من جمال الجميل وحكمة الحكيم، وغريب تصريف قدرة القادر، ما يجعله فى روضات الجنات متنعماً بأبدع النعم.

فإذا بلغ تلك الحظوة أشرقت على سريرته أنوار معانى الصفات، ومجلى كمالات الذات فوُجه بالوجه، وصار روحانياً ملكوتياً محفوظاً من لمة الشيطان وسلطان العدو، وحظ النفس وهو الطمع. وصار هواه أن يكشف له الحجاب عن جمال الجناب، وهواه شغله بذكر مولاه عمن سواه. ولديها يكون الإنسان الكامل، بل العالم الكبير الذى هو قلب العالم، مشكاة الأنوار وسر تنزلات الفتاح العليم الهادى الرحيم التواب الغفور، وتكون حركاته وسكناته ومشيئاته وحظوظه وأهواؤه فى رضوان الله تعالى، ورضاء رسول الله ﷺ لأنه ولىٌّ الله تعالى، لا خوف عليه ولا يحزن، تتوالى عليه البشائر فى كل لمحة، وتفاض عليه الأسرار والمنن والمنح فى كل نَفَس، أعانهم الله تعالى وأحسن إليهم، فأحسنوا إلى أنفسهم فعاملهم بالحسنى، وزادهم من فضله والله ذو الفضل العظيم.

قد أفلح من تزكى

١ تزكية النفس

الفلاح الفوز بأقصى الكمال، ونيل نهاية السعادة، وبلوغ غاية الأمل، وتلك المنن والمنح والعطايا كلها من الله الواسع العليم، فلا يمكن للسان أن يعبر عنها لأن ما يعبر عنه اللسان لابد وأن يكون مشهوداً للحس والعيان، أو للقلب بالكشف أو بالبيان.

وتلك العطايا بشرنا بها ربنا جلت قدرته متفضلاً بها على من زكى نفسه وطهرها، ولم يبين لنا حقيقتها، لأنها مواهب تناسب وسعة فضله وجميل كرمه وعلىَّ قدره وعظيم مننه من مشاهد ملكوته الأعلى، والعروج إلى عوالم الروحانيات وآفاق المقربين، وفيض آلائه من علم

اليقين وعين اليقين، والتشبه بعوالم القدس الأعلى، والتجمل بالأخلاق الربانية، والتعطف عليه بالخلافة عن جنابه العليّ حتى يكون مجملاً بمعانى الصفات، متحلياً بتجلى حضرات الأسماء، مواجهاً بالوجه العظيم والمنازلة الرحموتية، كل ذلك لا يمكن أن يصفه واصف، ولا يتمثله خيال بعبارة، إلا بالفيض الإلهى الذى تعجز العقول عن الحيطة به، إلا بمعونة من الله تعالى للممنوح، فكيف يتمكن أن يصرح بها لغير الممنوح؟! فسبحان المنان الكريم المعطى الوهاب. هذا ما يفيده الفلاح المرتب على تزكية النفس.

٢ تزكية الجسم

التزكية الطهارة والتخلية عن كل عائق عن بلوغ السعادة ونوال الفوز الأكبر، والقرب من حضرة الحق، وهذا العائق من عقيدة أو حال أو عمل أو أمل، وأساس تلك المراتب وباب هذه المقامات العقيدة الحقة، بقدر ما يقبل العقل الكامل من العلم بالحق سبحانه، علماً يقينياً مؤيداً بنور اليقين وحقيقة التمكين، ولا تكون هذه العقيدة بالعقل ولا بالنظر فى الكائنات، ولا بكشف أسرار مراتب الوجود، لأن ذلك يؤدى إلى إثبات صانع إبداع هذا الوجود، ولكنه لا يؤدى إلى معرفة كمالاته وجمالاته وجلالاته، ولا إلى ما يحبه من القول والعلم والحال، ولا إلى ما أوجبه وكلف به عباده من القربات والأوامر والنواهى.

فيجب على المريد المخلص أن يتلقى تلك العقيدة من كتاب الله تعالى، وكتاب رسوله ﷺ عن عالم متمكن عارف بالله تعالى، ثم يزيد إيمانه بالفكر فيما أمر الله بالفكر فيه مما ورد فى آيات القرآن الكريم، بعد معرفة أسرار الكائنات وفهم آياته الدالة على عجيب القدرة وسر تصريفها، وغرائب الحكمة وجلىّ أنوارها، حتى يكون آنساً بمشاهدة الحق ظاهراً فى آياته باطناً فى عظموت كمالاته.

فإذا ذاق حلاوة الإيمان بتلقى العقيدة من العالم العارف الورع الزاهد الناهج على المنهج القويم والصراط المستقيم، وأنس بعلم أسرار مراتب الوجود ومشاهدة أنوار واجب الوجود ومبدع الكائنات من العدم، وكوشف بما انطوى فيها من أسرار نظامها وإحكام ترتيبها وما فيها من الخصوصيات وما أودع فيها من المنافع والخير، ونظر تسخير الكل للإنسان من

الأفلاك العلويات وحركاتها والسماوات وما فيها والجبال وكنوزها، وفائدتها التى هى حفظ الأرض من الميد واختلال التوازن، والأنهار وسر سيرها ونفعها للعالم، كل ذلك مشاهد لأهل المراقبة ورياض نزهة أهل المجاهدة، المتشوقون لخفى الأسرار المشتاقون إلى شهود الأنوار.

أقسام التزكية

التزكية قسمان تزكية النفوس وتزكية الجسم

أولاً تزكية النفوس

قال الله تعالى: ﴿جَنَّـٰتُ عَدۡنٍ تَجۡرِى مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ طه ٧٦، النفوس على التحقيق عند العلماء خمسة أنفس: نفس قدسية ونفس ملكية ونفس حيوانية ونفس نباتية ونفس جمادية.

١ النفس القدسية

نفخة الحق من روحه فى هيكل باركه سبحانه وبارك فيه وبارك له، وهو جسم الإنسان الكامل الذى انطوى فيه العالم الأكبر، وهو صورة الحق المجملة بمعانى أخلاقه الربانية، وهو الإمام الأعظم للأرواح والأشباح، خليفة ربه ووارث الولاية الكبرى الأحمدية، المتنعم بالمعية المحمدية الموصوف فى آخر الفتح، ولأجله العوالم كلها، ومنه إمدادها وله سخرت، قصر همه على الله سبحانه، ووقعت به المعرفة على حق اليقين، وهو العبد المخلص للذات الأحدية، الصادق فى معاملة رب البرية، المتلقى القرآن عن قلبه عن ربه، وهذه النفس جلت عن العبارة والإشارة والحد والرسم ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾ الحجر ٢٩، ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٌ مِّنۡهُ﴾ النساء ١٧١، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحًا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾ الشورى ٥٢، والخلق عجز العقل عن إدراك حقائقه وحكمه وأسراره، فكيف الأمر؟ والروح من أمر الله سبحانه، وهى الطاهرة المطهرة الزكية المزكية القدسية، الشمس المضيئة عوالم المُلك والملكوت والعزة والجبروت.

٢ النفس الملكية

هى النور المضئ لأُفق الحواس العاملة الذى به الإدراك والفقه والحركة فى عوالم الملكوت وكشف أسرار التجليات، وفهم غوامض العلوم، والتجمل بجميل الأخلاق وكمال الصفات، ومتى صار لها السلطان على البدن، كان الإنسان مَلَكاً وأكمل، لأن الملائكة تتولى منفعته ودفع المضرة عنه وتسخر له فى مقعد صدق، وتلك النفس الملكية هى المديرة لجميع النفوس، وإنما تكون قائمة بأمور الجسم إذا قهرت بقية النفوس، وحبستها عن نزعاتها ورعوناتها، فإن تسلطت عليها النفوس الأخرى، كان لها تدبير شئون تلك النفوس وإعانتها على غاياتها، وبذلك يكون الإنسان حيواناً وأقل أو شيطاناً وأضر، نعوذ بالله تعالى من تسجيل سوء القضاء على الإنسان والحكم عليه بسابقة السوء.

وتزكية النفس الملكية يكون بمعونة من الله تعالى بإيجاد الأسباب المعينة على ذلك من الدين وأخوة وإخوان، واعتدال مزاج وتناسب جسم، وحفظ من فساد بمرض أو غرض، وإعانة من الله تعالى بصحبة مرشد عارف بأمراض النفوس ورعوناتها، حتى يكبح تلك النفوس ويخضعها للملكية، فتسارع فى رغباتها من الفكر والذكر والقربات والثقة بالله تعالى، وحسن معاملة الخلق، والانتهاج على منهج السيد ﷺ، وبذلك تتجرد النفس الملكية للأعمال الخاصة بها من العروج إلى فسيح الملكوت، والشوق إلى حضرة القدس، والتأله للحق بالحق، فيكون البدن منجذباً معها خاضعاً لها مطيعاً لأوامرها، حتى يرد موارد المقربين، ويفوز بالقرب من رب العالمين، والتشبه بالأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، ويتأهل بالتخلق بأخلاق ربه، وعندها يتفضل ذو الفضل العظيم، فينفخ فيه من روحه، الروح التى بها العقيدة الحقة والأخلاق الفاضلة والعبادات والمعاملات.

٣ النفس الحيوانية وهى نوعان:

أ نفس غضبية

وبها دفع المضار عن الإنسان وجلب المنافع، فهى التى بها الشجاعة والإقدام والصبر

وعلو النفس، والحلم وتحمل الشدائد فى اكتساب الخيرات والمبادرة إلى عمل القربات إذا انقادت إلى النفس الملكية، وبها الهلع والجزع والطيش والتهور والتعدى والكبر والظلم والجور إذا أهملت عن التهذيب والتزكية.

ب نفس شهوانية

وبها تحصل العفة والحياء والزهد، والورع والأمانة والخشية، والرهبة والرغبة والرجاء والطمع فى الفضائل، إذا تهذبت وانقادت للنفس الملكية، ويحصل بها الفجور والفسوق والفحشاء والجبن، والمذلة والتملق والخداع، والشره والكيد والمكر وسوء الظن، والتطرف فى الشهوات إذا أهملت، فالنفس السبعية والشهوانية يتحدان على الشر، فتكون منهما قوة شيطانية تجذب الإنسان إلى المساخط والمقت، وينحط حتى يكون أضل من البهائم سبيلاً، وأضر من الشيطان عملاً، ويتحدان على الفضائل حتى يكونا قوة واحدة لمعاونة النفس الملكية، فيتشبهان بها فى إطاعتهما أوامر الله سبحانه وتعالى والعمل بما كلف، فلا يعصيان الله ما أمرهما، ويفعلان ما يؤمران به، حتى تتحد تلك النفوس كلها فتصير نفساً واحدة، كما قيل لرجل: صف لنا بنى فلان، فقال: هم الف وفيهم حكيم، فهم يصدرون عن رأيه فكأنهم الف حكيم.

وهكذا تترقى النفس الغضبية والشهوانية إلى أن تكمل كمالاً حقيقياً، وتتحدا بالنفس الناطقة، فينالان الفوز بالفردوس الأعلى فى النعيم المقيم، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

ثانياً تزكية الأجسام

أما تدبير النفس النباتية والجمادية وتدبير الأجسام، فمبين فى علوم الزراعة، وعلوم التركيب والتحليل، وعلوم الطب الإنسانى والبيطرى، وقد اختص بكل علم من تلك العلوم رجال لابد منهم لسعادة المجتمع الإنسانى، ولا حاجة لنا بالخوض فى هذه العلوم، وقد بين الله لنا علوم الطب فى أقصر آية، قال تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ الأعراف ٣١، وبين لنا

رسول الله ﷺ علوم الطب فى حديث واحد وهو قوله ﷺ: (المعدة بيت الداء والحمية بيت الدواء)، فمن فهم هذا الحديث عاش زكى الجسم، محفوظاً من الأمراض، وقوله ﷺ: للطبيب الذى أرسله المقوقس عندما رده: (إنا لا نأكل إلا إذا جعنا وإذا أكلنا لا نشبع). وهذا هو كمال الضوابط الصحية إذا اتصل بذلك النظافة الإسلامية والتهجد ليلاً والتبكير بصلاة الصبح، حصل للمسلم الغنى عن الطبيب والدواء، خصوصاً إذا تباعد عما حرمه الشرع، وأدى الصيام كما أمر، وقلل أنواع المأكولات كما أمر الشرع الشريف، وعمل بيده للكسب كما أوجب الشرع وترك الترف، فإنه يعيش فى عافية من الآلام، والله سبحانه وتعالى أعلم بما به حفظ صحتنا ونوال سعادتنا، فأمرنا ونهانا وبين لنا رسول الله ﷺ والله أعلم.

المراقى للتلاقى ... علمُ أنفسكم رفاقى
والمعارجُ للتدانى ... أن تسيرَ على وفاقى
والمدارجُ للتنائى ... أن تميلَ إلى الشقاقى
والتحلى بالمعانى ... محوٌ أنت بنورِ باقى
وارتشافُك من طهورى ... أن تضئ بلا محاقى
شمسُ أفقٍ فى سمائى ... مشرقاً أفق الأماقى
مت مختاراً فلاحت ... فيك شمس نور باقى
عبدُ ذاتٍ قد تحلى ... بالمعانى والرقاقى
لوحٌ محفوظٌ وبيتٌ ... عامرٌ بالوصفِ راقى
حيثما وليتَ ترأى ... بالبصيرةِ وجهَ واقى
تلك رتبُ السير ذُقْها ... بعدها رشفُ الدهاقى
بعدها قرب ووصلٌ ... واتحادٌ عن تلاقى
بدلٌ أمُ كتابٌ ... وصراطٌ ومراقى
وهدى نورٍ مبينٍ ... وسراجٌ للرفاقى
نعمةُ الله تعالى ... وطهورٌ بل وساقى
صلواتُ الله ربى ... لحبيبى خيرِ ساقى

السعادة الحقيقية

ومن أسعد السعادة أن يتفق لك يا أخى معلم رشيد، عالم عارف بحقائق الأشياء والأمور، مؤمن بيوم الحساب، عالم بأحكام الدين بصير بأمور الآخرة، خبير بأحوال المعاد مرشد لك إليها، ومن أنحس المناحس أن يكون لك ضد ذلك.

واعلم بأن المعلم والأستاذ حياة لنفسك، وسبب لنشوتها وحياتها، كما أن والدك أب لجسدك، وكان سبباً لوجوده، وذلك أن والدك أعطاك صورة روحانية، والمعلم يغذى نفسك بالعلوم، ويربيها بالمعارف، ويهديها طريق النعيم والسرور واللذة الأبدية والراحة السرمدية، كما أن أباك كان سبباً لكون جسدك فى دار الدنيا ومربيك ومرشدك إلى طلب المعاش فيها، التى هى دار الفناء والتغيير والسيلان ساعة بساعة.

فسل يا أخى ربك أن يوفق لك معلماً رشيداً هادياً سديداً، واشكر الله على نعمائه.

الأصل الثانى فى حقيقة الطريق إلى الله

الطريقة المستقيمة

إخوانى – ودنى الله وإياكم بالصفا القدسى – اعلموا أن كل قاصد نحو مطلوب من أمور الدنيا، فإنه يتحرى فى مقصده نحو مطلوبه أقرب الطرقات وأسهلها مسلكاً، لأنه قد علم أنه إن لم يكن له طريق قريب فإنه يبطئ فى وصوله إلى مطلوبه، وأيضاً فإنه إن لم يكن الطريق سهل المسلك، فربما يعوق من البلوغ إليه، أو يتعب فى سلوكه.

وإن أقرب الطرقات ما كان على خط مستقيم، وأسهلها مسلكاً هو الذى لا عوائق فيه، فهكذا ينبغى أيضاً للقاصدين إلى الله تعالى بعد تصفية نفوسهم، والراغبين فى نعيم الآخرة فى دار السلام، والذين يريدون الصعود إلى ملكوت السماء والدخول فى جملة الملائكة، بأن يتحروا فى مقصدهم أقرب الطرقات إليه، كما قال الله تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدًا﴾ الجن ١٤، وقال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ الأنعام ١٥٣، وقال تعالى: ﴿قَـٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡ﴾ الزخرف ٢٤.

ونحن نريد أن نبين ما الطريق المستقيم الذى وصانا به، وأمرنا باتباعه على ألسنة أنبيائه صلوات الله عليهم وسلامه، وننص أيضاً كيف ينبغى أن نسلكه، حتى نصل إلى ما وعدنا ربنا، كما قال الله تعالى: ﴿أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقًّاۖ قَالُواْ نَعَمۡ﴾ الأعراف ٤٤، ولكن لا يمكننا بيان ذلك بالحقيقة إلا بكلام موزون وقياس صحيح، ودلائل واضحة من بيان الله تعالى، وسُنة أنبيائه صلوات الله عليهم، بالوصف البليغ لسائر آيات الله تعالى فى الآفاق ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ الذاريات ٢١، وإذا فصلنا ذلك فتحت أبواب العلوم المخزونة والأسرار المكنونة، التى لا يمسها إلا المطهرون.

واعلموا أيها الإخوان – أيدكم الله تعالى بروح من عنده – أنه لا ينبغى أن يتكلم أحد فى ذات البارى تعالى ولا فى صفاته بالحدس والتخمين، بل ينبغى له أن لا يجادل فيه إلا بعد

تصفية النفس، فإن ذلك يؤدى إلى الشكوك والحيرة والضلال، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ الحج ٨.

وقد بدأنا أولاً قبل كل شئ فبينا كيف ينبغى أن نصفى النفس من الأخلاق الرديئة التى اعتدنا عليها من الصبا، وجعلت لذلك فى هذا الكتاب أبواباً شتى، وأريد بتوفيق الله وحسن معونته أن أضع أبواباً أخرى أبين فيها ما الطريق المستقيم إلى الله عز وجل بدلائل واضحة، ليكون منهاجاً للقاصدين و إرشاداً للمريدين.

ثم أبتدئ بعد هذين الجهتين بالكشف عن الأمور الإلهية الخفية والأسرار المخزونة، مما عرفناه بإلهام الله تعالى، أو مما قد استنبطناه عن تفاسير أوليائه لكتابه العزيز، ومما قد جرى على ألسنة العارفين و إرشاداتهم ورموزهم من بدء كون العالم بعد أن لم يكن، ووقوع النفس وغرورها، وخلق آدم وعصيانه، وحديث الملائكة وسجودهم لآدم، وقصة إبليس والجان واستكباره عن السجود، وشجرة الخلد والمُلك الذى لا يبلى، وأخذ الميثاق إلى ذرية آدم، وأخبار القيامة والنفخ فى الصور والبعث والنشور والحساب وفصل القضاء، والجواز على الصراط، والنجاة من النار والدخول إلى الجنة، وزيارة الرب تبارك وتعالى، وما شاكل هذه من الأخبار المذكورة فى الكتاب العزيز، وما حقائق معانيها.

لأن فى الناس أقواماً عقلاء مميزين، إذا فكروا فى هذه الأشياء وقاسوها بعقولهم، لا تتصور لهم معانيها الحقيقية، وإذا حملوها على ما يدل عليه ظاهر ألفاظ التنزيل لا تقبله عقولهم، فيقعون عند ذلك فى الشكوك والحيرة، وإذا طالت تلك الحيرة بهم أنكروها بقلوبهم، وإن كانوا لا يظهرون ذلك باللسان مخافة السيف، وفى الناس أقوام دونهم فى العلم والتمييز، يؤمنون ويعلمون أنها الحق، وأقوام آخرون يأخذونها تقليداً ولا يتفكرون فيها.

وفى الناس طائفة إذا سمعوا مثل هذه المسائل نفرت نفوسهم منها واشمأزوا من ذكرها، وينسبون المتكلم أو السائل عنها إلى الكفر والزندقة والتكلف لما لا ينبغى.

فأولئك أقوام قد استغرقت نفوسهم فى نوم الجهالة، فينبغى للمذكر لهم أن يكون طبيباً

رفيقاً، يحسن أن يداويهم بأرفق ما يقدر عليه من التذكار لهم بآيات الكتب الإلهية، وما فى أيديهم من أخبار أنبيائهم، وما فى أحكام شرائعهم من الحدود والرسوم والأمثلة، فإن ذلك كله إشارات للنفس بالتذكار لها فيما قد غفلت عنه من أمر معادها ومبدئها، مثل مقادير الفروض التى فرضها الله تعالى، وما بينه النبى ﷺ من تعيين أوقاتها، وبيان شروطها وكيفيتها، وتعيين الجهة التى يوجه إليها.

واجبات المرشد

ولما كان المرشد يلزمه أن يذكر كل عباد الله من بنى آدم ليجمع الخلق على الحق، لأن المرشد الكامل وارث رسول الله ﷺ، فعليه أن يجعل قسطاً لتذكير النصرانى واليهودى والصنمى، بشرط أن يكون كما قال الله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ النحل ١٢٥، فيتحبب إليهم بأن يبين لهم معانى الإنجيل إن كانوا نصارى، معظماً له خشية تنفيرهم، والتوراة إن كانوا يهوداً كذلك، وينص فى بيانه على الإشارات والعبارات الدالة على التوحيد، مع اللطف والحرص على إقبالهم ونجاتهم من هاوية البُعد. فإن تعلقهم بظاهر أحكام شرائعهم، وحرصهم وعنايتهم بقراءة كتب أنبيائهم، واعتقادهم صواب ما فيها من أحكام الدين والدنيا، حجة عليهم وحجة لمن يفهم منهم على قسسهم وأحبارهم الجهلاء.

ويجب على المرشد أن يجعل لعباد الأصنام والشمس والقمر حظاً من دعوته، بشرط أن يحتاط من تنفيرهم وذم معبوداتهم وعقائدهم، بل يجب عليه أن يبين لهم أسرار وضع الصور والتماثيل والهياكل والطلسمات، ويبين لهم سر وضعها ومبدئها، والإشارة إلى ذلك بشرط أن يكون محصلاً لتلك الأسرار، حتى يميلوا إليه ويألفوه، ويقودهم إلى التوحيد بالرحمة والعاطفة، لأنهم من بنى الإنسان، وأن تلك المسائل التى يقوم بها المرشد، سالكاً بها سبيل السُنة فى دعوة الخلق إلى الله تعالى، تشتاق إلى بيانها النفوس وتألفها الأسماع.

ولكن الناس فيها طوائف، طائفة إذا سمعوا مثل هذه المسائل تطلعت همم نفوسهم إلى أجوبتها ورغبت فى معرفة معانيها، فإذا سمعوا الجواب عنها، قبلتها بلا حجة ولا برهان،

ولكن على التقليد، أولئك قوم نفوسهم سليمة لم تتعوج بالآراء الفاسدة، ولم تستغرق فى نوم الجهالة، فيحتاج المذكر أن يسلك بهم طريق التعليم التدريجى، كما سبق لنا بيانه بالعبارة والكتابة والعمل.

فإذا تهذبت نفوسهم وصفت أذهانهم وقويت أفكارهم، بينت لهم بأجوبة من هذه المسائل براهينها، كما بينا فيما كتبناه تحت عنوان "الإنسان"، وفى مواضع كثيرة نظمية ونثرية، مبينة لحقيقة الإنسان وصورته، وما بينا من الدلائل والبراهين الموجودة فى صورة الإنسان مما يسلمه كل عاقل.

وفى الناس طائفة من أهل العلم قد نظروا فى بعض العلوم، أو قرأوا بعض كتب الحكماء، أو سمعوا من المتكلمين فى مناظراتهم، ومن المتفلسفين والشرعيين، جميعاً قد تكلموا فى مثل هذه المسائل، وأجابوا عنها بجوابات مختلفة، ولم يتفقوا على شئ واحد، ولا صح لهم فيها رأى واحد، بل وقعت بهم فى ذلك منازعات ومناقضات، كل ذلك لأنهم لم يكن لهم أصل واحد صحيح ولا قياس واحد مستو يمكن أن يجاب به عن هذه المسائل كلها من ذلك أو على ذلك القياس، ولكن كانت أصولهم مختلفة وقياساتهم متفاوتة غير مبينة.

واعلموا أيها الإخوان - أيدكم الله بروح من عنده - أن الجواب على أصول مختلفة، والحكم بقياسات متفاوتة، تكون متناقضة غير صحيحة.

ونحن قد أجبنا عن هذه المسائل كلها، وأكثر منها - مما يشاكلها من المسائل - على أصل واحد وقياس واحد وهو صورة الإنسان. لأن صورة الإنسان أكبر حُجة لله على خلقه، لأنها أقربها إليهم ودلائلها أوضح وبراهينها أصح، وهى الكتاب الذى كتبه بيده، وهى الهيكل الذى بناه بحكمته، وهى الميزان الذى وضعه بين خلقه، وهى المكيال الذى يكيل لهم به يوم القيامة، وما يستحقونه من الثواب والجزاء، وهى المجموع فيها صور العالم جميعاً، وهى المختصر من العلوم التى فى اللوح المحفوظ، وهى الشاهد على كل جاحد، وهى الطريق إلى كل خير، وهى الصراط الممدود بين الجنة والنار.

وينبغى لمن يدعى الرياسة فى العلوم الحقيقية ويقول إنه يحسن أن يجيب عن هذه المسائل التى تقدم ذكرها، أن يطالب منه الجواب على أصل واحد وقياس واحد، فإنه لا يمكنه ذلك إلا أن يجعل أصله صورة الإنسان من بين صور جميع الموجودات من الأفلاك والكواكب والأركان والحيوان والنبات وغير ذلك.

وإن جعل أصله أشياء غير صورة الإنسان فلا يمكنه أن يقيس بها سائر الموجودات، ولا يجيب عن هذه المسائل إلا بمثل ما قسنا عليه نحن وأجبنا عنه. إذا فعل ذلك اتفق الجميع على رأى واحد ودين واحد ومذهب واحد، وارتفع الخلاف واتضح الحق للجميع، ويكون ذلك سبباً لنجاة الكل، ونحن لا نرخص لأحد النظر فى مثل هذه الأشياء، ولا السؤال عنها، إلا بعد تهذيب النفس بمثل ما قلناه ووصفناه فى مباحثنا المتضمنة، هذا اقتداء بسُنة الله تبارك وتعالى كما أخبر وقال: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ الأعراف ١٤٢، وذلك أن موسى عليه السلام قام لياليها وصام نهارها حتى صفت نفسه لمناجاة الله تعالى عند ذلك كلمه.

ويروى عن النبى ﷺ أنه قال: (من أخلص العبادة لله أربعين يوماً فتح الله قلبه وشرح صدره وأطلق لسانه بالحكمة ولو كان أعجمياً غلفاً).

فمن أجل هذا أوجب على الحكماء إذا أرادوا فتح باب الحكمة للمتعلمين وكشف الأسرار للمريدين، أن يروضوهم أولاً ويهذبوا نفوسهم بالتأديب كيما تصفو نفوسهم وتطهر أخلاقهم. لأن الحكمة كالعروس، تريد لها مجلساً خالياً، فإنها من كنوز الآخرة، وإن الحكيم إذا لم يفعل ما هو واجب فى الحكمة – من رياضة المتعلمين قبل أن يكشف لهم أسرار الحكمة – فيكون مثله فى ذلك كمثل خادم ملك أذن لقوم بُله بالدخول على الملك من غير تأديب ولا ترتيب، فإنه يستحق العقوبة عليه إن فعل ذلك، فإذا هو فعل ما قد يجب من تأديبهم، ثم لم يفعلوا ولا قبلوا منه، فقد برئ الحكيم من اللوم ولزمهم الذنب، لأنك إذا قدمت الطعام والشراب لجائع فقد أشبعته، فإذا هو لم يأكل حتى مات جوعاً فهو المأخوذ بدمه ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ النساء ٩٣، وفقك الله أيها البار الرحيم وإيانا

للرشاد، وسدد لك وإيانا وجميع إخواننا حيث كانوا فى البلاد، إنه رءوف رحيم.

الطريـقة المستقيمة

الطريقة المستقيمة تشتمل على اثنتى عشرة خصلة، هى جامعة لأوصاف الإيمان:

١ أول ذلك الشهادتين وهى الفطرة.

٢ الصلوات الخمس وهى الملة.

٣ الزكاة وهى الطهارة.

٤ الصيام وهو الجنة.

٥ الحج وهو الكمال.

٦ الجهاد وهو النصر.

٧ الأمر بالمعروف وهو الحُجة.

٨ النهى عن المنكر وهو الوقاية.

٩ الجماعة وهى الألفة.

١٠ الاستقامة وهى العصمة.

١١ أكل الحلال وهو الورع.

١٢ الحب والبغض فى الله وهو الوثيقة.

وقد روينا بعض هذه الخصال عن رسول الله ﷺ، وقد جاء نحوها عن ابن عباس وابن مسعود رضى الله تعالى عنهما.

متى يكون المريد على الطريقة المستقيمة

يكون على الطريقة المستقيمة، ويحصل له المزيد من مشاهد التوحيد، وتجدد الأحوال الروحانية، وتوالى الواردات الربانية، ويكون ممن لهم الأمن وهم مهتدون، إذا أعانه الله تعالى على تزكية نفسه، وعلى التمسك بسُنة رسول الله ﷺ والعض عليها بالنواجذ، عملاً بما أمره ﷺ، وتباعداً عما نهى عنه ﷺ، والتجمل بفضائل أهل العلم والمعرفة من السلف الصالح، ولزوم مجالس العارفين وسماع إشاراتهم وتلقى أسرارهم، وكل ذلك لا يتحصل عليه المريد إلا إذا ابتدأ بالبحث عن عالم عامل عارف متمكن، منحه الله الفقه فى قلبه، وجمل ظاهره بجمال حلل السُنة، حتى إذا وجده سعى إليه حيث كان وصحبه، مُسلِماً له نفسه، ملاحظاً لأعماله وأقواله وأحواله، حتى يتلقى عنه السُنة المحمدية عملاً وحالاً وتعليماً، فإذا ظفر بالرجل، واقتدى بهديه، ورأى من نفسه الانقياد له، صحت بدايته وحسنت نهايته، وظفر بالطريق المستقيم القريب الذى يوصله إلى الحق سبحانه، وإن لم يظفر بالرجل، فعليه أن يبحث عن الآثار وأعمال السلف وهديهم من العلماء وفى الكتب، ويعمل بها ويترك أعمال علماء الدنيا، ويدوم بحثه على الرجل المرشد الحقيقى ليكون له ثواب السعى فى طلب الله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ يوسف ٩٠، ولا يخلو زمان من الأزمنة من عارف بالله إما ظاهراً مشهوراً أو باطناً مغموراً، يعرفه من اختارهم الله واجتباهم، لأن علوم القلوب وأسرار الغيوب لا ترسم فى كتاب، ولكنها تلقى من فم العارف الحى للراغب المسلم، وبهذا يكون المريد ناهجاً على الصراط المستقيم، سالكاً مسالك الأبرار، مؤهلاً لمشاهد المقربين الأخيار، ومن أراد المزيد فى هذا الموضوع، فليراجع علوم اليقين فى كتاب " أصول الوصول" . ولما كان لابد فى الطريق إلى الله تعالى من المرشد، وقد سبق لنا شرح أوصاف المرشد بالتفصيل فى كتاب " شراب الأرواح" وكتاب " أصول الوصول" فأحب أن أبين أوصاف نواب المرشد، ثم كيفية صحبة المرشد، ثم معاملة المرشد للمسترشد، ثم أشرح حقيقة الأخوة والإخوان.

❊ ❊ ❊

نواب المرشد

الدعوة إلى الله تعالى يلزم أن يقوم بها جماعة من أهل الفضل والعقل والعرفان، الذين صحبوا المرشد صحبة حقيقية بصحة بداية وحسن نية وجمال مقصد، وتلقوا عنه أسرار عقيدته، وفهموا أنوار حاله، وذاقوا حلاوة فهم علومه ومعاملاته القلبية والبدنية، وعباراته وأخلاقه، حتى ظهرت لهم الدنيا منكشفة عن حقيقة زوالها وبقاء تبعاتها من الأعمال السيئة، أو نوال السعادة فى الدار الآخرة، بما مَنَّ الله به عليه من حسن العقيدة وحسن العمل والخلق، حتى زهدوا فيما فيها، وأنكروا ما فيها مما هو فان إنكاراً حقيقياً، ومالوا إلى الحق بكليتهم، وتحققوا الخير ورأوه بعين اليقين، ورأوا ما عليه الناس فأشفقوا عليهم، فبذلوا وسعهم فى إنقاذهم من الهاوية والغضب الإلهى برأفة وشفقة وحكمة، وبيان لآيات الله سبحانه وتعالى ونعمه على العباد، وذكرى لمننه عليهم، ليحنوا إلى الله سبحانه، وينهجوا على نهج رسول الله ﷺ.

فإذا منح الله تعالى مريداً تلك المنن، فهو القائم مقام المرشد فى غيبته، لأن الدعوة إلى الله سبحانه يلزم أن تكون عامة بين الناس للنفع العام.

فالمريد الذى أنس من نفسه بتلك الصفات، وتحقق من نفسه أنها راغبة حقيقة فى نجاة الإخوان من هاوية العذاب وبعد المقت، وأنس من نفسه أنها تعينه على عظيم شدائد الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى من الصبر على الفقراء والجزع وأذية الخلق وإنكارهم، والرضا بالقليل من الدنيا، وبذل الكثير منها لجمع القلوب على الله تعالى، وعلم حفظ نفسه من الغرور بإقبال الناس، وحسن ذكره بينهم وكثرة أتباعه، وتحقق صدقه فى حب الخير العام للمسلمين، فعليه أن يقوم متجملاً بحُلل التواضع والانكسار والمسكنة والذل والخضوع والخشوع والخوف من الله تعالى، متباعداً عن الجدل، وفتح أبوابه بالوقوع فيما يخالف السُنة المجمع عليها، أو بعمل تعود العامة على غيره، جهلاً منهم بالسُنة إلا بعد بيان، وكشف حقيقة السُنة بالمعروف واللطف، ويتباعد عن فتح باب الجدل، بكشف سر من أسرار الحقائق أمام من لم يسلم ويؤمن حقيقة، فإن ذلك موجب لضياع السُنة، بل وربما أوقع الجدل فى سخط الله ومقته.

وعليه أن يتباعد عن الوقوع فى الفتنة والفتن العامة، كجلوسه فى خلوة مع النساء أو الصبيان، أو دعوى أنه شريف مكى أو مدنى أو مادح، أو يلبس ملابس الرياء كالمرقعات تكلفاً، أو العكوف فى الخلوات ترغيباً للخلق، وذم أهل الطريق والمعتقدين عند العامة، ويتباعد عن الطمع فيما فى أيدى الناس، خصوصاً ما يحبونه من ملبس وسلاح ودواب وكراسى وزينة، إلا إذا قربوه برغبة مع إظهار عدم الرغبة فيه.

ولما كان النائب عن المرشد صورة له ممثلة له، فعليه أن يحافظ على الأكمل من العمل والخلق وحسن الهدى – ولو تكلفاً – رغبة فى ميل القلوب إلى المرشد لينالوا السعادة، فإن فضله وكماله يجعل القلوب تألف المرشد، وإذا خالف ذلك كان قاطعاً من قطاع الطريق وإن كان محفوظاً هو، إلا إذا أحب ميل القلوب إليه وستر فضائل المرشد، فإن ذلك يكون قطيعة له وإن لم يضر غيره، وعلى العموم فالمريد الأولى له أن يلازم على تطهير نفسه وتزكيتها، ويشتغل بالإقبال على الله تعالى، ويجعل الدعوة إلى الله من أكمل أعماله وأجملها ليتقرب بها إلى رسول الله ﷺ.

آداب صحبة المرشد

المرشد هو الرجل العالم بالطريق الموصل إلى الله تعالى، العامل بالعزائم من سُنن رسول الله ﷺ وأوصافه ونعوته وخصوصياته، تقدم شرح بعضها فيما فتح الله به للمسكين.

وأريد – بعون الله – أن أكتب فى آداب صحبة طالب طريق الله تعالى، الذى هو فان عن حظوظه وأهوائه لصفاء نفسه وانتهاجه على الصراط المستقيم، لأنه يجب عليه قبل صحبة الرجل أن يكون متحصلاً على ما لابد منه من فروع الشريعة من عقيدة وعبادات ومعاملات وأخلاق، ثم يصحب الرجل لتنكشف له أسرار آيات الله فى نفسه وفى الآفاق، ويذيقه حلاوة استحضار معانى الربوبية وأسرار تجليات الأسماء، ويمنحه حلاوة المراقبة ومحاسبة النفس، ثم يكاشفه بسر الجمع والفرق، حتى يأنس بربه سبحانه وتعالى، وبالكون معه سبحانه وتعالى، من المنازل التى بها النجاة، والمراتب التى بها القرب والمقامات التى بها الحب، ولا يكون ذلك إلا بالتسليم الحقيقى والقبول، ولا يمدح التسليم إلا بعد العلم بإخلاص المرشد

وصدقه وكمال علمه وصحة عزمه، حتى يطمئن القلب، ولديها يكون التسليم بأن يكون واقفاً عند إشارة الرجل وعبارته، بحيث لا يتأول من عباراته ولا إشاراته شيئاً، بل يسلم ما خفى عليه من أحواله ويعمل بما ظهر له، وتكون نفسه وماله وجاهه وعلمه تحت تصرف المرشد، بحيث يجعل نفسه كابنه الذى هو من صلبه معاملة حقيقية، متباعداً عن الانتقاد والمعارضة والجدل ونظر بشريته.

ويرى جميع أحواله مما يمكنه من مشاهدتها فى خلوته أو يشهده إياها منفرداً، اعتقاداً له لا عملاً، حتى يجد مواجيد أهل اليقين، ويكاشف بمكاشفات أهل التمكين، ويطالبه قلبه بعمل ما شهده من الأستاذ، فيعمل ذلك محافظاً على ما شهد بدون أن يتعدى عن اعتقاد ويقين لا عن تقليد، إلا فى أعمال البر وقربات الخير من أخلاق متواضعة، وحسن مداراة وجهاد نفس وتقليد فى الضروريات، فإنه يقلد فى ذلك ولو لم تنكشف له الحكمة، ويجب عليه أن يخفض صوته أمامه ويغض بصره، ويكون معه على نفسه فلا يدافع عنها، بل يكون عوناً له عليها، ولا يستظهر عليه فى عمل، ولا يتشبه به فيما يحصل له من تعظيم الخلق وإكرامهم له، بل إذا شهد شيئاً من ذلك من الخلق ينفر منه ويقبحه منهم، ويعلمهم أنه أخوهم وأنه لا يمتاز عنهم بشئ، خشية أن تنطبع صورته فى نفوس الناقصين من إخوانه.

وللرجال خصوصيات يقتضيها الوقت تُكْره للمريد، بل تحرم على المريد كحسن المداراة، والتحصن بما لابد منه للبشرية من الادخار وحسن الهيئة، وتأليف أهل الشرف، والوقوف عند الأعمال القلبية بعد الواجبات، وثقته بالحفظ الإلهى فيهمل الحيطة التى بإهمالها ربما يراه المريد تعدى أو وقع فى المشتبهات، بأن لا يتوضأ عقب نومة نامها، أو عقب خلوة بزوجته، أو بعد مصافحته للنساء، أو ما يماثل ذلك مما قل أو كثر، فإن يقظة قلبه وتمكينه من المعية جعلته لا يتأثر بأمثال هذه الأشياء، فليس للمريد أن يتشبه به ويكره له ذلك، ويحرم عليه أن يتعرض لذلك ليشهد الناس أنه شبيه بالمرشد، أو فى مقامه ومنزلته، لأنه يكون لبس حُلة الشهرة، ومحظور عليه أن يتشبه به فى مثل هذه الأحوال، إلا إذا أمكنه أن يجاهد نفسه مجاهدة تجعله يتشبه به فى إخلاصه وحضوره ومشاهدته وعلمه بنفسه وبالدنيا، وملاحظة النية لكل عمل بحسبه، ومراعاة مقتضيات الأوقات، حتى يدخله الله ويخرجه الله ويجعل له سلطاناً نصيراً.

هذا، وإن للمريد فترة فى نفسه تحصل له فى أثناء فواصل المراتب، حتى قد يتمكن العدو من نفسه عند فاصلة الإمداد ولمحة الانتقال، وآنات هدنة المجاهدة بين النَفْس والنَفْس، فيتمكن منه العدو بأن يريه أنه كمل أو صار وسطاً أو انتهى، أو ينتهز لحظة الفترة فيلفت قلبه لوجهة أخرى من الوجه اللاصقة بالقلب، فيشعر بملل أو كسل ولم يكن يتعودهما من قبل، حتى يكون هذا كإخلاد إلى البشرية وتشوق إليها.

وتلك الفترة تنتج نتائج المعارج لمن سبقت له الحسنى، فإنه يعقبها لهم شوق ونشاط ولهف ووله، خصوصاً إذا دعا الأمر لعدم سماع الحكمة أو البعد عن المرشد، حتى تشتد الرغبة لتجدد له العزيمة وتقوى دواعى الوله، فيتلقى المقام والحال بشغف وشوق، ويتمناهما بعد هذا الملل والفتور. حكمة دقت صوناً لمنازل القرب أن تبذل، ولمقامات الشهود أن تنال بلا طلب ولا تطلب، وفى هذه الإشارة إلى فِترة الوحى.

وقد تكون تلك الفترة مدارج البعد – نعوذ بالله تعالى – وقد يتمكن العدو فى تلك الفترة من القلب، بما هو لاصق به مما لا يلائمه أو يلائم حظاً خفياً فيه أو غرضاً تيسرت أسبابه، فيحصل له غض البصر والتفات الوجه، وطول التذكار ووسعة الأمل، وقد تتداركه العناية بعد ذلك، وله الإشارة بأكل بعض الشجرة، لأن العدو دخل فى تلك الفترة بطريق أمل البقاء.

فإذا اعتور المريد فى صحبة الرجل شئ من ذلك فليكن على حذر من دسائس العدو، وليجاهد نفسه مجاهدة – ولو بالتكلف الشديد – بأن يقبح لها ما تدعوه إليه، ويسد باب العدو عليه، ويحذر حتى يمن الله عليه بالنشاط من هذا العقال.

وللمريد عقبات، أهمها الحرص على الدنيا والجاه والرياسة ونظره إلى خصوصياته وغروره بعمله وعلمه، وبثناء الخلق عليه، وميله إلى حب الكرامات وشهرتها بين الناس، وقد يشغله إقبال الخلق عليه، فيرغب فيما فى أيديهم، أو يشتغل بالجدل معهم ومعاداتهم ويصرف الوقت ملتفتاً عن المرشد، مشغولاً بما يبعده عن منازل القرب ومشاهد أهل الحب.

وقد يتمكن منه العدو فيريه أنه يدافع عن الحق وعن السُنة، ويرى أن عمله هذا هو الحق، فيعتقد فى نفسه أنه خدم المرشد ونفعه، ولولاه لم يكن له طريق وينسى نفسه، كل تلك الأمور عقبات مهلكة.

وهناك موانع حاجبة منها أن يأمره المرشد بعمل من القربات، فيرى لذته وبهجته ونوره فى غيرها، فتنجذب نفسه إلى عمل ما لم يأمره به المرشد، ويجد منها رغبة وبهجة، ويرى فيه مشاهدات أو رؤيا منامية، أو إقبالاً من الخلق أو بسطاً فى الرزق، ويجهل المسكين أن المرشد هو الطبيب الحاذق، الذى يجتهد فى حفظ عافية النفس عليها وردها عند المرض، فتكون تلك العوائق من سوء الصحبة.

وليس للمريد أن يعمل بأقوال الرجل التى يقولها للعامة، إلا إذا أمره بعملها بأن يسمعه يبغض الدنيا للناس ويزهدهم فيها فيترك طرق الكسب، أو يرغبهم فى الحج فيخرج بدون استطاعة، أو يرغبهم فى الصيام فيكثر الصيام، ولكنه يأخذ من كلامه العام ما لابد له منه من واجب شرعى، أو ترك عمل منهى عنه ليكون سالكاً معه على حسب مراده، لأنه أعلم بما يصلح.

وأحب المريدين إلى الله ورسوله وأقربهم إلى منازل القرب من صحب الرجل زمناً طويلاً فلم يشغل قلبه من جهته بحزن ولا بشاغل، ولم يسبب له مضرة فى بدن ولا فى شهرة، ولم يغير تعاليمه ومواعظه وإرشاداته، ولم يشغل قلبه إلا بما ليس من اختياره وإرادته كمرض وأمثاله شغل رحمة وحنانة ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ ص ٢٤، والمريد الممنوح من الله تعالى مِنَح الوراثة، يجرى الله على يده مراده المحبوب له، وما يرضى المرشد ويسره، وقد يكون لساناً أو عيناً أو أذناً أو يداً أو كنزاً أو حصناً، وهو الذى يمنحه الله مواهب الحب.

وأفضل المريدين للرجل وأقربهم إليه من منحه الله أن يكون أذناً له ثم اللسان ثم البصر، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فقه القلوب

تقدم أن صحبة المرشد الكامل والبحث عنه والسعى لطلبه أمر واجب لمريد الوصول إلى الله تعالى بنص قوله ﷺ: (اطلب العلم ولو فى الصين)، وقوله ﷺ: (طلب العلم فريضة على كل مسلم) الحديث، ومراده ﷺ بالعلم: العلم النافع الذى يحصل به صاحبه السعادتين، ويتجمل بخشية الله كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ فاطر ٢٨، وكان من أكمل صفات المرشد أن يكون فقيه القلب، حتى يعقل عن الله تعالى وعن رسوله ﷺ. لزم أن أبين فقه القلب بقدر ما يفتح الله، فأقول وبالله المعونة والتوفيق:

فقه القلب: إنما يفقه اللسان من الأُذن، ولا يلزم من فقه اللسان فقه القلب، فكم من فقيه اللسان جهول القلب أو كفوره، وإنما كان ذلك لأن الجوارح خلقها الله، وأودع فى كل عضو منها ما به يقوم بما أعده له، وإنما أوعية الحق وخزن الفقه هى القلوب، وإنما تتلقى القلوب من علام الغيوب، وذلك لأن النفس الملكية شهدت الجمال وفقهت خطاب الجميل، فإذا تعلقت بالجسم لم تغب عن مشهد التجلى الأول، وحقائقه مشهودة لها مصورة فى ذاتها، فإذا سمع الإنسان المتعلقة به النفس الملكية تعلقاً فعلياً حكمة من متكلم – ولو كان غير حكيم – أصغت إليه، فطابقت الحكمة حقيقة ما فى ذات النفس، فحن الإنسان إلى تلك الحقيقة وانفعلت قوى نفسه، وتأثرت أعضاؤه واشتاق إلى الحق، وخشع قلبه وامتلأ خشية ورهبة من ذات الله تعالى ورغبة فى مرضاته، ولظهور أسرار الحق للنفس تتلقى الحكمة عن الرب سبحانه، مع أن المتكلم بها إنسان.

هذا، ومتى حصل تعلق النفس الملكية فعلاً بالإنسان، قوى عامل العبرة واشتد باعث الفكرة، وحصل شهود المعية وأشرقت أنوار الشهود، وتبدل الوجود المقيد بالإيجاد والإمداد الربانى، ثم تلألأت تلك الأنوار عن مجلى الذات، فحجب الإيجاد والإمداد بالوجود المطلق، وكان الإنسان مع الله والله معه.

وبهذا يكون القلب بيت قدس والجسم هيكل الرب، كنز مرموز بغاشية المبانى، انطوت فيه أسرار المعانى، ويكون الإنسان العالم الحقيقى الذى انطوى فيه العالم الأكبر، شهد فيه

أكمل مشاهد المقربين ومعانى تنزلات الصفات، وأسرار ظهور الأسماء، رفعت مكانته عن المقامات، وعزت مشاهده عن العقول الكاملة، وهو الإنسان الكامل صورة الرحمن الكاملة، وكعبة الأرواح العاشقة، وترجمان حقائق الآيات، ومبعث أنوار الإشارات، محل نظر الله من عباده، والمحبوب لذاته العلية فى دور التجليات المقيدة بالزمان والمكان، شمس تشرق فى الملكوت الأعلى، كإشراق شمس السماء على المُلك الأدنى، بلغ به الرضا عن الله مبلغاً جعله آنساً فى كل حال، والتوكل على الله جعله مشغولاً بذات الله فى كل حال، لا تشغله زهرة الفانية عن البهجة الباقية، ولا البهجة الباقية عن الولى المتعال، شهد الآخرة وهو فى الدنيا فلم تخطر الدنيا له على قلب، ووقعت عين بصيرته على وجه ربه العلى فلم تر باصرته أنوار الجنان، فهو مع الله فى الكون الأول، وعند مليك مقتدر فى الكون الثانى، والله عنده بالفناء عنهما، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفقهُ فى القلب نورٌ من لدى الربِّ ... وليس فى صحف تُتلى لذى حجبِ
فاستفتِ قلبَك ياذا القلبِ عن حِكمٍ ... فى الكونِ ظاهرةٍ للعينِ فى القلب
قلب عن الحق يتلقى معارفه ... هو الإمامُ إمامُ الدينِ والقرب
الكونُ نورٌ لذى قلبٍ يشاهده ... وراحُ صفوٍ لمطلوبٍ وذى حب

معاملة المرشد للمسترشد

المرشد هو رحمة الله الواسعة، ونعمة الله العامة، ومنته العظمى على عباده، ونور الله تعالى المبين لسبيله المقيم لحججه المجدد لسُنته، وأوصافه هى أوصاف سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ وأخلاقه وشمائله وأحواله وجميع أسراره، وقد ألمعنا إلى شرح كنز من صفاته ونعوته، وأريد بعون الله تعالى أن أشرح بعض أحواله فى معاملة المسترشدين، ليكون نبراساً للعالمين، ودليلاً على سير المرشدين.

معلوم أن النفوس تتفاوت استعداداً وقبولاً بحسب المواهب الإلهية والخصوصيات الربانية، فمنها النفس القابلة للتزكية المؤهلة للسعادة الأبدية المشتاقة إلى حضرة القدس

لصفاء جوهرها ورقة بشريتها وقوة الميل إلى معالى الأمور وذكاء الفطرة، وتلك النفوس مؤهلة للحكمة قابلة للمعرفة مجردة عن الدنس زكية طاهرة، يكفيها قليل الحكمة لما أودعه الله فى جوهرها من الفقه وما وهبه إياها من نور الفكر وجودة الذهن وحقيقة الاعتبار، فهى قابلة مؤهلة تترقى بسرعة من كون الفساد إلى ملكوت الله الأعلى بمجرد سماع الحكمة من الحكيم أو الراوى ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ ص٢٤، ومن أكمل علاماتهم أنهم يستمعون القول فيأخذون بأحسنه فى العزائم والحقائق ونور البيان، حتى أنك ترى المسترشد المؤهل يسمع من الحكيم فيعمل بالعزائم من أوامره، ويفقه سر الحكمة فى كل عمل، كأنه ممثل له بأجمل مثال ملاحظاً الحظوة فى العمل بمن له العمل، مستبصراً عند العمل بمن العمل؟ ولمن؟ وحصل على يد من؟ حتى كأنه مع مولاه فى حال عمله بجوارحه، وعنده حال العمل بقلبه، وهؤلاء هم الشهداء – جمع شهيد – والصديقون شهدوا بما شهد به هو سبحانه وملائكته.

ومن النفوس ما هو دون ذلك، وهى النفوس اللقسة بأدران البشرية وقاذورات زهرة الحياة الدنيا، لم تنبت فى منبت حكمة ولم تسق بماء العلم ولم تصحب مرشداً عالماً.

وهذه النفوس فى حاجة إلى الدواء النافع والمرشد الطبيب، الذى يجرد تلك النفوس من سجون الشهوة وقيود الحظ وسافل الغفلة وسجين الغرور، بحكمة تكشف لها الستار عن الرذائل فيجتنبها حياء، والقناع عن الفضائل فيجاهد نفسه فيها رغبة، حتى تتلطف نار الأخلاق الإبليسية، وتطفأ شعلة البواعث البهيمية، ويكون إنساناً يشعر من نفسه بأنه قابل للفضائل، مستعد للرقى مؤهل للسعادة، مسؤول أمام ضميره وبين يدى ربه سبحانه، والشاهد عليه رسول الله ﷺ، منظور من الخلق بأعين تمدح وتذم.

وتكون تلك التربية بطريقة تنمو بها فيه روح الملاحظة حياء ورغبة، ويتباعد المرشد بكل ما فى وسعه عما يظهر كمين النفس ويرجعها إلى جبلتها ويفقدها من سبيل الانقياد والاستسلام.

ويلزم أن تكون تلك المراقبة للمسترشد بغض البصر عن هفواته وصغائره، وحفظ اللسان من ذكرها أمامه أو أمام غيره، أو تعنيفه عليها فى خلوة أو مجتمع، اللهم إلا فى مذاكرة عامة

يتحرى فيها عدم التعريض، حتى لا يدرك أنه المقصود بالذات محافظة عليه من الهلكة، حتى تطفأ نار الإبليسية، ويخمد جمر البهيمية، ويذوب ثلج البشرية، ويكون إنساناً يشعر بإنسانيته، ويعلم المميزات بينه وبين غيره من الحيوانات فى الأعمال.

ولديها يجب على المرشد أن يشرح له المراقى والمراتب والمقامات التى أُهل لها الإنسان، الذى صار إنساناً، وطرد عنها الشيطان وحجب عنها الحيوان بطريق خطابه، متباعد عن الجدل وفتح باب المناظرة بقدر رتبته فى القابلية.

ويجتهد فى أن يحافظ عليه فى تلك الرتبة من أن يزل أو ينزلق، فإنه إذا زل ضل، فتجتمع فيه القوىَّ الثلاث من النفوس الإبليسية والحيوانية والإنسانية، وعليه أن يقوى فيه نبات الحياء والرغبة، ليتمكن من أن يجرده من الرعونات النفسانية والوساوس الشيطانية، التى هى عقبات تلك الرتبة، ويبث فيها روح الرغبة فى العوارف والميل إلى علم آثار السلف، ليجعل ذلك درعاً يحصنه به من الانقلاب إلى خبثه فيما إذا أخطأ أو غفل فى قول أو عمل أو حال، فيعلمه أن ذلك ليس من هدى السلف، ويبين له هديهم ليطمئن بمزيد العلم، ولا ينفر من مواجهة الموعظة.

وعلى المرشد أن لا يبحث عن المسترشد فى عمل ولا قول مادام يتستر فيه، وأن لا يجعل له أُذناً تصغى إلى سماع القبيح من أعمال المسترشدين، ليكون ذلك أصفى لقلبه وقلوبهم، إلا إذا جاهر بذلك فللشريعة حدود، فإن كان ممن يقيمها أقامها، وإلا لزمه العناية بالمريد حتى يتوب أو يهجر، وعليه بعد هجره أن يذكر محاسنه التى كان عليها، وأن يمتنع عن ذكر زلله ليكون ذلك أدعى إلى تعليم المسترشدين واستعطاف الغافل، وعلى المرشد أن لا يثق بمن فى مراتب التخلية فى سر أو معاونة إلا برغبة منهم شديدة وتمنع منه، وعليه أن يسبقهم فى فعل الفضائل من البذل والرحمة ومكارم الأخلاق، والمسارعة إلى موجبات المغفرة والرضوان ليقتدى به.

وهناك نفوس خبيثة سبق عليها القضاء وسجل عليها البلاء، لا تسمع الدعاء ولا تبصر الضياء ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ الأعراف ١٧٩ الخ

الآية، تلك النفوس جهنمية فى أشباح ظلمانية، حَسُن الضلال لديها وقُبح الحق عندها، ولكن المرشد مطالب أن يكون حُجة الله عليهم بأن يلين جانبه لهم، وأن يتألفهم بالبذل والتواضع والحجج البالغة والرحمة واللطف والرأفة، فلا يكون فظاً غليظاً ولا قاسياً جافياً، فيكون سبباً فى هلاكهم – وهم هالكون أصلاً – بل يجهد نفسه ويكدها حتى يكون هلاكهم بعد وضوح الحُجة وجمال الدعوة وحسن المعاملة ومكارم الأخلاق من الداعى.

وكثير من النفوس ما تكون لقسة فتداوى وتزكو، ويكون ميلها للخير أكثر أو مساوياً، وتلك النفوس أتعب على المرشد من النفوس الخبيثة، لأن أكثر التفرقة والشقاق والتشعب ناتج من مثلها. فإن النفوس الطاهرة الزكية فطرت على الخير والأحسن فسلمت وسالمت، والنفوس الخبيثة فُطرت على الشر والأقبح فتحصن الناس منها، وأما النفوس اللقسة فقد يغتر بها فى حال إقبالها، فتباح لها الأسرار وتكاشف بالعورات، فتكون فى حال شرها أشد من العدو الخبيث، وللمرشد بصائر يعلم بها سر إقبال تلك النفوس فيحتاط منها، ويكفى للمستبصر أن يرى المريد على حال سيئة أو عمل سيئ أو قول قبيح، ليعلم أنه نتج عن سوء فى النفس وقبح فى الخلق، فلا يستبعد تكراره، ولكنه يلزمه أن يتباعد عن موجبه، ويكون شديد الحرص على استبداله إن أمكن، أو كمونه فى النفس مع الإلماع بقبيحه فى العامة، والتشنيع عليه وتأليف من ابتلى به لمداواته، لا بالخوف والقسوة والجفوة، بل بما يوجد الحياء من وقوعه كما تقدم.

الأخ فى الله تعالى

هو شخص أخر إلا أنه أنت، لأنه يقصد ما تقصد ويتمنى ما تتمنى ويعتقد ما تعتقد، ويعمل بعملك ويقتدى بقولك وعملك وحالك، ذاق ذوقك وفهم عبارتك وأدرك إشارتك، يسعى فيما يرضيك ويحب من تحب، يصادق صديقك ويعادى عدوك، يحفظك غائباً ويسرك حاضراً، يذكرك إن غفلت ويعينك إن ذكرت، يسارع فى مرضاتك عندما ترضى الله تعالى، ويتوقف عن العمل إن جهل حكم عملك، حتى تبين له بدون جدل ولا انتقاد ولا اعتراض، تجمل بكل خصالك واتصف بجميع صفاتك، وَدَّك بأكمل ما يود به نفسه، وتحمل الشدائد فى

جمع الكلمة، يجاهد نفسه ليتجمل بمكارم الأخلاق، يصل رحمك ويكرم أقاربك ويعطف على أولادك، هذا هو الأخ ولو كان بعيد النسب عنك.

الأخ هو أنت خلقاً واعتقاداً ومقصداً وعملاً وحالاً. الأخ من بذل نفسه قبل نفسك وماله قبل مالك، وقدم أصدقاءك وأهلك وأولادك على خاصته وأهله وأولاده.

ليس الأخ بنسب الأبوين، إنما الأخ من ناسبك فى خصوصيتك، وتشبه بك فى جميع أحوالك، قرب منك بما جملك الله به فصار قريبك، وانتسب إليك بما تقربت به إلى الله فصار من نسبك.

الأخ من لا تتكلف له ولا تخشى الشر منه، استوى عندك السر والعلن معه، وأنت عظيم فى عينه وقلبه فى كل أحوالك، من يسر وعسر وبعد وقرب، إن شددت يسر وإن يسرت هابك، سروره أن تكون مسروراً، هذا هو الأخ ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ ص ٢٤، فهذا الأخ هو الوارث للأحوال والعلوم والأسرار، فإذا كان من أهل نسبك كان ذلك أكمل وأجمل وذلك هو الفضل العظيم، وإنما هى مشابهة توجب القرب بعد الحب، فالرقى إلى المقام بعد الحال فالوصول فالكمال.

أسأل الله أن يجملنا بأخلاقه، وأن يمنحنا عنايته، وأن يواجهنا بوجهه الجميل، إنه مجيب الدعاء، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الإخوان ومعاشرتهم

ينبغى لإخواننا أيدهم الله حيث كانوا فى البلاد أن يكون لهم مجلس خاص يجتمعون فيه فى أوقات معلومة، لا يكون معهم فيه غريب عنهم، يتذاكرون فيه علومهم ويتفاهمون أسرارهم، خصوصاً علوم النفس وفقه أسرار الكتب الإلهية ومعانى الإشارات النبوية، خصوصاً ما يتعلق بكشف الأسرار الإلهية التى هى الغرض الأقصى.

وبالجملة ينبغى لإخواننا أيدهم الله تعالى أن لا يعادوا علماً من العلوم، أو يهجروا كتاباً

من الكتب، ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب، لأن طريقنا يستغرق المذاهب كلها ويجمع العلوم جميعها، وذلك أنه هو النظر فى جميع الموجودات بأسرها، الحسية والعقلية من أولها إلى آخرها، ظاهرها وباطنها جليها وخفيها، بعين الحقيقة من حيث هى كلها آثار دالة على مبدئها الذى أوجدها، وآيات ظاهرات مبرهنة على سر تصريف القدرة وعجيب الحكمة الإلهية، منطوية على أسرار دقيقة يرى الناس ظاهرها ولا يعرفون معانى بواطنها، من لطيف صفة البارى جل وعلا.

اختيار الإخوان

ينبغى لإخواننا - أيدهم الله حيث كانوا فى البلاد - إذا أراد أحدهم أن يتخذ صديقاً مجدداً وأخاً مستأنفاً، أن يعتبروا أحواله ويتعرفوا أخباره ويجربوا أخلاقه، ويسألوا عن مذهبه واعتقاده، ليعلم هل يصلح للصداقة وصفاء المودة وحقيقة الأخوة أم لا؟ لأن فى الناس أقواماً طبائعهم متغايرة خارجة عن الاعتدال، وعاداتهم رديئة مفسدة، ومذاهبهم مختلفة جائرة، فمنهم شرير وخير، وكفور وشكور، وذو أمانة وغدار، وحليم وسفيه، وسخى وبخيل، وشجاع وجبان، وحسود وودود، وفاجر وعنيف، وجزوع وصبور، وشره وقنوع، وسلس وشرس، وفظ غليظ ولطيف رفيق، وعاقل وأحمق، وعالم وجاهل، ومحب ومبغض، وموافق ومخالف، ومنافق ومخلص، وناصح وغاش، ومتكبر ومتواضع، وعدو وصديق، ومؤمن وزنديق، وعارف ومنكر، ومقبل ومدبر، وما شاكل هذه الأخلاق المحمودة والمذمومة مضادات بعضها لبعض.

واعلم بأن شر هذه الطوائف كلها من لا يؤمن بيوم الحساب، وشر الأخلاق كيد إبليس وحرص آدم وحسد قابيل، وهى أمهات المعاصى.

واعلم بأن الناس مطبوعون على أخلاقهم بحسب اختلاف تركيب مزاج أجسادهم. واعلم بأن من الناس من هو مطبوع على خلق واحد وعدة من أخلاق محمودة ومذمومة، وأن العادات الرديئة تقوى الأخلاق الرديئة، والعادات الجميلة تقوى الأخلاق المحمودة، وهكذا حكم الآراء والاعتقادات، فإن من الناس من يرى ويعتقد فى دينه ومذهبه أنه حلال

له سفك دم كل مخالف له فى مذهبه، مثل اليهود والخوارج، وكل من يكفر بالرب، ومن الناس من يرى ويعتقد فى دينه ومذهبه الرحمة والشفقة للناس كلهم، ويرثى للمذنبين ويستغفر لهم، ويتحنن على كل ذى روح من الحيوان ويريد الصلاح للكل، وهذا مذهب الأبرار والزهاد والصالحين من المؤمنين، وهكذا مذاهب إخواننا الكرام.

اختيار الخاصة منهم

ينبغى لك إذا أردت أن تتخذ صديقاً أو أخاً لك، أن تنقده كما تنقد الدراهم والدنانير والأرضين الطيبة (التربة للزرع والغرس)، وكما ينقد أبناء الدنيا أمر التزويج وشراء المماليك والأمتعة التى يشترونها.

واعلم بأن الخطب فى اتخاذ الإخوان أجل وأعظم خطراً من هذه الدنيا كلها، لأن إخوان الصدق هم الأعوان على أمور الدين والدنيا جميعاً، وهم أعز من الكبريت الأحمر، وإذا وجدت منهم واحداً فتمسك به، فإنه قرة العين ونعيم الدنيا وسعادة الآخرة، لأن إخوان الصدق نصرة على دفع الأعداء، وزين عند الأخلاء، وأركان يعتمد عليهم عند الشدائد والبلوى، وظهر يستند إليهم عند المكاره فى السراء والضراء، وكنز مدخر ليوم الحاجة، وجناح خافض عند المهمات، وسلم للصعود إلى المعالى، ووسيلة إلى القلوب عند طلب الشفاعات، وحصن حصين يلتجأ إليه يوم الروع والفزعات، فإن غبت حفظوك، وإن تضعضعت عضدوك، وإن رأوا عدواً لك قمعوه.

الواحد منهم كالشجرة المباركة، تدلت أغصانها إليك بثمرها، وأظلتك أوراقها بطيب رائحتها، وسترتك بجميل فيئها، فإن ذكرت أعانك وإن نسيت ذكرك، يأمرك بالبر ويسابقك إليه، ويرغبك فى الخير ويبادرك إليه ويدلك عليه، ويبذل ماله ونفسه دونك.

فإذا أسعدك الله يا أخى بمن هذه صفته، فابذل له نفسك ومالك، وقِ عرضه بعرضك، وافرش له جناحك، وأودعه سرك وشاوره فى أمرك، وداو برؤيته عينك، واجعل أنسك إذا غاب عنك ذكره والفكر فى أمره، وإن هفا هفوة فاغفر له، وإن زل زلة فصغرها عندك، ولا

توحشه فيخاف من حقدك، واذكر من سالف إحسانه عند إساءته ليأنس بك ويأمن غائلتك، فإن ذلك أسلم لوده وأدوم لإخائه.

التحفظ من مؤاخاة من لا يليق

اعلم يا أخى بأن من الناس من لا يصلح للصداقة والأخوة والمقاربة أصلاً البتة، فانظر من تصحب وتعاشر، ولا تغتر بظواهر الأمور من غير معرفة بواطنها، ولا بحلاوة العاجل من قبل النظر فى مرارة عاقبتها، فإذا أردت اتخاذ أخ أو صديق فاعتبر أولاً أحواله، واختبر أخلاقه، وسله عن مذهبه واعتقاده، وانظر فى عاداته وسجيته وشمائله وحركاته، فإنه لا يخفى على المتفرس بواطن الأمور إذا نظر إلى ظواهرها.

واعلم بأن من الناس من يتشكل بشكل الصديق، ويتدلس عليك بشبه الموافق، ويظهر لك المحبة وخلافها فى صدره وضميره، فلا تغتر أو تتيقن.

واعلم بأن أعمال الناس فى ظاهر أمورهم تكون بحسب أخلاقهم التى طبعوا عليها، وبحسب عاداتهم التى نشأوا عليها، أو بحسب آرائهم التى اعتقدوها، فإذا رأيت الرجل معجباً صلفاً، أو نكداً لجوجاً، أو فظاً غليظاً، أو مماحكاً ممارياً، أو حسوداً حقوداً، أو منافقاً مرائياً، أو بخيلاً شحيحاً، أو جباناً مهيناً، أو مكاراً غداراً، أو متكبراً جباراً، أو حريصاً شرهاً، أو كان محباً للمدح والثناء أكثر مما يستحق، أو كان مزدرياً لنظرائه، أو كان مستحقراً لأقرانه والناس ذاماً لهم، أو متكلاً على حوله وقوته، فاعلم بأنه لا يصلح للصداقة وصفوة الأخوة، لأن هذه الأخلاق والآراء والعادات مفسدة لاعتقاده بإخوانه، وذلك أن من يحب المطالبة بما لا يجب له لا تسمح نفسه ببذل ما يجب عليه، وهكذا الحسود واللجوج والغضوب تمنعه هذه الأخلاق عن الإذعان للحق، وهكذا اللجاج والتكبر يمنعان عن قطع الجدال والخلاف، وكذلك الفظاظة والغلظة يمنعان من العذوبة والسهولة، والشراسة والغضب يهيجان على المكابرة.

وبالجملة كل هذه الأخلاق مفسدة للمودة، ومخالفة لصفو الأخوة مستثقلة للنفوس،

وموحشة للأنس والراحة ومنفرة لإلف الطباع، ومنغصة للعيش ومبغضة للحياة.

واعلم بأن الصداقة لا تتم بين مختلفين فى الطبع، لأن الضدين لا يجتمعان، مثال ذلك السخى والبخيل فإنهما متضادان فى الطبع، فلا تتم بينهما الصداقة ولا تصفو لهما المودة ولا يهنيهما العيش، لأنه إذا فعل السخى شيئاً – مما يوجبه سخاؤه من بذل المال أو المعروف – رآه البخيل بصورة المُضيع قد فعل ما لا ينبغى ولا يجوز.

وإذا فعل البخيل بطبعه شيئاً من إمساك المال – مما يوجبه بخله – رآه السخى بصورة من قد أتى منكراً لا يحسن فعله، فيصير ذلك سبباً لعيب كل واحد منهما على صاحبه، حتى يعتقد البخيل فى السخى سخف الرأى وتضييع المال وترك النظر فى العواقب، ويعتقد السخى فى البخيل النذالة والدناءة وصغر النفس وقصور الهمة، فإذا وقع ذلك بينهما ودام، صارت وحشة تواترت حتى تصير عداوة، وتصير العداوة إلى الصرامة.

وهذا القياس فى كل خلقين مختلفين متضادين، فإنهما يوجبان المنازعة، والمنازعة توجب المغالبة، والمغالبة تنتج المغالطة، والمغالطة توجب المباغضة، والمباغضة ضد الصداقة.

التحفظ من الأدعياء

اعلم أيها المريد أن الله تعالى ذكر قوماً بأنهم يدعون العلم، وذمهم سبحانه بقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ الزخرف ٥٨، وهم الذين يتكلمون فى التوحيد على غير هدى، بلسان الجدل والبحث عن الجوهر الفرد، والأشياء التى لا حقيقة لها، ويظنون أنهم علموا حقائق الأشياء وهم جاهلون بأنفسهم، غافلون عن المراد منهم، يوقعون المؤمنين فى الشكوك فاحذرهم، ومنهم الجاهل المدعى الذى يكفر العلماء بالله، ويرميهم تارة بالكفر وتارة بالضلال، وهؤلاء هم قطاع طريق الله تعالى، ومن جهل شيئاً عاداه.

* * *

دعاة الجهالة

إن لم يساووا علماء السوء فى جلب المضرة على المسلمين فهم أضر منهم، لأنهم يموهون على العامة أنهم الدعاة إلى الله تعالى، الوارثون لأحوال الأقطاب والأبدال، ويوهمون عليهم أنهم يمكنهم النفع والضر، ويلفتون المسلمين عن العمل الواجب عليهم شرعاً وعقلاً من العلم والعمل للدنيا.

ثم إنهم – بجهلهم – يوهمون أن التوكل ترك الأعمال، وأن الرضا عدم المعارضة وترك الناس يعملون ما شاءوا، ومنهم من يتقرب إلى الأمراء أو المتسلطين، فيكونون أعواناً لهم على حب العامة لهم، والرضا بأحكامهم وأعمالهم، بل ويفهمونهم أن هذا هو الخير، وأن هذا فضل من الله ونعمة، وهو فى الحقيقة سخط من الله ونقمة.

ثم إنهم – لطمعهم – يوقعون العامة فى بغض العلماء والأتقياء والدعاة إلى الخير، فتحصل التفرقة ويقوم كل فريق لمناوأة الآخر، فتتفرق الجماعة ويسارع كل فريق إلى المتسلطين أو الأمراء، فيستعينون بهم على أهل الحق، حتى يضعف القائمون بالحق ويختفون وينتشر الباطل.

وأول فتنة حصلت فتنة مسيلمة الكذاب، ثم حوادث الخوارج، ثم بنى أمية، ثم بنى العباس، ولكن كان نور الكتاب والسُّنة مشرقاً على جميع المسلمين، ومن نظر بعين العبرة فى مرض المسلمين الآن وما أصابهم، يجد ذلك ناشئاً عن تلك الأسباب المتقدمة.

ودواء ذلك المرض أن يتحد الأمراء والعلماء والدعاة بالقلب واللسان على العمل بكتاب الله تعالى وسُنة رسوله ﷺ، وإحياء سيرة السلف مع الزهد فى الدنيا، والتوبة ببذل أنفسهم وأموالهم فى إحياء سُنة رسول الله ﷺ بالحكمة والموعظة.

وإلا فالله سبحانه له عباد أحبهم وأحبوه، يجعل إحياء ذلك الأمر على يدهم، لأن الله غيور على دينه وسُنته وكتابه وسُنة نبيه ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ إبراهيم ٤٢، أسأل الله تعالى أن يوفقنا لما يحب من القول والعمل والحال، وأن يجمع قلوبنا على الحق، وأن

يهب لنا عناية يحيى بها السُنة إنه مجيب الدعاء، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الحرص على من ظفرت به من الإخوان

واعلم بأن مثل اتخاذ الأصدقاء والإخوان كمثل اكتساب المال والذخائر، وذلك أن من الناس من يفنى عمره فى طلب جمع المال فلا يقدر عليه، ومنهم من يكون مرزوقاً من كثرة المال، ومنهم من يحسن كسب المال ولكن لا يحسن أن يحفظه، فهكذا حكم اتخاذ الإخوان والأصدقاء، ومنهم من يحسن اتخاذ الأصدقاء والإخوان ولكن لا يحسن حفظهم ومراعاة أمورهم، فيصيرون إلى العداوة بعد الصداقة وإلى المباغضة بعد المودة.

فينبغى لك أن يكون أكثر كدك وعنايتك بعد اتخاذ الصديق مراعاة أمره وأداء حقوقه، حتى لا تصير الصداقة عداوة بعد طول الصحبة بملالة أو ضجر أو شكوك أو ظنون أو شُبهة تدخل فى المودة، أو نميمة أو وشاية من مخالف يسعى بينكما بالفساد، فتفقد يا أخى هذا الباب ولا تغفل عنه.

لا تثق إلا بالله وذرا لإخوان

اعلم أن الإنسان كثير التلون قليل الثبات على حال واحد، ولذلك فإنه قل من الناس من تحدث له حال من أحوال الدنيا، أو أمر من أمورها من غنى إلى فقر، أو من فقر إلى غنى، أو من حضر إلى سفر، أو من عزوبة إلى تزويج، أو من ذل إلى عز، أو من عطلة إلى شغل، أو من بؤس إلى نعمة، أو من رفعة إلى ضعة، أو من ضعة إلى رفعة، أو من صناعة إلى تجارة، أو من صحبة قوم إلى صحبة آخرين، أو من رأى ومذهب إلى رأى ومذهب، أو من شباب إلى شيخوخة، أو من صحة إلى مرض، إلا ويحدث له خُلُق جديد وسجية أخرى، ويتغير خلقه مع إخوانه ويتلون مع أصدقائه، إلا الإخوان المتحابين فى الله، الذين ليست صداقتهم خارجة عن ذاتهم.

وذلك أن كل صداقة تكون لسبب ما، فإذا انقطع ذلك السبب بطلت تلك الصداقة، إلا

صداقة المتحابين فى الله، فإن صداقتهم قرابة رحم، ورحمهم أمسُّ من رحم من يعيش بعضهم ببعض، ويرث بعضهم بعضاً، وذلك أنهم يرون ويعتقدون أنهم نَفْس واحدة فى أجساد متفرقة، فكيفما تغيرت حال الأجساد بحقيقتها، فالنفس لا تتغير ولا تتبدل كما قال القائل:

وفى الجسمِ نفسُ لا تشيبُ بشيبه ... ولو أن ما فى الوجهِ منه خرابُ
لها ظفران كل ظفر أعده ... وناب إذا لم يبقَ فى الفمِ نابُ
يغيرُ مِنِّى الدهرُ ما شاء غيَّرها ... فأبلغُ أقصى العمرِ وهى كعابُ

وخصلة أخرى: أن أحدهم إذا أحسن إلى أخيه إحساناً فلا يمن عليه به، لأنه يرى ويعتقد أن إحسانه إلى نفسه كان، وإن أساء إليه أخوه لم يستوحش منه، لأنه يرى بأن ذلك كان منه إليه.

فمن اعتقد فى أخيه مثل هذا، واعتقد أخوه فيه مثل ذلك، فقد أمن كل واحد من أخيه غائلته أن يتغير عليه فى يوم من الأيام، بسبب من الأسباب أو بوجه من الوجوه:

ثقتى بنفسى ظلمٌ لى وبهتانٌ ... وحسن ظنى بغير الله حرمانُ
دع ما سوى الله وانهض مخلصاً وجلاً ... له ومنه فحبُّ الغيرِ خسرانُ
ومنك فِرَّ إليه راغباً رهباً ... فالله ربُّك والأكوانُ أكوانُ
أخْرِجْ من القلب ميلاً أو هوىً لسوى ... مولاك فهو قريبٌ منك منانُ
وابرأ إلى الله من حولٍ ومن حيلٍ ... فإن أبيتَ مقالى أنت شيطانُ
أقبلْ على الله مضطراً ومفتقراً ... لذاتِه ثم ناد القصدُ رضوانُ
دع الغرورَ بدارِ كلها فتنُ ... فقد هوى لحضيض النارِ هامانُ
وانْهَجْ على منهج القرآنِ معتصماً ... بحكمِه فحصونُ الله قرآنُ
أحِبَّ فى الله وابغضْ فيه تحظ بما ... تبغيه وهو طهورٌ بل وريحانُ

معاملة الصديقين

ينبغى إذا ظفرت بواحد منهم أن تختاره على جميع أصدقائك وأقربائك وعشيرتك وجيرانك الذين نشأت معهم، فإنه خير لك من ولدك الذى من ظهرك، وأخيك الذى من صُلب أبيك، ومن زوجتك التى جعلت كل كسبك لها وجميع سعيك من أجلها.

فاعرف حقه كما تعرف حقوقهم، بل ينبغى أن تؤثره عليهم كلهم، لأن هؤلاء يحبونك من أجل منفعة تصل منك إليهم، ويريدونك من أجل مضرة تدفعها عنهم، فإذا استغنوا عنك زهدوا فيك ورغبوا فى غيرك وخذلوك أحوج ما تكون إليهم، فأما هذا الأخ فليس يريدك من أجل شئ خارج عن ذاتك، بل من أجل أنه يرى ويعتقد أنك إياه وهو إياك نَفْس واحدة فى جسدين متقابلين، يسره ما يسرك ويغمه ما يغمك، يريد لك منه مثل الذى تريد له منك.

واعلم بأن قلوب الأخيار صافية لأن نفوسهم طاهرة، ولا تخفى عليهم خفيات الأمور لأنها تتراءى فيها كما تتراءى فى أعين البصر ظواهر كليات الأمور، فلا تضمرن لإخوانك الأصفياء خلاف ما تظهر لهم، فإن ذلك لا يخفى عليهم ولا يتكتم عليهم منك، والله الموفق.

شر الناس

شر الناس على أهل الدين والورع، وأضرهم على العلماء، وأشدهم على عداوة الحكماء، هذه الطائفة الظالمة المجادلة المخاصمة، الذين يخوضون فى المعقولات وهم لا يعلمون فى المحسوسات، ويتعاطون البراهين والقياسات وهم لا يحسنون الرياضيات، ويتكلمون فى الإلهيات وهم يجهلون أسرار الكائنات، ويتصدرون فى المجالس ويتجادلون فى أشياء لا تفيد فى الدين علماً، ولا تنتج فى الحكمة فائدة.

مثل خلافهم فى التعديل والتجريح، والحسن والقبح، والجزء الذى لا يتجزأ، وما شاكلها من المسائل المموهة المزخرفة، التى لا حقيقة لها ولا وجود إلا فى الأوهام الكاذبة ولا يصح للمدعى فيها حُجة، ولا لسائل عنها برهان، وهم خائضون فيها فى مجالسهم، مضيعون فيها أوقاتهم بالخصومات والمجادلات والمعارضات والمناقضات.

وإذا سئلوا عن أشياء هى موجودة مقدرة بين الناس ومعروفة مشهورة عند العلماء، لا يحسنون أن يجيبوا عنها، فإذا استقصى عليهم بالسؤال والبحث أنكروها وجحدوها، ويأنفون أن يقولوا: لا ندرى. أو يقولوا: الله ورسوله أعلم. بل يخوضون فى طغيانهم وجهالاتهم، ويدعون فيها المحالات، وربما يضعون فى إبطالها المقالات المزخرفة، ويعارضون بها العلماء، ويشنعون بها عليهم، مثل قولهم: إن علم الطب لا منفعة فيه، وإن علم الهندسة لا حقيقة له. ومثل معاداتهم لأهل الزهد والورع والعلماء بالله، ورميهم بأنهم أهل بدعة، ويدعون عليهم المحالات، ويحكون عنهم الخرافات على سبيل الشنعة عليهم، والوقيعة بهم بسخيف الرأى، ويسمعونها الأحداث ويصورونها فى قلوبهم، ويمكنون فى أنفسهم تلك الآراء الفاسدة والمذاهب الرديئة، ويحيرونهم ويشككونهم فى الحقائق.

فلو أن أهل تلك الآراء والمذاهب اجتهدوا بجهدهم، وأنفقوا أموالهم فى إظهار مذاهبهم، والاحتجاج على آرائهم والإيضاح عن اعتقاداتهم، لما بلغوا عُشر العشر مما قد بلغ هؤلاء المجادلة فى تملكها فى أكثر النفوس.

ومع هذه البلية كلها يدعون أنهم بهذا الفعل ينصرون الإسلام ويقررون الدين، وإلى يومنا هذا ما روى أن يهودياً تاب على يد واحد منهم، ولا نصرانياً أسلم ولا مجوسياً آمن، بل يزدادون باعتقاداتهم ومذاهبهم احتفاظاً إذا نظروا إلى هؤلاء المجادلة، فرأوا خصوماتهم فى أحكام الدين، وكثرة خلافهم ومنازعاتهم بعضهم لبعض، وعداوة بعضهم من بعض، ويلعن بعضهم بعضاً فاعتبروا أن ما مثل هؤلاء المجادلة فيما هم فيه، ومن يدخل فى مذاهبهم، إلا كما ذكر الله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ الأعراف ٣٨، وقال: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ ص ٥٩، فهذا حكم المجادلة فيما هم فيه من الخصومات والعداوات فى الدين.

والله أسأل أن يجمعنا على الحق، وأن يهدينا هداية نتحقق بها بقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ الحجر ٤٧، إنه مجيب الدعاء، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والله أعلم.

متى تحصل السعادة الحقيقية للإخوان

كل مجتمع من إخواننا فى قرية أو مدينة أو أمة تحصل لهم حقيقة السعادة فى الدنيا والآخرة إذا جملهم الله بأربع خصال:

١ أن يكون لكل واحد عقل موهوب يعرف به القبيح فينزجر عنه، ويعرف الجميل شرعاً فيسارع إليه ويأمر به.

٢ أن تكون لهم فى رسول الله أسوة حسنة، فيقتدون به ﷺ فى أعماله وأقواله وأحواله وأخلاقه صلوات الله وسلامه عليه، مع المحافظة الشديدة على سُنته ﷺ، بحيث لا يخالفون سُنته ﷺ فى سر ولا جهر ما استطاعوا.

٣ أن يكون لهم فى كل يوم مجلس لدراسة الأحكام الواجبة عليهم فى الدين، ومذاكرة الوصايا والمواعظ الشرعية، مع قيام كل واحد بمفرده بتلاوة ما تيسر من القرآن ترتيلاً بتفكر وتدبر ومراقبة.

٤ أن يكون على كل جماعة منهم أخ مقدم من فضلائهم فى معرفة أسرار السُنة وفقه أحكامها، يرأسهم ليكون إماماً لهم يأمرهم بالعمل بالسُنة ويحثهم على حفظها والمحافظة عليها، وينهاهم ويزجرهم عن مخالفتها، ويقهرهم على ملازمتها إذا أرادوا تغييرها أو أى عمل يغير حكمها ولو فى صغير الأمر.

إذا مَنَّ الله على كل جماعة من إخواننا بتلك المنن كانوا – على حسن ظنى بالله – من المعنيين – والله تعالى أعلم – بقوله سبحانه: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ القصص ٥، وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ النور ٥٥.

أسأل الله تعالى أن يمن علينا باليقين الحق، ويجعل لنا منه سُلطاناً نصيراً، إنه مجيب الدعاء، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المحسن هو من سبقت له الحسنى

إن الله تعالى خلق الخلق، وفطرهم بما أودعه فيهم من نور الفكر والقوة العاقلة على حقيقة التوحيد، والميل إلى الدين، والشعور بواجب الوجود، والالتجاء إلى جنابه العلى عند الضرورات.

ولو وجد إنسان منفرد فى غيضة لم يحط به أناسى يفسدون فطرته، لكان بوجدانه يشعر بقوة قادر أوجده وأعد له ما لابد له منه وأكمل، فإذا دعاه داع إلى التوحيد بحججه الظاهرة الجلية لأجاب بتسليم ويقين وإقبال، لأن لوح القلب صالح لأن تسطر فيه آيات التوحيد، والعقل الإنسانى قابل بحقيقته أن يصدق بالتوحيد لما فطر عليه.

ولما كانت الفطرة السليمة قابلة للتوحيد مستعدة له، وإنما يقفل القلب بقفل الغفلة، والتأثيرات الخارجية من المعدات المحيطة بالإنسان من الناس واللوازم والبواعث للأهواء والحظوظ، فالعبد الذى سبقت له الحسنى أمده الله تعالى بما يعينه من أهل وإخوان، وأمده سبحانه بحسن التسليم، وجذبه إليه بنور يقذفه فى قلبه، ويحفظه من الميل إلى دواعى الغرور وبواعث الحظوظ، حتى لا يزال فى مزيد من الإقبال وانشراح الصدر بالقربات، وطمأنينة القلب بحقيقة التوحيد والتصديق بما جاء به رسول الله ﷺ من الأحكام والأخبار بالغيبيات، حتى لو فرض أن الذى سبقت له الحسنى وجد بين أهل الغفلة والجهالة بل والكفر – لوجد من نفسه منافرة ومباينة لمجاوريه وأهله، ومال بفطرته إلى الحق وأهله، وقد يعيش محاطاً بشياطين الإنس والجن حتى يكاد أن يكون مثلهم عملاً وعلماً وعقيدة، ثم لا يلبث إلا ريثما يسمع كلمة حكمة ودليل توحيد وخبراً عن عمل الخير، حتى يميل بكليته ويميل بجميعه إلى الحق، إجابة لداعى فطرته وتلبية لمنادى قلبه، فكانت الحكمة كمفتاح فتح قفل القلب، وأزال الغشاء عن العين فتنور القلب وفقه، وأبصرت العين وتدبر الإنسان، هذا كله لسابقة الحسنى والله ولى المؤمنين.

وهذا الذى جعل الشرع يوجب الخوف على المسلم، وعدم أمن جانب الله تعالى، ويمنع بل ويحرم القنوط من رحمته سبحانه، حتى أن الكامل من الأبدال كلما تقرب إلى الله تعالى

اشتد خوفه من لقائه، ومن خوف السابقة والخاتمة، أسأل الله تعالى أن يجعلنى وأهلى وإخوانى جميعاً ممن لهم الأمن وهم مهتدون.

أما من لم تسبق لهم الحسنى - والعياذ بالله تعالى - والله حكم عدل رءوف رحيم بعباده سبحانه وتعالى، فإنه سبحانه فطر الخلق على التوحيد، ثم وهبهم العقول والقلوب والأبصار والسمع، ثم أبدع الوجود دالاً على كمال القدرة وتوحيد الفاعل، فالكون حجة ناطقة للعقول، دالة للنفوس على المبدع الجميل اللطيف الودود، ولكن الله تعالى سبقت إرادته وقدرت مشيئته أن يجعل للجنة من يشاء من عباده، ويجعل من شاء للنار، فأقام من سبقت له الحسنى فيما أحب سبحانه، وأعانه بحيطة تعينه، وحبب إليه الجميل من الأعمال والأخلاق والأحوال والاعتقادات، فعاش سعيداً فى الدنيا وسعيداً فى الآخرة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِى مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَـٰلِدُونَ﴾ الأنبياء ١٠١-١٠٢.

ومن سبقت له السوء - والعياذ بالله تعالى - أقامه الله سبحانه فيما يكره، ومده بحيطة تعينه على ذلك، فألف القبيح من الأعمال والأخلاق والمعتقدات، حتى فارق الدنيا على هذا، فشقى شقاوة الأبد، أسأل الله تعالى أن يجعلنى وأهلى وإخوانى وأولادى والمسلمين ممن سبقت لهم الحسنى، إنه مجيب الدعاء آمين.

المعانى التى تصح بها إرادة المريد

إذا اتصف المريد بأربع صفات كان أهلاً أن يكاشف بالأسرار الربانية، ويمنح المواهب والعلوم اللدنية، وهى:

١ الإقرار باللسان.

٢ التصديق بالضمير.

٣ تصور الأمثال التى ضربت للبيان.

٤ دوام اجتهاده ونشاطه فى عمل القربات.

فمن كملت فيه تلك المعانى صحت بدايته، وأشرقت بأنوار القرب نهايته.

ومن نقصت منه معنى من تلك المعانى بأن أقر ولم يصدق، أو أقر وصدق ولم يتصور، أو أقر وصدق وتصور ولم يجاهد، فهى مراتب للجزاء والحساب لا للقرب من حضرة المنعم الوهاب، وبيان تلك المعانى سبق شرحه فيما تقدم من المواضيع:

عزمُ المريد جهادُ النفسِ بالعملِ ... وهمُّه حظوةٌ فى روضةِ الأملِ
يجاهدُ النفسَ بالأعمالَ يحبسها ... عن حظها خشية التغريرِ والزلل
يبيتُ يجهدها والخوفُ يوقعه ... لحملها وهى فى سهوٍ وفى ملل
حتى تلينَ على الأعمال راغمةً ... فتستلذُّ بعزمٍ صادقٍ وعلى
فتدخُل الحصنَ حصن الحفظِ عن زلل ... وتنهجَنْ بالرضا فى أقرب السبل
يرى المريدُ بلين النفس أن له ... نيل القبول بدا والنور منه جلى
يتيه بعد جهاد النفس مرتشفاً ... خمرَ الوصول بمعنى وهو منه خلى
تلك الرياضةُ يا مسكينُ غايتها ... ذل ومسكنة إن صح أنت ولى
هذا الجهادُ حصونٌ عن مخالفتى ... بظاهرِ الجسمِ من ظلم ومن علل
به تكون قريباً للوصول إلى ... فهمِ المعانى ومن الآثارِ والرسل
حتى تجاهدَ بالمعنى هواك وفى ... دور الجهادِ يُرى غيب بلا عمل
تخفى حقيقتُك الأولى التى ظهرت ... لعين رأسك بالأوهامِ والزلل
وتظهرنْ لك أسرارُ مقدسةُ ... بها تُحلى بأنوارٍ من الحلل
يغيبُ ما لاح والغيبُ العلىُّ يُرى ... بنورِ عينٍ أضاءت بالضيا الأزلى
وعندها أنت فى حصنِ الحصونِ على ... رفارفِ الحفظِ ملحوظاً بعين ولى
لا حول تشهده إلا بواهبه ... ولا قوى لك إلا منه فى العمل
تلك الرياضةُ تزكيةُ النفوس بها ... نيلُ الفلاح ونيلُ الوصلِ والأمل

* * *

مجاهدة النفس

ينبغى لكل مريد أولاً أن يبتدئ بإصلاح أخلاق نفسه وعاداته، فإذا عدلها واستوت فعند ذلك له أن يصلح غيره، قال عليه الصلاة والسلام: (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)، وقال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ المائدة ١٠٥.

ثم اعلم أن أكثر الناس قد تركوا وصية ربهم ونصيحة نبيهم، فيما أمرهم من إصلاح ذات بينهم، وما فيه نجاة نفوسهم من العذاب الأليم، بما رسمه لهم من التعاون والتعاضد والتناصر والتحابب والتودد والألفة فيما بينهم، واشتغلوا بما نهوا عنه من ذكر عيوب بعضهم بعضاً، وتشنعة بعضهم على بعض، وصاروا فرقاً ومذاهب وشيعاً، وتوقدت بينهم نيران العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، وذلك أنهم يعيب بعضهم بعضاً بحرقة قلوبهم وألم نفوسهم، وهم فى العذاب مشتركون أولهم مع أخرهم كما ذكر الله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَا﴾ الأعراف ٣٨، التى خالفتها، وقالوا ﴿لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾ ص ٥٩، ﴿رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ الأعراف ٣٨، يعنى من كان موافقاً لهم ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ السجدة ٢٠، لما تركتم وصية ربكم ونصيحة نبيكم وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَـٰهُمۡ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ النحل ١١٨، فكانوا هم الظالمين بتركهم الوصية.

السالكون طريقَ الخوفِ أبطالُ ... والواصلون بنور الفضل أبدالُ
للسالكين جهادٌ دائمٌ ولهم ... خوفٌ به عن سوى محبوبِهم مالوا
زهدوا ففازوا بتوفيقٍ وصح لهم ... لصدقِهم نورُ ما عملوا وما قالوا
هم فى جهادٍ وفى نسكٍ لأنهم ... على السوابقِ من هماتهم جالوا
سهروا الليالى فى ذكر يؤرقهم ... خوفُ الجلال فلما صابروا نالوا
نالوا الهدايةَ والإقبالَ فانشرحت ... صدورُهم لم يكن للقوم أثقال
خفوا فخافوا فكان الخوفُ داعيهم ... إلى الجنانِ وفى الجناتِ إقبال
والواصلون بفضل الله قَرَّبَهم ... به إليه وللأبدالِ أحوال
أنسوا به حيث كانوا فى معيته ... لم تُلههم جنةٌ نفساً ولا مال
رأوا جمالاً عليّاً عن منازلةٍ ... يخفى على العقلِ والتوضيحُ إجمال

المشاكلة هى القرابة

قد يكون الإنسان كاملاً فى الشكل، يحكم عليه من نظر إليه بأنه إنسان لخفاء معانيه عن الناظر، وقد تكون حقيقته أنه جماد أو بهيم أو إنسان كامل، أو شبيه بالأنبياء والرسل والملائكة بحسب ما تجمل به من المعانى، ولا يعلم ذلك جلياً إلا الذى أوجده وأمده، ومن وهبه الله نوراً يعرف به مراتب النفوس وموازينها ونفس الإنسان، فإذا كان من المؤهلين للسعادة جاهد نفسه فى نوال الكمالات، التى يكون بها مشابهاً ومشاكلاً لأهل المراتب العلية من أهل النفوس الطاهرة الزكية، ولا تكون المجاهدة إلا بتلقى العلوم النافعة، ومعرفة الأخلاق الطاهرة، التى كان عليها سيدنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ، حتى تحصل المشابهة، فإذا كملت المشابهة ثبت النسب وصحت الوراثة، وكان الإنسان قريباً لمن تشبه به قرابة نسب وولاية اقتراب، وإذا حصل النسب وثبتت القرابة نما الحب للمحبوب، وتعين المقصد والمطلوب، ووافت العناية بالوسيلة التى بها الوصول والقبول، ومن لم يكن كاملاً فى المشابهة فهو بعيد غريب وإن كان حاضراً قريباً.

فعلى من يريد الوصول أن يتجمل بمعانى المقصود، ويبحث عما يحبه ويرضاه مما أمر به ورغب فيه، فيسارع إليه فانياً عمن سواه، مبتغياً فضله ورضاه، ليفوز بمطلوبه ويحظى بمحبوبه، والله أسأل أن يخلقنا بأخلاق حبيبه ومصطفاه، وأن يعيننا على اتباع هديه ويمن علينا برضاه آمين.

نسبان نسبُ حقيقتى ومقامى ... ثم انتسابى للمقام السامى
فالأولُ التوفيقُ للعمل الذى ... هو شكرُ نعمةِ موجب إكرامى
حُلل بها أنا عبدُه متحققُ ... بالذل والتكليف بالإسلام
لأقومَ بالطاعاتِ مفتقراً إلى ... نيل القبولِ بصحةِ الإحرام
نسبُ العبادةِ للقريبِ تقربى ... لحظيرةِ الرضوانِ والإنعام
وبها أكون أنا العُبَيد لخالقى ... عند الصلاةِ لذاته وصيامى
أما انتسابى للمقام تَخَلُّقى ... بجماله السامى بنص كلام
نسبُ به كشف الغيوبِ لواصلٍ ... وتحققُ بالكشفِ لا الأوهام

عجب السالكين

السالك الصادق فى بدايته، المسترشد بصحة إرادته، المصاحب للعارفين، المتبع سبيل أهل اليقين، له عثرات وزلات ربما أوقفته عن السير، وحجبته عن الترقى فى مقامات العلم والمعرفة والحال.

وذلك أن أهل التمكين ورجال مشاهدة عين اليقين، صغرت فى عيون قلوبهم الدنيا وزينتها، وإقبال الناس عليهم، وعظم الحق فى قلوبهم، وقويت الرغبة فى جنابه العلىِّ، حتى لم يبق لهم رغبة فى سواه، واشتاقت أرواحهم إلى القرب من حضرته، ورؤية جماله العلىِّ ووجهه الكريم، ومالوا بكليتهم عن زهرة الدنيا شوقاً إلى نعيم الآخرة، ومعيتهم للنبيين والصديقين والشهداء.

ومن أحوالهم أن أعمالهم الحقيقية قلبية أكثر من كونها بدنية، فلا يلتفتون لتعظيم الناس لهم ولا لاجتماعهم عليهم، ولو بذلوا أنفسهم وأموالهم لهم، لأنهم مشغولون بمواجهة الوجه الجميل العلىِّ، أغنياء بحسن اليقين والثقة بالله وكمال التوكل عليه، وعكوف الهمة على حضرته العلية، فهو لذلك لا يُخشى عليه ليقظة قلبه وحضور لبه ودوام معيته بربه.

فالسالك حقاً من أنزل نفسه منزلتها، ووقف عند قدره وقوف المؤدب، حتى يذوق حلاوة الإيمان ولذة التقوى، فيفنى عن كل حلاوة ولذة فى الدنيا، وإذا أهمل وتشبه بالمرشد ومالت نفسه أن يعمل له الناس ما يعملونه للمرشد، ومالت نفسه إلى ذلك، ولم يجاهد نفسه أن تجد وتسعى لتبلغ منازلة المرشد ومشاهده، فإنه إن أهمل فى هذا الجهاد وتابع نفسه، ورأى نفسه أهلاً للإكرام من إخوانه – ولو أنهم تلقوا عنه علوم المعرفة والأخلاق والتحقيق أو نالوا على يده أحوالاً حسنة وشمائل جميلة – وحسنت نفسه عنده، وظن أنه صار ممداً لغيره معلماً لغيره نافعاً، وغره حسن ما أنعم الله به عليه ونسى قدره، فإنه ربما حجب حجاباً أبعده أو أُبعد بُعداً قطعه.

فقد حصل الغرور لبعض المسترشدين بأحوال شريفة نالوها بصحبة الرجل، وعلوم

منحوها بسماع حكمه والتلقى عنه، وأسرار تلقوها منه، فبلغ بهم الجهل إلى أن كانوا إذا ذكرت علوم المرشد لديهم أشاروا أنهم هم الواسطة، ثم هم الباب الموصل ثم هم الممدون، استدراج من الله تعالى لهم، وحجاب قطيعة – نعوذ بالله تعالى – حتى بلغوا مبلغاً سعوا أن يستروا عن الناس أسرار المرشد، وينسوا الناس علومه وآدابه وأخلاقه. فعلى المريد الصادق أن يحافظ على الآداب، والمحافظة على منزلة المرشد ليرقى إلى مقام المقربين، والله ولى التوفيق.

المراقبة

المريد فى بدايته بعد صحة إرادته، وتحصيله على ما لابد له من العلوم النافعة، إذا أشرق عليه نور علم اليقين، وذاق حلاوة القربات ولذة الطاعات، حاسب نفسه على أنفاسه فيم صرفها، فإذا ظهر له رجحان الخير على الشر انبسط وفرح، ونما فى نفسه هذا الباعث حتى يقوى فيه، فيدفعه إلى المحافظة على الأنفاس أن تضيع، إلا فى قربة أو مكرمة من علم نافع أو عمل صالح، حتى يكون الخير أغلب عليه، والفلاح أقرب إليه، والإقبال على الأعمال الصالحة سروره، فيرى فى نومه صور إرادته فى يقظته، وفى يقظته حقائق رؤيته، فيكون هذا أول مقام من مقامات تزكية النفس، ومنزل من منازل الأُنس.

ولديها يقوى اليقين حتى يصير عيناً، وينتقل إلى المراقبة، وهو حضور القلب عند تجدد كل شأن لأعضائه العاملة من سمع وبصر وشم وذوق ولمس، وينفتق رتق القلب وتشرق عين السر، ويكون فى روض الفكر، فيشهد النعم المحيطة به والمنن التى فيه، فتصغر فى عينه أعماله ويستصغر شكره، ويطمئن قلبه بولى تولاه بآلائه ووده بنعمائه، فيطيب وقته ويصفو ويحلو حاله ويدوم أنسه، ويرتقى إلى حال البسط بما يتوالى عليه من البهجة وانشراح الصدر بالواردات التى ترد عليه من حضرة الملكوت، وما يذوقه بنور فكره من أسرار المعانى المشرقة فى المبانى المنبئة عن سر توحيد الأفعال، حتى يحيى قلبه بالملاحظة والاستحضار، فيطيب وقته ويأنس بالمراقبة من تنزلات معانى الجمال، ويستغرق فى تلك الملاحظة أوقاته وأنفاسه فلا يرى ولا يسمع ولا يشم ولا يمس ولا يذوق، إلا وهو مستحضر من تلك الشئون آيات

تجدد وجده وتيقظ قلبه، إلى أن تنكشف لسريرته أنوار ملكوت السماوات والأرض، فتنقلب الملاحظة والاستحضار إلى معاينة وشهود، وينتقل الحال إلى المقام، فيكون المشهود الأسرار والآيات، والملاحظ الآثار والمكونات، وعندها يتسع القلب وتكمل طهارة النفس، وتكون همه وبواعثه وانفعالاته وإرادته ملكوتية، ويتحصن بحصن ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ الحجر ٤٢.

وفى هذا المقام ينشط السالك لعمل القربات بلذة ورغبة وفرح وابتهاج، وتصغر فى عينه ملاذه الحيوانية وشهواته الآدمية وحظه وهواه الإنسانى، حتى تتبدل كل تلك الصفات بالمعانى الفاضلة الروحانية.

وفى هذا المقام تصح له الإرادة، وتتحقق منه الإنابة، ويتجمل بالإنابة إلى الرب والاستسلام له سبحانه، لأن كل تلك الجواذب والبواعث عن حيطة الفكر فى خلق السماوات والأرض، وارتشاف حميا التدبر، واستعمال الجوارح فيما خلقت له من الشكر بالعبادات والمعاملات والأخلاق بعد العلم بالعقيدة بساطع الحُجة وواضح البرهان.

ثم تشرق أنوار التوحيد من سر الواحد ونور الأحد بلا فكر ولا تدبر، ولكن بالإسلام لرب العالمين، والإنابة إليه من النفس والحظ والهوى، فإذا أشرقت تلك الأنوار على القلب المتسع بالاستسلام، تجمل باطنه بحقيقة اليقين، واشتاق بشديد الوله إلى معانى الصفات، ونما الوله حتى يبلغ درجه التأله، فتجلى له من أسرار التوحيد أنوار مواجهة العزة ومشاهد الجبروت، فينقبض القلب وينكسر ويخشع، وتحصل الرهبة والعظمة ليتحقق الخوف من العلى الكبير والخشية من الجليل العظيم، والحياء من القريب الجميل.

وفى هذا المقام يتحقق بكمال العبودة للذات، ويكون ذليلاً فى عينه وحقيراً فى نفسه، ولكنه مجمل بحُلل المهابة والعزة، يغضب لله ويرضى لله، طويل الفكر، ثغره باسم منكسر القلب حزين، وتقوى صدمات العظمة على قلبه، ومواجهات الجبروت للطائفه، حتى يكون بكله مع الله ولديها يكون الله عنده، وكشف تلك المعانى لا توضحه العبارة ولا تفى به الإشارة، إنما يُذاق لأهل الاستعداد فى مقام الاستسلام ومنزلة التفويض، وهذا مقام بداية المقربين،

والبرزخ بينهم وبين الأبرار، وإنما الأبرار عشاق نعم المنعم وجماله، والمقربون عشاق المنعم الجميل، وكل منعم بما له عشق أو بمن فيه تتيم وله أراد، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

وكل ذلك لا ينال إلا إذا وفق الله العبد لانتهاج مناهج رسوله ومصطفاه سيدنا ومولانا محمد ﷺ، أسأل الله تعالى أن يعيذنى من مخالفة سُنته وهديه، ويمنحنى الأخلاق والصدق فى معاملته سبحانه، ويجعلنى من المقربين المحبوبين لذاته بجاه نبيه ﷺ.

يراقبُ أحكامى ويحفظُ شِرْعَتى ... فتى سالكٌ يرجو وصالاً لوجهتى

يعاملُ خلقى بالذى قد شرعتهُ ... وبالفضل يستجدى جميل مودتى

ويعبدُنى بالصدق لا يرجو نعمةً ... من الخلق بل يرجو قبولى ونعمتى

وهذا سبيلُ السالكين وحالُهم ... مراقبةُ الأحكام رغبة جنتى

وبعد تمكنهم وحسن قبولهم ... وصدق عزيمتهم بحال البداية

يلوح عليهم من سما القرب بارقٌ ... بأسرارِ قدسٍ من رياض المعية

ووارد حق العين يأتيهم على ... براقٍ من الحسنى بفضل العناية

يراقبُ أهلُ العين آياتِ سِرِنا ... سرت فى جميع الكون من نور وحدة

مراقبة حال الصفا بشهادة ... بعين يقين أو بأنوار فكرة

بها الشوق للقدس العلى يقودُهم ... وللعالم الأعلى بعاملِ رغبة

فتشرق أرضُ السالكين تكرماً ... بنور من الرب القريب برأفة

وتشرق شمس الحق فيها مضيئة ... لأرجائها وتلوح أنجمُ وجهة

وهذى مراقبةُ القريب لربه ... وأهل التجلى والكرام الأحبة

ومن بعدها أهلُ المقام الذى علا ... مقام شهود الاصطفا والولاية

ومنزل أفراد دعاهم لذاته ... به أقبلوا فتقبلوا بالمودة

رأوه به وبذاتهم لا نورُه ... فشهدوا مجاليه بأجلى شهادة

به شغلوا عنهم ومن يك شغلهُ ... بمطلوبِه يحظى بنورِ الحظيرة

* * *

السماع

الحكمة الإلهية إما روحانية أو جسمانية.

فالحكمة الجسمانية نوعان: أحكام شرعية علمية عملية، وأحكام صحية تتعلق بدوام صحة الجسم وحفظ الصحة عليه، وهى الحكمة التى يجب التقليد فيها للأئمة الصادقين وللمجربين العالمين، ويجب تلقيها علماً وشهودها عملاً، والسماع فيها واجب شرعاً، لأن تعليمها فرض عين فى أحكام الشرع فى أصول الدين وفروعه، التى لابد منها عند وجوبها على العامل، والتوسع فى جميع الأصول والفروع فرض كفاية على الأمة.

والحكمة الروحانية نوعان: الأول: عقائد لابد منها للمسلم إجمالاً، وأخلاق لابد منها لحسن المعاملة الضرورية.

الثانى: تفصيل العقيدة، وعلم ما يمكن أن يتلقاه المؤمن الكامل الإيمان من أسرار الحكمة الإلهية من الكمالات الذاتية، والجمالات والجلالات، وسر تصريف القدرة وعجائب تجليها وكشف غوامض الحكمة وشهود معانيها، وعلم النفس وأنواعها وأمراضها ودوائها وتصفيتها من الحظوظ والأهواء، وعلم أسرار الكائنات ومراتبها، وذوق أسرار التجلى، والتنزيه والتشبيه، والتدلى والدنو والنزول والمجلى، وغيب البطون وكشف الظهور، وما يناسب علوم اليقين من الحب والوجد والزهد، والتوكل والتفويض، والرغبة والرهبة، والخوف والخشية والطمع والرجاء، والفناء والبقاء، والجمع والفرق، والعلم بالله والمعرفة، والكشف والشهود، وأسرار البرزخ والقيامة، والمعية والعندية، وما يلزم ذلك من أسرار الحكمة التى لا تتلقى بالعبارة ولا بالإشارة، والتشبه بالمعانى، والتخلق بالأخلاق الإلهية.

كل ذلك من الحكمة الروحانية التى لا ينبغى التقليد فيها إلا بعد إشراق أنوارها على القلب المطمئن، حتى تنبعث تلك الأنوار على جميع الأعضاء العاملة، فيقوم كل عضو بكمال وظيفته، ولديها يتلقى القلب عن الرب، فينجذب إلى عوالم الروحانيين، ويذوق من كل الموجودات ذوقاً روحانياً بحسب مأخذ كل عضو.

ولما كانت معانى الألوهية والكمالات الذاتية لا ظهور لها فى عالم الحس والخيال، كانت الحكمة الإلهية تتلقى بالسمع، وكلما كانت إشارة كلما صفت الروح وتقوت، وكان لها السلطان الأكبر على الإنسان فجذبته إليها، وتطهر من كل مقتضيات رتبته، وتسلى عن لوازم مكانته، واشتاق إلى عوالم الملكوت حتى يتم الشبه، ولديها يسكن إلى الله فيحركه الله، وهو الساكن المحرك، ويفنى فى الله فيبعثه الله، وهو الميت الحى، ويغيب عن نفسه بالله، فيظهره الله مجملاً لخلقه، ويعبد الله خالصاً، فيسخر له الله جميع خلقه.

وفى هذا المقام يكون السماع فرض عين على هذا الواجد، لأنه يسمع بسمع الروح ويفقه عن الله، وذلك لأن الحكمة الإلهية لما كانت ألفاظاً مقربة للمعانى، وكان مدلول الألفاظ محسوساً أو متخيلاً، ومعانى الربوبية فوق الحس والخيال، كانت الألفاظ المسموعة للمتمكن دالة على حقائق المعانى المرادة للحكيم بسماعها مزيد من الله لمن زكت نفسه وتهذبت.

ولذلك كان للوجود نغمات وللأوتار نغمات دالة على أسرار الحكمة تسكر بها الأرواح، ألم تر قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ الإسراء ٤٤، إن كل شئ دال على معانى الظاهر، مسبحاً جنابه العلى عن الإدراك بالتحديد سبحانه وتعالى.

الذكر مراقبة للمذكور ومجاهدة للنفس والهوى

المريد الصادق فى إرادته المتمكن فى حاله المتوسط فى سلوكه، إنسان جمع كل الحظوظ، وكملت معانى الآدمية فيه من الأمل وطوله، والهوى وعوامله، والحظ وبواعثه، والشهوة ولوازمها، حتى يكون مريداً حقاً مجاهداً فى سبيل الله.

ولكن تلك النفوس والقوى الحيوانية أو الرعونات النفسانية والأهواء الإبليسية – وإن كملت فيه وقويت شوكتها، وقامت قائمة سطوتها، واستعرت نار شرهها وملائمها – فإن معرفته بنفسه وعلمه بأنها تهوى ما يهلكها، وتتلذذ بما يبعدها، وتميل إلى ما يحجبها، وتحب ما يقطعها، وترغب فيما يؤلمها، وترى ذلك لذة وحظاً وخيراً وسعادة حقيقية محسوسة، تقوم بحرب عوان على تلك النفوس، وتجاهدها جهاداً حقيقياً بعين يقين وحقيقة تمكين، حتى تذلل

صعبها وتطهر لقسها وتزكى خبثها وتشفى مرضها، بجهاد أشد من جهاد العدو الألد.

فتكون النفس بين نزال وطراد وهجوم ومدافعة، حتى يجعل الله النور فى القلب، فيفتح مدن النفوس ويستولى عليها، ويولى الأعضاء الرئيسية على كل الأعضاء التى تحتها.

ويقوم الحكم على كل عضو بالحق، فيعاقب العضو المسئ أو الراغب فى الإساءة بعقوبة تناسبه من حرمان الملائم، حتى يزهد فيما مال إليه، أو بمفارقة المعتاد حتى يألف الجميل ويرغب فيه، أو يحبس النفس عن مشتهياته الحسية والمعنوية حتى يكبح جماحها، كل ذلك بالنية الحسنة الخالصة لله تعالى ولرسوله ﷺ، عبادة لله تعالى واقتداء برسوله ﷺ.

ولا ينفك المريد فى هذا الجهاد الأكبر بين صلح وإصلاح وخصومة، وحكم بين جميع قواه المختلفة، وعناصره المتباينة، وصفاته وأخلاقه المتضادة، وما يكتسبه بالمعاشرة والمعاينة لأهل الدنيا والجاه والحساد والفساق، ومن يحيط به من أهله وجيرانه.

وهذا هو الذكر الحقيقى، الذى به يكون مراقباً للمذكور سبحانه وتعالى، مجاهداً فى سبيله نفسه وهواه، وإنما يتحقق بالنية الخالصة، التى تجعله لا يتحرك إلا وله قصد فى عمل صالح، وتجمل بفعل جميل، وتخل عن وصف قبيح نهى الله تعالى عنه ورسوله ﷺ.

وهذا الذكر ذكر أهل المجاهدة، وبذلك يدوم للإنسان صفوه ويجمل حاله، ويكون على مزيد من ربه، ويكون عمله مقبولاً، وإن لم يعمل بالجوارح شيئاً، لأنه قد يكون عمله قلبياً، مجاهدة للمة النفوس أو رجوعاً عن عمل قبيح همت به نفسه، وهو فى هذا مكتوب عند الله من المجاهدين المخلصين، لأن الذى يقدر على جهاد نفسه يكون ولياً من أولياء الله تعالى.

وقد يجهل المريد فيفرح بعمل الجوارح، لأنه ظاهراً عمل خير، ويجتهد فيه بنشاط فيتعوده ويتلذذ به ويقدمه على جميع الأعمال، وقد يكون فى بداية العمل قصد به وجه الله تعالى والقربة إليه سبحانه، ثم يصير عادة للنفس، فيشغله عن واجب الوقت وفرض العين، وقد يكون العمل نفلاً فيقوى فى النفس، حتى يكون ألذ لها من كل الفرائض، مع غفلة قلبه عن النية، وقد يبلغ به التلذذ بالعمل إلى حد يرى غيره ممن لا يميل إلى عمله أو مشتهياته على

غير الحق، أو يراه ضالاً عن سبيل الحق، ويرتد بعد الإقبال بإخلاص إلى الاعتراض والانتقاد والجدل والحكم على أن عمله هو الحق، فيقع فى تقبيح أهل الحق، وتحسين عمله الذى هو نفل أو مستحب أو مكروه أو غفلة لقلبه، فيكون من الغافلين، وهو يحسب أنه ذاكر حاضر وأنه ولى الله تعالى، حسنت له نفسه هواها فخلاها بل وأعانها، وكثير ممن لم يصحب أهل العلم والمعرفة يكون سيره وقوفاً، وعمله معصية، لأن صحبة العارفين تجدد للمريد فى كل نَفَس علماً بنفسه، وتبين له كل لحظة سبيلاً من سبل الله تعالى، فيكون على مزيد من ربه، وفى قرب واقتراب، وعلى حالة حسنة، وفى مقام أمين.

❊ ❊ ❊

الذكر

أنواع الذكر

١ ذكر القلب

يظهر من هذا أن الذكر هو حضور القلب ويقظته وحركته فى الفكر، فى تزكية النفس أو الاعتبار بالحوادث أو التأمل فى مصنوعات الله تعالى، مما فى السماوات والأرض من أسرار القدرة وغوامض الحكمة، وما فيه من عجائب القدرة، وما فى مراتب الوجود من النسب والارتباطات مما سخر له وقام لأجله، فسبحان البديع الذى أبدع كل شئ خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين، هذا هو الروض الزاهر اليانع، الذى يطيب فيه ذكر الذاكر وفكر الفاكر.

٢ ذكر اللسان

أما الذكر باللسان عندهم فهو النطق بالاسم المتجلى فى الآثار المشهودة، التى كوشف بها بنور المعرفة، فينطق اللسان بهذا الاسم عن وجد وذوق معانى تجلياته، وله فى كل مشهد اسم يذكر عند حضور القلب، وقد ينطقون بالاسم المحيط الجامع - اسم الجلالة " الله " — عن الاستغراق فى شهود معانى جميع الأسماء فى أنفسهم وفى الملك والملكوت، فتطيب النفس وتزكو وتتجمل بجمال الأحوال، وتترقى إلى علِّ المقامات من القرب والحب والشوق والوله

والتأله، والخشية والرهبة والرغبة، وغير ذلك من مقامات اليقين، وهذا كله ذكر المجاهدين.

وهناك ذكر باللسان مع غفلة القلب عن ملاحظة تلك المعانى المتقدمة، وهو أن ينطق باسم من أسماء الله تعالى بلسانه فقط، وبه يكون الإنسان غافل القلب ذاكر اللسان؛ فإذا ترك النطق باللسان، كان غافل القلب واللسان، مبعوداً عن مواهب أهل الذكر، محروماً من الحضور والمشاهدات، وإن دام على ذلك اسود قلبه فحجبه عن ربه، وربما نسى يوم الحساب فارتكب المعاصى، وهجم عليه الموت فى غفلته فمات – والعياذ بالله – على حاله إن لم تتداركه رحمة الله، خرج كافراً من الدنيا فخلد فى النار.

نعوذ بالله من الغفلة عن ذكر الله، ومن نسيان يوم الحساب، ومن الطمع فيما يفنى، والاشتغال فيما يزول، وأسأله سبحانه وتعالى أن يمنحنى مواهب الذكر الأكبر، وجمال الرضوان الأكبر، ويكرمنى برشف طهور المقربين، ويجملنى بجمال المحبوبين، إنه فاعل مختار بيده الخير وهو على كل شئ قدير، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الرابع

الفصل الأول

أركان الإسلام وأركان الإيمان

الإسلام والإيمان

قبل أن نتكلم فى هذا الموضوع، أقدم هذا الحديث الشريف الذى ورد فى وصف العلماء بالسُّنة ومدحهم، قال ﷺ: (يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين) ومعنى ذلك - والله أعلم - أن الغالين هم المجاوزون للسنن، والمبطلون هم المدعون بالرأى والقياس، والجاهلون هم أدعياء الطريق الشاطحون الذين لا علم لهم ولا عقل، من الضلال الذين يدعون أنهم من أهل التصوف وليسوا منهم، وقوله ﷺ وعدول كل خلف: أهل العلم بالله اتباع السُّنة الصالحة وورثة الرسل عليهم الصلاة والسلام، الذين لم يبتدعوا فى الدين ولم يتخذوا وليجة دون طريق المؤمنين، دليل ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ المائدة ٣، التى نزلت فى حجة الوداع.

إذا تقرر هذا الحديث الشريف ووضحت معانيه، فالأولى لنا الأخذ بما كان عليه السلف الصالح، وهو أن نعتقد أن الإيمان والإسلام شئ واحد لا تضاد بينهما، كل منهما جزء متمم للآخر لا يتحقق أحدهما إلا بالآخر، وذلك ظاهر من صريح القرآن الشريف والسُّنة الصحيحة، وأخبار السلف رضوان الله عنهم.

ومن تأمل فى هذا الموضوع يظهر له أن سبب الخلاف الذى حصل فى الصدر الأول بعد رسول الله ﷺ - والذى بنى عليه الفرق المختلفة اختلافهم، وكَفَّر بعضهم بعضاً، وقاتل بعضهم بعضاً - إنما هو ناتج من التفرقة بين الإسلام والإيمان، واعتقاد التضاد بينهما، والنجاة فى اعتقاد أنهما واحد.

وما ورد عن بعض أهل الحديث أنهم فرقوا بين الإسلام والإيمان، كقول الزهرى: الإسلام الكلمة والإيمان العمل. وقول عبد الرحمن بن مهدى – وقد سئل عن الإسلام والإيمان – قال: هما شيئان. وقول حماد: الإسلام عام والإيمان خاص.

فإن تلك الأقاويل دليل لما قلنا وشاهد عليه، لأنهم لم يفرقوا بين الإسلام والإيمان تفرقة اختلاف، ولم يريدوا أن أحدهما يوجد ويصح بعدم الآخر كقول المرجئة، وإنما فرقوا بينهما تفريق تفاوت وتخصيص، أى أن الإيمان أخص وأعلى، لأن الزيادة والنقصان فيه، والفضائل والكمالات والمقامات عنه، وأن الإسلام عام لا يخرج منه إلا الكافرون بالله، فهذا مراد من فرق بين الإسلام والإيمان.

وفى الخبر أن النبى ﷺ سئل: أى الإيمان أفضل؟ قال: (الإسلام) قيل: فأى الإسلام خير؟ قال: (الإيمان) وهذا هو مذهب السلف الذى يرد على الفرق المخالفة، والله أسأل أن يجعلنا من المحافظين على السُّنة العاملين بها، إنه مجيب الدعاء.

أركان الإسلام

إذا تقرر ذلك فأذكر لك – أيها المريد الصالح – أركان الإسلام والإيمان مفصلة كما كان عليه السلف الصالح من أئمة الهدى الراشدين المرشدين، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ﴾ الأعراف ١٧٢، وقال عز وجل: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ المائدة ٧، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ الحديد ٨، فمبانى الإسلام خمسة:

١ أولها شهادة أن لا إله إلا الله وحده وأن محمداً ﷺ عبده ورسوله، وهما كواحدة لاتصال إحديها بالأخرى فى الوجوب والحكم.

٢ وإقام الصلوات الخمس، وهن كواحدة منها لتعلق كل واحدة بصاحبتها.

٣ وإيتاء الزكاة، وهى كالصلاة لاقترانها بها، والاشتراط بها.

٤ وصوم رمضان.

٥ وحج البيت، وهما كشئ واحد فى الفرض.

فهذه الخمس كواحدة منهن فى إيجاب العقد واعتقاد الوجوب، وإن اختلف الحكم فى سقوط فعل بعضها بشرط.

روينا عن رسول الله ﷺ أنه قال: (بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم شهر رمضان، وحج البيت).

أركان الإيمان

أركان الإيمان سبعة:

الإيمان بأسماء الله وصفاته.

والإيمان بكتب الله تعالى وأنبيائه.

والإيمان بالملائكة والشياطين.

والإيمان بالجنة والنار وأنهما قد خلقتا قبل آدم ﷺ.

والإيمان بالبعث بعد الموت.

والإيمان بجميع أقدار الله خيرها وشرها وحلوها ومرها، أنها من الله تعالى قضاء وقدراً أو مشيئة وحكماً، وأن ذلك عدل منه وحكمة بالغة استأثر بعلم غيبها ومعنى حقائقها، لا يسئل عما يفعل، ولا تضرب له الأمثال بملزمات العقول وتمثيلات المعقول، تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وقد شهد الله سبحانه وتعالى بالضلالة على من ضرب لعبده الأمثال فقال تعالى وجل:

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّوا﴾ الإسراء ٤٨، فكيف بمن ضرب المثل للسيد الأجل بعد نهيه عن ذلك وإخباره بعلم غيب ذلك، إذ يقول: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ النحل ٧٤.

والإيمان بما صح من حديث رسول الله ﷺ وقبول جميعه وافتراض طاعته وأمره على العباد والتزام ذلك، إذ قد جعل الله تعالى طاعة رسول الله ﷺ من شرط الإيمان، وقرنها بطاعته فقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ الأنفال ١، واشترط للرحمة طاعة الرسول كما اشترط لها تقواه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ النور ٥٦، وحذر من مخالفة أمر رسول الله ﷺ وأقامه فى الاستجابة له مقامه، وجعله فى المبالغة فى الوصف والمدح بدلاً عنه فقال تعالى: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ النور ٦٣، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ آل عمران ٢٨، وقال تعالى: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ الأنفال ٢٤، لأنه قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ الفتح ١٠، وهذه أمدح آية فى كتاب الله تعالى، وأبلغ فضيلة فيه لرسول الله ﷺ، لأنه جعله فى اللفظ بدلاً عنه، وفى الحكم مقامه، ولم يدخل بينه وبينه كاف التشبيه: كأنما، ولا لام الملك، فيقول: لله تعالى، وليس هذا المقام من الربوبية لخلق غير رسول الله ﷺ.

هذا ما كان عليه السلف الصالح رضى الله عنهم أجمعين، وهو النور الذى اهتدى به الخلف من تابعيهم.

أركان الإسلام

معلوم من الدين بالضرورة أن أركان الإسلام الخمسة لا يتحقق إسلام مسلم وإيمانه إلا بالقيام بها على حقيقتها، والعمل بها على وجهها الذى تصح به وتقبل، ولما كانت تلك الأركان هى كلمة الشهادتين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، وكانت تلك الأركان - وإن تعددت - فإنما هى تومئ إلى معنى واحد لا يصح إلا بها، ولا يتحقق إلا بها، فهى الإيمان وهى الإسلام، وإن كان يراد بالإيمان ما هو أخص من الإسلام، فإن الإيمان هو عمل القلوب، سواء كان فى العقيدة أو فى النيات والإخلاص والصدق

والخوف والرغبة والرهبة والخشية، فإن الأعمال البدنية التى يسميها بعضهم إسلاماً لا تتحقق إلا بعمل القلوب، فالإسلام والإيمان وإن اختلف معناهما فهما شئ واحد، فمن تهاون بركن من الأركان مستحلاً لذلك فهو كافر بالإجماع.

الركن الأول

الشهادتان

ولما كانت كلمة الشهادتين هى أصل الدين، والباب الذى يدخل به الإنسان إلى التحقق بوصف المسلمين، وكانت هى حقيقة العقيدة وكنز الأسماء والأوصاف الإلهية، فقد بينا العقيدة وما كان عليه السلف الصالح من فهم كلمة الشهادتين وفضائلها فى كتاب " أصول الوصول" بتفصيل لا يحتاج إلى مزيد بالعبارة، ولكن يكون مزيده بالمواهب الربانية والمنن الإلهية التى يواجه الله تعالى بها من تحقق باليقين الحق أو بعين اليقين فى تلك المشاهد قال تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ المجادلة ١١، وقال تعالى: ﴿وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا﴾ المدثر ٣١، وقال الله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗى﴾ مريم ٧٦، وكان هذا الكتاب إنما وضعته للسالكين المخلصين المستبصرين، الذين حصلوا الأصول الواجبة عليهم، وكان المزيد من الله تعالى الذى هو المواجهة والمنازلة ومشاهدة الآيات والإشراف على الملكوت، من الأمور التى لا يصح رسمها فى كتاب حتى يمن الله بها على السالك المخلص، خصوصاً من مشاهد التوحيد وأسرار التنزيه والتفريد، وأنوار الأحدية وغيوب الهوية، قال الله تعالى: ﴿يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ آل عمران ٧٤، فعلى من يريد الاطلاع على تفصيل ما انطوى فى كلمة الشهادتين، أن يرجع إلى كتاب " أصول الوصول" ومن أراد المزيد فليراجع تلك الإشارات فى كتاب " شراب الأرواح" والله سبحانه وتعالى أسأل أن يجعلنا من أهل الحسنى وزيادة، وأن يمنحنا الإخلاص لذاته العلية، والصدق فى معاملته بجاه حبيبه المصطفى ﷺ.

* * *

الصلاة والزكاة والصيام والحج

لما كانت تلك الأركان تتعلق بها علوم كثيرة، كعلم شروط وجوبها وصحتها، وعلم تأديتها، وعلم معرفة تمييز فرائضها وسننها، وعلم مواقيتها ومقاديرها وهيئاتها، وعلم مفسداتها، وما يجب على العامل إذا فسد عمله من قضاء أو جبر للعمل، وكانت كل تلك العلوم واجبة على كل مسلم أن يحصلها عند وجوب العمل عليه أو قبله، حتى يستعد للقيام بالعمل فى وقته، وقد بينت أحكام تلك الأركان الأربعة بأسلوب يسهل على المبتدئ فهمه، ويحتاج المنتهى فى العلوم إليه فى كتاب " أصول الوصول" لذلك لا أرى لزوماً لتكرارها فى هذا المختصر، لأن هذا الكتاب مرتب على الكتب التى قبله.

ولكن لابد من ذكر طريقة السلف الصالح فى تأدية تلك الأركان وذكر فضائلها، ومشاهد أهلها حال عملها، وآدابهم حال الملابسة بها، ليكون ذلك حثاً لهم مريدى طريق الله تعالى، وتذكرة لأهل الإخلاص المشاهدين، ودرساً مفيداً لإخواننا المسترشدين، وضوابط نافعة للمرشدين، متحرياً فى ذلك حقيقة السُنة وعمل الأئمة من الخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين لهم بإحسان على أنى أنبه المطلع على تلك الفضائل أن يجاهد نفسه بقدر الاستطاعة على أن يتحقق بها ولا يرى أن ذلك أمر مستحيل فإن الله لا يضيع أجر المحسنين وليشكر الله على ما وهب له من التوفيق للعمل ويسأله المزيد ويديم المجاهدة حتى يمنحه الله مواهب الصديقين والشهداء الذين شهدوا بما شهد الله سبحانه به وشهدت به ملائكته ورسله عليهم الصلاة والسلام ولا يتصور أن تلك المواهب خاصة لا ينالها إلا قوم مخصوصون فتقف همته عن طلبها ويستصغر نفسه عن التشوف لها فإن كل مؤمن بالله سبحانه وبما جاء به رسول الله ﷺ عامل بالسُنة مؤهل أن ينال فضل الله بفضله سبحانه ولو نظر السالك إلى أن هذا فضل العظيم مَنَّ الله به على كثير ممن ليسوا بعرب وليسوا من قريش وليسوا من بنى هاشم وتحقق أنه فضل بدايته التسليم والتوفيق ووسطه الاخلاص والصدق بعناية الله تعالى ونهايته الفضل العظيم من الله تعالى، فانهض يا أخى أذاقك الله حلاوة التوحيد ونعمك بمشاهد أهل اليقين، وجاهد نفسك متشبهاً بأهل القرب عاملاً بأعمال الصديقين، لتشرق عليك أنوار المحبة وتجمل بحُلل العناية من الله تعالى ﴿ذَٰلِكَ

﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ الحديد ٢١، وصلى الله على سيدنا محمد، شمس هذا الأفق المبين، وروح هياكل المقربين، ونور قلوب العارفين وآله وصحبه وسلم.

الركن الثانى

الصلاة

الصلاة عماد الدين، والشكر بجميع الجوارح لرب العالمين، ومناجاة الله تعالى بكلامه العزيز، بها يتجمل العبد بأجمل حلله التى بها يجمله ربه ويحبه ويقبل عليه، وما يتعلق بها من الأحكام والشروط والوسائل التى لا تصح ولا تقبل إلا بها، وبيان هيئاتها وأوقاتها، تقدم ذكرها فى كتاب " أصول الوصول" مستوفاة كل حكم بمأخذه من السُنة العملية والقولية والكتاب العزيز.

فضائل الصلاة وآدابها

وأريد بعون الله وحسن توفيقه أن أبين هنا فضائلها وآدابها، وفضائل المصلين ومشاهد أهل اليقين فيها، فأقول والله وليى وحسبى ونعم الوكيل:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ طه ١٤، وقال تعالى:﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ الأعراف ٢٠٥، وقال تعالى: ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ النساء ٤٣، قيل: سكارى من حب الدنيا. وقيل: من الاهتمام بها. وقال جل ثناؤه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ المعارج ٣٢، وقال النبى ﷺ: (من صلى ركعتين لم يحدث نفسه فيهما بشئ من الدنيا، غفر له ما تقدم من ذنبه)، وقال ﷺ: (إنما الصلاة تمسكن وتواضع وتضرع وتباؤس وتنادم، وترفع يديك وتقول: اللهم، فمن لم يفعل فهى خداج – أى ناقصة). روينا عن الله سبحانه وتعالى فى الكتب السالفة أنه قال: (ليس كل مصل أتقبل صلاته، إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتى ولم يتكبر علىَّ، وأطعم الفقير الجائع لوجهى).

فمن الإقبال على الصلاة أن لا تعرف من على يمينك ولا من على شمالك، من حسن

القيام بين يدى القائم على كل نَفْس بما كسبت، وكذلك فسروا قوله تعالى: ﴿هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ﴾ المؤمنون ٢، وقال سعيد بن جبريل: ما عرفت من على يمينى، ولا من على شمالى فى الصلاة منذ أربعين سنة، منذ سمعت ابن عباس يقول: الخشوع فى الصلاة أن لا يعرف المصلى من على يمينه وعن شماله.

وروينا عن بشر بن الحرث قال: قال سفيان: من لم يخشع فسدت صلاته.

وروينا عن معاذ بن جبل: من عرف من عن يمينه وشماله فى الصلاة متعمداً فلا صلاة له، وقد أسنده إسماعيل بن أبى زياد عن بشر بن الحرث وغيره.

وعن الثورى أيضاً: من قرأ كلمة مكتوبة فى حائط أو بساط فى صلاته فصلاته باطلة، وقال بشر: يعنى بذلك لأنه عمل فى الصلاة.

ومن الدوام فى الصلاة السكون فيها، وعلى ذلك فسر قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ المعارج ٢٣، قيل: هو السكون والطمأنينة فى الصلاة من قولك: ماء دائم، إذا سكن.

وقال بعض الصحابة: يحشر الناس يوم القيامة على مثال هيئاتهم فى الصلاة من الطمأنينة والهدوء.

ومن وجود النعيم بها واللذة، إصغاء القلب للفهم وخشوعه للتواضع، وسكون الجوارح للهيبة، ثم الترتيل فى القراءة والتدبر لمعانى الكلام، وحسن الافتقار إلى المتكلم فى الإفهام والإيقاف على المراد، وصدق الرغبة فى الطلب للاطلاع على المطلع من السر المكنون المستودع فى الكتاب، وإن مر بآية رحمة سأل ورغب، أو آية عذاب فزع واستعاذ، أو مر بتسبيح أو تعظيم حمد وسبح وعظم، فإن قال بلسانه فحسن، وإن أسره فى قلبه، ورفع به همه، ناب قصده عن المقال، وكان فقره غاية السؤال، وهذا أحد الوجهين فى قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ البقرة ١٢١، هكذا كان وصفهم فى التلاوة.

وينبغى أن يكون قلبه بوصف على ركن من أركان الصلاة، وهمه معلق بكل معنى من

معانى المناجاة، فإذا قال: الله أكبر أى: مما سواه، ولا يقال: أكبر من صغير، إنما يقال أكبر من كبير، فيقال: هذا كبير وهذا أكبر، فإن كان همه الملك الكبير كان ذكر الله أكبر فى قلبه، فليواطئ قلبه قول مولاه فى قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ العنكبوت ٤٥، ويواطئ لسانه قلبه فى مشاهدة الأكبر، فيكون يتلو وينظر، فإن الله تعالى قدم العين على اللسان فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ البلد ٨-٩، فلا يقدم لسانه ويؤخر بصره، ويكون عقده محققاً لمقاله بالوصف، حتى يكون عاملاً بما يقول فى الحال، فقد أخذ عليه ذلك لما أمر به حجة عليه وتنبيها له.

ولا يكون بقوله " الله أكبر " حاكياً ذلك عن قول غيره، ولا مخبراً به عن سواه، بل يكون هو المتحقق بالمعنى القائم بالشهادة، وهذا عند أهل المعرفة واجب، لأن الإيمان قول وعمل فى كل شئ، فإذا قلت: الله أكبر، فإن العمل بالقول أن يكون الله أكبر فى قلبك من كل شئ، وهو من رعاية العهد لتدخل تحت الثناء والمدح فى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ المؤمنون ٨، فالعهد ما أعطيت بلسانك، والرعاية الوفاء بالقلب، ليستحق الأجر العظيم كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ الفتح ١٠، ومن كان فى قلبه الملك الصغير الفانى أكبر من الملك الأكبر، فما عمل بقوله: الله أكبر، وليس هذا حقيقة الإيمان، لأنه لم يأت بعمل وقول، وإنما جاء بالقول.

وهذا قائم بنفس من مشاهدته الآخرة وكانت قرة عينه الآخرة كما قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ﴾ النحل ٩٦، يعنى الدنيا ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ النحل ٩٦، يعنى الآخرة، وقد قال ﷺ: (جعلت قرة عينى فى الصلاة)، لأنه كان عند ربه فجعل قرة عينه به، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ العنكبوت ٤٥، فالمذكور أكبر وأكبر.

وقد أخبر تعالى أن الصلاة أريد بها الذكر فى قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾، وروى معنى ذلك عن رسول الله ﷺ إنما فرضت الصلاة، وأمر بالحج والطواف، وأشعرت المناسك لإقامة ذكر الله، فإذا لم يكن فى قلبك للمذكور الذى هو المقصود والمبتغى عظمة ولا هيبة، فما قيمة ذكرك؟ وقال رسول الله ﷺ لأنس بن مالك: (وإذا صليتَ صلاةً فصل صلاة مودع

لنفسه، مودع لهواه، مودع لعمره، سائر إلى مولاه) كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا﴾ الانشقاق ٦، وكقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ البقرة ٢٢٣، وقال النبى ﷺ: (جعلت قرة عينى فى الصلاة)، وكان يرى الأكبر فتقر عينه به. وقال: (من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله إلا بعداً)، كما قال: (من لم يترك قول الزور والخيانة فليس لله تعالى حاجة فى أن يترك طعامه وشرابه)، فإنما المراد من الصلاة والصيام المخالفة من الآثام.

ومن إقامة الصلاة وإتمامها الوضوء لها قبل دخول وقتها، لئلا يشغله عن أول وقت غيرها، وينبغى أن يكون قلبه فى همه، وهمه مع ربه، وربه فى قلبه، فينظر إليه من كلامه، ويكلمه بخطابه، ويتملقه بمناجاته، ويعرفه من صفاته، فإن كان كلمة عن معنى اسم أو وصف أو خلق أو حكم أو إرادة أو فعل، لأن الكلم ينبئ عن الأوصاف، ويدل على الموصوف، وكل كلمة من الخطاب تتوجه عشر جهات، للعارف من كل جهة مقام ومشاهدات، أول الجهات الإيمان بها، والتسليم لها، والتوبة اليها، والصبر عليها، والرضا بها، والخوف منها، والرجاء لها، والشكر عليها، والمحبة لها، والتوكل فيها، فهذه المقامات العشرة هى مقامات اليقين، لأن الكلمة هى حق اليقين، وهذه المعانى كلها منطوية فى كل كلمة يشهدها أهل التملق والمناجاة، ويعرفها أهل العلم والحياة، لأن كلمة المحبوب حياة القلوب، لا ينذر به إلا حىٌّ، ولا يحيى به إلا مُستجيب، قال الله تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا﴾ يس ٦٩-٧٠، وقال سبحانه: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ الأنفال ٢٤.

ولا يشهد هذه العشر مشاهدات إلا من نقل فى العشر مقامات المذكورة فى الأحزاب، أولها مقام المسلمين وآخرها مقام الذاكرين، وبعد مقام الذكر هذه المشاهدات العشر، فعنده ألا يمل المناجاة لوجود المصافاة، ولا يثقل عليه القيام للذاذة والإفهام، ويسهل عليه الوقوف لدنو العطوف، ويتنعم بالعتاب بحلاوة الاقتراب، هنالك يندرج طول القيام فى التلاوة فلا يجده، كاندراج القبلة فى الصلاة فلا يشهدها، فيكون من ورائه القبلة وهو أمامها، كذلك القيام يحمله وهو مع حامله.

حدثت أن الموقن إذا توضأ للصلاة، تباعدت عنه الشياطين فى أقطار الأرضين خوفاً منه، لأنه يتأهب للدخول على الملك، فإذا كبَّر حجب عنه إبليس وضرب بينه وبينه سرادق لا ينظر اليه، وواجهه الجبار بوجهه، فإذا قال: الله أكبر، اطلع الملك فى قلبه، فإذا ليس فى قلبه أكبر من الله تعالى، فيقول: صدقت الله تعالى فى قلبك كما تقول، قال: فيتشعشع من قلبه نور يلحق بملكوت العرش، فيكشف له بذلك النور ملكوت السماوات والأرض، ويكتب له حشو ذلك النور حسنات.

قال: وإن الغافل الجاهل إذا قام للوضوء احتوشته الشياطين كما يتوحش الذباب على نقطة العسل، وإذا كَبَّر اطلع الملك فى قلبه، فإذا كل شئ فى قلبه أكبر من الله تعالى عنده، فيقول له: كذبت ليس الله فى قلبك كما تقول، قال: فيثور فى قلبه دخان يلحق بعنان السماء فيكون حجاباً لقلبه، قال: فيرد ذلك الحجاب صلاته ويلتقم الشيطان قلبه، فلا يزال ينفخ فيه وينفث ويوسوس إليه ويزين له حتى ينصرف من صلاته، ولا يعقل ما كان فيها، وقد جاء فى الخبر: لولا أن الشياطين يحومون حول قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات.

وروينا عن رسول الله ﷺ أنه رأى فى القبلة نخامة فغضب غضباً شديداً، ثم حكها بعرجون كان فى يده وقال: (ائتونى بعبير) فلطخ أثرها بزعفران، ثم التفت إلينا فقال: (أيكم يحب أن يبزق فى وجهه؟ فقلنا: لا أينا، قال: فإن أحدكم إذا دخل فى صلاته فإن الله عز وجل بينه وبين القبلة)، وفى لفظ آخر: (واجهه الله تعالى فلا يبزقن أحدكم تلقاء وجهه، ولا عن يمينه، ولكن عن شماله، أو تحت قدمه اليسرى، فإن بدرته بادرة فليبصق فى ثوبه وليقل به هكذا: ودَلَّكَ بعضه ببعض).

وقد روى: إذا قام العبد فى صلاته وقال: الله أكبر، قال الله لملائكته: ارفعوا الحجاب بينى وبين عبدى، فإذا التفت، يقول الله تعالى: عبدى إلى من تلتفت، أنا خير لك ممن تلتفت إليه، ثم إذا قام المقبل على صلاته شهد قلبه قيامه لرب العالمين فى يوم كان مقداره خمسين الف سنة، ثم شهد وقوفه بالحضرة بين يدى الملك الجبار، إذ ليس من الغافلين، فتأخذه غيبة الحضور، ويرهقه إجلال الحاضر، ويستولى عليه تعظيم القريب، ويجمعه خشية الرقيب، فإذا

تلا وقف همه مع المتكلم ماذا أراد، واشتغل قلبه بالفهم عنه والانبساط منه، فإن ركع وقف قلبه مع التعظيم للعظيم، فلا يكون فى قلبه أعظم من الله تعالى وحده، فإن رفع شهد الحمد للمحمود فوقف مع الشكر للودود، فاستوجب منه المزيد، وسكن قلبه بالرضا لأنه حقيقة الحمد، وإن سجد سما قلبه فى العلو فقرب منه الأعلى، لقوله تعالى: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾ العلق ١٩.

وأهل المشاهدة فى السجود على ثلاثة مقامات: منهم من إذا سجد كوشف بالجبروت الأعلى، فيعلو إلى القريب ويدنو من القريب، وهذا مقام المقربين من المحبوبين. ومنهم من إذا سجد كوشف بملكوت العزة، فيسجد على الثرى الأسفل عند وصف من أوصاف القادر الأجل فيكسر قلبه، ويخبت تواضعاً وذلاً للعزيز الأعلى، وهذا مقام الخائفين من العابدين. ومنهم من إذا سجد جال قلبه فى ملكوت السماوات والأرض، فآب بظرائف الفوائد وشهد غرائب الزوائد، وهذا مقام الصادقين من الطالبين.

وهناك قسم رابع لا يذكر بشئ ليس له وصف فيستحق المدح، وهم الذين يجول هممهم فى أعطية الملك وأنصبة المماليك، فهم محجوبون بالهمم الدنيئة عن المشهادة العلية، محجوبون بالهوى عن السياحة إلى الإعلام.

فإن دعا هذا المصلى نظر إلى المدعو فكان هو المرجو، فأخذ فى التمجيد والثناء والحمد والآلاء، ونسى حاجته من الدنيا، واشتغل عن نفسه بالمولى، وعن مسئلته بحسن الثناء.

وإن استغفر هذا الداعى تفكر فى أوصاف التوبة وأحكام التائب، وتفكر ما سلف من الذنوب فعمل فى تصفية الاستغفار، وإخلاص الإنابة والاعتذار، وجد وعقد الاستقامة فيكون له بهذا الاستغفار من الله عز وجل تحية وكرامة.

ففى مثل صلاة هذا العبد وردت الأخبار أن العبد إذا قام إلى الصلاة، رفع الحجاب بينه وبينه وواجهه بوجهه، وقامت الملائكة من لدن منكبيه إلى الهواء فيصلون بصلاته، ويؤمنون على دعائه، وأن المصلى لينثر عليه البر من عنان السماء إلى مفرق رأسه، ويناديه مناد لو

يعلم المناجى من يناجى ما خرج، وأن أبواب السماء تفتح للمصلين، وأن الله تعالى يباهى ملائكته بصفوف المصلين، وفى التوراة مكتوب: يا ابن آدم لا تعجز أن تقوم بين يدى مصلياً باكياً، فأنا الله تعالى الذى اقتربت من قلبك وبالغيب رأيت نورى.

قال: وكنا نرى أن تلك الرقة والبكاء، وتلك الفتوح التى يجدها المصلى فى قلبه من دنو الرب تبارك وتعالى من القلب.

وقال رجل للنبى ﷺ: ادع الله تعالى أن يرزقنى مرافقتك فى الجنة، فقال: (أعنى بكثرة السجود)، وروينا عن النبى ﷺ: (ما افترض الله على خلقه بعد التوحيد أحب إليه من الصلاة، ولو كان شئ أحب إليه من الصلاة لتعبد به ملائكته، منهم راكع وساجد وقائم وقاعد)، أو كما قال بعض العلماء: الصلاة خدمة الله عز وجل فى أرضه، وقال آخر: المصلون خدام الله عز وجل على بساطه.

ويقال: أن المصلين من الملائكة يسمون فى السماوات خُدام الرحمن، ويفخرون بذلك على سائر المرسلين من الملائكة.

ويقال: إن المؤمن إذا صلى ركعتين عجب منه عشر صفوف من الملائكة، كل صف منهم عشرة آلاف، وباهى الله تعالى به مائة الف ملك، وذلك أن العبد قد جمع فيه أركان الصلاة الأربعة من القيام والقعود والركوع والسجود وفرق ذلك على أربعين الف ملك، والقائمون لا يركعون إلى يوم القيامة، والساجدون لا يرفعون إلى يوم القيامة، وكذلك الراكعون والساجدون، ثم قد جمع الله له أركان الصلاة الستة، من والتلاوة والحمد والاستغفار والدعاء والصلاة على النبى ﷺ، وفرق ذلك على ستين الف ملك، لأن كل صف من الملائكة عبادته ذكر من الأذكار الستة، فإذا رأت الأملاك ما جمع فيه من الأركان الستة والأذكار فى ركعتين، عجبت منه وباهاهم الله تعالى به، لأنه قد فرق تلك الأعمال والأركان على مائة الف ملك، وبذلك فضل المؤمن على الملائكة، وكذلك فضل الموقن أيضاً فى مقامات اليقين من أعمال القلوب على الأملاك، بالتنقيل فى المقامات، بأن جمعت فيه ورفع منها.

والملائكة لا ينقلون، بل كل ملك موقوف فى مقام معلوم، لا ينقل عنه إلى غيره، مثل الشكر والخوف والرجاء والشوق والأنين والخشية والمحبة، بل كل ملك له مزيد وعلو من المقام الواحد على قدر قواه، وجمع ذلك كله فى قلب الموقن، قال الله تعالى: وهو أصدق القائلين فى صفات أوليائه المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ المؤمنون ١-٣، فمدحهم بالصلاة كما ذكرهم بالإيمان، ثم مدح صلاتهم بالخشوع، كما افتتح بالصلاة أوصافهم، ثم قال فى آخرها: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ المؤمنون ٩، فختم بها نعوتهم، وقال فى نعت عباده المصلين الذين استثناهم من الذين يجزعون من المصائب والفقر والمانعين للمال والخير: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ المعارج ٢٢-٢٣، ثم نسق النعوت وقال فى آخرها: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ المعارج ٣٤، فلولا أنها أحب الأعمال إليه، ما جعلها مفتاح صفات أحبائه وختامها، ولما وصفهم بالدوام والمحافظة عليها، ومدحهم بالخشوع فيها.

والخشوع هو انكسار القلب وإخباته وتواضعه وذلته، ثم لين الجانب وكف الجوارح، وحسن صمت وإقبال، والمداومة والمواظبة عليها، وسكون القلب والجوارح فيها.

والمحافظة هى حضور القلب وإصغاؤه، وصفاء الفهم وإفراده، من مراعاة الأوقات، وإكمال طهارة الأدوات.

ثم قال تعالى فى عاقبة المصلين: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ المؤمنون ١٠-١١، فجعل أول عطائهم الفلاح، وهو الظفر والبقاء، وآخره الفردوس هو خير المستقر والمأوى، وقال فى أضدادهم من أهل النار: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ المدثر ٤٢-٤٣، وقال موبخاً لآخر منهم: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ القيامة ٣١، ونهى رسول الله ﷺ عن طاعة من نهاه عن الصلاة، ثم أمره بها وأخبره أن فيها القرب والزلفى فى قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ العلق ٩-١٠، ثم قال: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ العلق ١٩، فالمصلون بقيته من خلقه، وورثة جنته من عباده، وأهل النجاة من دار غضبه وإبعاده، جعلنا الله منهم بعطفه ورحمته.

ذكر الحث على المحافظة على الصلاة وطريقة المصلين من الموقنين:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ الفتح ٢٩ الآية، فاختار لنفسه أصحابه صلوات الله عليه، ثم اختار لأصحابه الصلاة، فجعلها وصفهم فى الإنجيل والتوراة، فهذا يدل أن الصلاة أفضل الأعمال، لأن أصحاب رسول الله ﷺ أفضل العمال. وسُئل رسول الله ﷺ: أى الأعمال أفضل؟ قال: (الصلاة لمواقيتها) وعن عمر رضي الله عنه: إذا رأيت الرجل حافظاً لصلاته فظن به خيراً، وإذا رأيته مضيعاً لصلاته فهو لما سواها أضيع. وكان الحسن يقول: ابن آدم ماذا يعز عليك من دينك إذا هانت عليك صلاتك، فهو على الله تعالى أهون.

وعن رسول الله ﷺ: (الصلاة عماد الدين، من تركها فقد كفر)، وفى حديث آخر: (بين الكفر والإيمان ترك الصلاة) وفى الخبر: (من حافظ على الصلوات الخمس بإكمال طهورها ومواقيتها كانت له نوراً وبرهاناً يوم القيامة، ومن ضيعها حشره الله تعالى مع فرعون وهامان)، وفى تفسير قوله تعالى: ﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾ مريم ٨٧، قال: الصلوات الخمس.

وعن ابن مسعود وسلمان: الصلاة مكيال فمن أوفى وفى له، ومن طفف فقد علمتم ما قاله الله تعالى فى المطففين.

وفى الخبر: أسوأ الناس سرقة الذى يسرق من صلاته، فلا يتم ركوعها ولا سجودها.

وفى الخبر: إذا صلى العبد فى الملأ فأحسن، وأساء صلاته فى الخلا، فتلك استهانة يستهين بها بربه عز وجل.

وفى الخبر: إذا أحسن العبد صلاته فى العلانية وأحسنها فى السر، قال الله تعالى لملائكته: هذا عبدى حقاً.

وعن كعب وغيره: من قبلت صلاته قبلت أعماله كلها، ومن ردت عليه صلاته ردت عليه أعماله كلها.

ويقال من تقبلت منه الصلوات الخمس، وكملت بدون أن تلفق، أو يرقع بعضها من بعض، أو ترقع بغيرها من النوافل، اطلع على علم الأبدال، وكتب صديقاً.

وعلامة قبول الصلوات أن تنهاه فى تضاعيفها عن الفحشاء والمنكر، والفحشاء الكبائر، والمنكر ما أنكره العلماء، فمن انتهى رفعت صلاته إلى سدرة المنتهى، ومن تحرفته الأهواء فقد ردت صلاته لما غوى فهوى.

وقال مالك بن دينار وإبراهيم بن أدهم: إنى لأرى الرجل يسئ صلاته فأرحم عياله.

وقال الفضيل بن عياض: الفرائض رؤوس الأموال والنوافل الأرباح، ولا يصح ربح إلا بعد رأس المال.

وكان ابن عيينة يقول: إنما حرموا الوصول بتضييع الأصول، وقال على بن الحسين: من اهتم بالصلوات الخمس فى مواقيتها وإكمال طهورها لم يكن له فى الدنيا عيش.

وكان عليه السلام إذا توضأ للصلاة تغير لونه واصفر وأرعد، فقيل له فى ذلك فقال: (تدرون بين يدى من أريد أن أقف، وعلى من أدخل، ولمن أخاطب) وقال بعض العارفين: للصلاة أربع فرائض: إجلال المقام، وإخلاص النية، ويقين المقال، وتسليم الأمر.

وقال أبو الدرداء: خيار عباد الله الذين يراعون الشمس والقمر والأظلة لذكر الله تعالى.

وكان وكيع يقول: من لم يأخذ أهبة الصلاة قبل وقتها لم يحافظ عليها، ومن تهاون بتكبيرة الإحرام، فاغسل يدك منه.

وروينا فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ آل عمران ١٣٣، قال: تكبيرة الإحرام.

وفى حديث أبى كاهل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من صلى أربعين يوماً الصلوات فى جماعة لا يفوته منها تكبيرة الإحرام، كتب له براءتان، براءة من النفاق، وبراءة من النار).

وقال سعيد بن المسيب: منذ أربعين سنة ما فاتتنى تكبيرة الإحرام فى جماعة وكان يسمى: حمامة المسجد.

وقال عبد الرزاق: من عشرين سنة ما سمعت الآذان إلا فى المسجد.

ويقال: إنه إذا كان يوم القيامة أمر بطبقات المصلين إلى الجنة زمراً، قال: فتأتى أول زمرة كأن وجههم الكوكب الدرى فتستقبلهم الملائكة، فيقولون: من أنتم؟ فيقولون: نحن المصلون من أمة محمد ﷺ، فيقولون: ما كانت أعمالكم فى الدنيا؟ فيقولون: كنا إذا سمعنا الآذان قمنا إلى الطهارة لا يشغلنا غيرها، فتقول الملائكة: يحق لكم ذلك، ثم تأتى الزمرة الثانية فوق أولئك فى الحسن والجمال كأن وجوههم الأقمار، فتقول الملائكة: من أنتم؟ فيقولون: نحن المصلون، فيقولون: وما كانت صلاتكم؟ فيقولون: كنا نتوضأ للصلاة قبل دخول وقتها، فتقول الملائكة يحق لكم ذلك، ثم تأتى الزمرة الثالثة فوق هؤلاء فى المنزلة والجمال، كأن وجوههم الشمس الضاحية، فتقول الملائكة؟ أنتم أحسن وجوهاً وأعلى مقاماً، فما أنتم؟ فيقولون نحن المصلون، فيقولون: وما كانت صلاتكم؟ فيقولون: كنا نسمع الآذان فى المسجد فتقول الملائكة: يحق لكم ذلك.

وقال بعض العلماء رضى الله عنهم: سميت الصلاة صلاة، لأنها صلة بين العبد وبين الله عز وجل، ومواصلة من الله تعالى لعبده، ولا تكون المواصلة والنوال إلا لتقى، قال الله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُم﴾ الحج ٣٧، ولا يكون التقى إلا خاشعاً، فعندها لا يعظم عليه طول الوقوف، ولا يكثر عليه الانتهاء عن المنكر والائتمار بالمعروف كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ العنكبوت ٤٥، والخاشعون من المؤمنون هم الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر، والحافظون لحدود الله، جزاؤهم البشرى كما قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ البقرة ٢٢٣، والخاشعون أيضاً الخائفون الذاكرون الصابرون والمقيمون الصلاة، فإذا كملت هذه الأوصاف فيهم كانوا مخبتين، وقد قال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ الحج ٣٤.

وكان ابن مسعود إذا نظر إلى الربيع بن هيثم يقول: وبشر المخبتين، أما والله لو رآك محمد

ﷺ لفرح بك، وفى لفظ آخر: لأحبك. يقال: إنه كان يختلف إلى منزل ابن مسعود عشرين سنة، لا تحسب جارية ابن مسعود إلا أنه أعمى، لشدة غض بصره، وطول إطراقه إلى الأرض بنظره، وكان إذا دق الباب عليه تخرج إليه الجارية، فإذا رأته قالت لعبد الله: صديقك ذاك الأعمى قد جاءك، فكان ابن مسعود يضحك ويقول: ويحك ذاك الربيع.

ومشى ذات يوم مع ابن مسعود فى الحدادين، فلما نظر إلى الأكوار تنفخ، وإلى النيران تلتهب، صعق وسقط مغشياً عليه، وقعد ابن مسعود عند رأسه إلى وقت الصلاة فلم يفق، فحمله ابن مسعود على ظهره إلى منزله فلم يزل مغشياً عليه إلى الساعة التى صعق فيها، حتى فاتته خمس صلوات، وابن مسعود عند رأسه يقول: هذا والله الخوف، وكان هذا يقول: ما دخلت فى صلاة قط فأهمنى فيها إلا ما أقول وما يقال لى.

وقد كان عامر بن عبد الله من خاشعى المصلين، كان إذا صلى ضربت ابنته بالدف، وتحدث النساء بما يردن فى البيت، لم يكن يعقل ذلك ولا يسمعه.

وقيل له ذات يوم: هل تحدث نفسك فى الصلاة بشئ؟ قال: نعم بوقوفى بين يدى الله عز وجل، ومنصرفى إلى إحدى الدارين، قيل: فهل تجد شيئاً مما نجده من أمور الدنيا؟ فقال: لأن تختلف الأسنة فىَّ أحب إلى من أن أجد شيئاً فى الصلاة مما تجدون، وكان يقول: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً.

وقد كان مسلم بن يسار من الزاهدين العاملين، كان إذا دخل فى الصلاة يقول لأهله: تحدثوا بما تريدون، وأفشوا سركم فإنى لا أستمع إليكم. وكان يقول: وما يدريكم أين قلبى. وكان يصلى ذات يوم فى مسجد البصرة، فوقعت خلفه اسطوانة معقود بناؤها على أربع طاقات، فتسامع بها أهل السوق، فدخلوا المسجد وهو يصلى كأنه وتد، وما انتقل من صلاته، فلما فرغ جاءه الناس يهنونه فقال: أى شئ تهنونى؟ قالوا وقعت هذه الاسطوانة العظيمة وراءك فسلمت منها، قال: متى وقعت؟ قيل: وأنت تصلى، قال: ما شعرت بها.

وقال بعض المصلين: الصلاة من الآخرة، فإذا دخلت فى الصلاة خرجت من الدنيا.

وسئل بعضهم: هل تذكر فى صلاتك شيئاً؟ قال: وهل شئ أحب إلى من الصلاة فأذكره فيها؟ وكان أبو الدرداء يقول: من فقه الرجل أن يبدأ بحاجته قبل دخوله فى الصلاة ليدخل فى الصلاة وقلبه فارغ.

وفى الخبر: أن عمار بن ياسر صلى صلاة فخففها، فقيل له: خففت يا أبا اليقظان، فقال: هل رأيتمونى نقصت من حدودها شيئاً؟ قالوا: لا، قال: لأنى بادرت سهو الشيطان، إن رسول الله ﷺ قال: (إن العبد ليصلى الصلاة لا يكتب له ثلثها ولا نصفها ولا ربعها ولا خمسها ولا سدسها ولا عشرها) وكان يقول: (إنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها)، وقد ذكر هذا عبد الواحد بن زيد أنه إجماع، فروينا عنه أنه قال: أجمعت العلماء أنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل.

وقال الحسن: كل صلاة لا يحضرها قلبك فهى إلى العقوبة أسرع منها إلى الثواب.

ويقال: إن أصحاب رسول الله ﷺ - منهم الزبير وطلحة - كانوا أخف الناس صلاة، فسئلوا عن ذلك فقالوا: نبادر بها وسوسة العدو.

وروينا أن عمر رضى الله عنه قال على المنبر: إن الرجل ليشيب عارضاه فى الإسلام، وما أكمل لله تعالى صلاة، قيل: وكيف ذاك؟ قال: لا يتم خشوعها وتواضعها وإقباله على الله تعالى فيها.

وقال الله جل ذكره: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ النساء ٨٧، ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ النساء ٤٣، وقال رسول الله ﷺ: (من تشبعت به الهموم لم يبال الله تعالى فى أى أوديتها هلك).

وسُئل أبو العالية عن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ الماعون ٥، قال: هو الذى يسهو فى صلاته فلا يدرى على كم ينصرف على شفع أم على وتر.

وسُئل الحسن عن ذلك فقال: هو الذى يسهو عن وقت الصلاة حتى يخرج وقتها، وكان

يقول: أما والله لو تركوها لكفروا، ولكن سهوا عن الوقت.

وقال بعض السلف فيها: هو الذى إن صلاها فى أول الوقت أو الجماعة لم يفرح، وإن صلاها بعد الوقت لم يحزن، وقيل: هو الذى لا يرى تعجيلها براً ولا تأخيرها إثماً.

ويقال: إن الصلوات الخمس يلفق بعضها إلى بعض حتى يتم بها للعبد صلاة واحدة.

وقيل: من الناس من يصلى خمسين صلاة، فيكمل له بها خمس صلوات، وإن الله تعالى ليستوفى من العبد ما أمره، كما فرضه عليه، وإلا تممه من سائر أعماله النوافل، لأنه ما فرض على العبد إلا ما يطيقه بعونه، إذا لم يكلفه ما لا طاقة له به برحمته.

وروينا عن عيسى عليه السلام: يقول الله تعالى: بالفرائض نجا منى عبدى، وبالنوافل تقرب إلىَّ عبدى.

وقد جاء مثله عن نبينا ﷺ، يقول الله تعالى: (لا ينجو منى عبد إلا بأداء ما افترضته عليه).

وفى الخبر المفسر: أول ما يحاسب عليه العبد الصلاة، فإن وجدت كاملة، وإلا يقول الله تعالى: انظروا هل لعبدى نوافل فنتم فرائضه من نوافله، ثم يعمل بسائر الفرائض كذلك، يوفى كل فرض من جنسه من النفل، فإذا كانت النوافل فى السهو والتقصير كالفرائض، أو لم يوجد نوافل، فكيف يكون حاله فى الحساب؟

وكان ابن عباس يفسر قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ عبس ٢٣، قال: يعنى به الكافر، لأن عنده أن كل موضع فى القرآن يذكر به الإنسان خاصة أنه يعنى به الكافر.

وقد قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ البقرة ٢٨٦، يعنى طاقتها، وقال سبحانه وتعالى مخبراً عن المؤمنين: ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ البقرة ٢٨٦، فى التفسير: قد فعلت.

وفى هذه المسألة اختلاف وشبهة، والصواب من ذلك: أن الله عز وجل لا يكلف المؤمنين خاصة ما لا طاقة لهم به، فهم مخصوصون بذلك، فضلاً من الله تعالى ونعمة آثرهم بها على

الكافرين، إذ له أن يؤثر بعض عباده على بعض، لأن الفضل بيده يؤتيه من يشاء، وهذا مفهوم من دليل الخطاب من قوله: ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ البقرة ٢٨٦، أن له تعالى أن يحمل الكافر ما لا طاقة له به عدلاً منه وحكمة، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِ﴾ الأنعام ١١٥، قيل: صدقاً للمؤمنين، وعدلاً على الكافرين، قال الله تعالى مخبراً عن أخوة يوسف: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ يوسف ٩١، فهذا نص فى الإيثار لبعض خلقه على البعض، ثم رأيت تصديق ما ذكرته عن ابن عباس، رواه إسماعيل عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ الأعراف ٤٢، يعنى إلا طاقتها من العمل، لأن الله تعالى افترض على المؤمنين أعمالاً يطيقونها، ولم يفترض عليهم ما لا يطيقون، هذا نقل لفظ ابن مسعود فى تخصيص المؤمنين كما ذكرناه آنفاً.

ويقول أيضاً فى تفصيل هذه المسألة للزائغين فيها تعلق ابتغاء التأويل: إن الله تعالى كلف العباد ما لا يطيقونه إلا به، لافتقارهم إليه وعدم استغنائهم عنه فى كل حركة وسكون، إذ لا مشيئة لهم دون مشيئته، ولا استطاعة إلا بتوفيقه، ولا حول ولا قوة إلا به، ألم تسمع إلى قوله تعالى فى وصف الكافرين: ﴿كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ هود ٢٠، وقال تعالى فى مثله: ﴿وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ الكهف ١٠١، وقال فيمن استطاع به: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ هود ٨٨، وروينا عن النبى ﷺ: (من صلى كما أمر غفر له ما تقدم من ذنبه).

وقد يروى فى خبر يقول الله تعالى: ليس كل مصل أتقبل صلاته، إنما تقبل صلاة من تواضع لعظمتى، وخشع قلبه لجلالى، وكف شهواته عن محارمى، وقطع ليله ونهاره بذكرى، ولم يصر على معصيتى، ولم يتكبر على خلقى، ورحم الضعيف وواسى الفقير من أجلى، على أن أجعل الجهالة له حلماً، والظلمة له نوراً، يدعونى فألبيه ويسألنى فأعطيه ويقسم علىَّ فأبره، أكلؤه بقوتى وأباهى به ملائكتى، لو قسم نوره عندى على أهل الأرض لوسعهم، مثله كمثل الفردوس لا يتسنى ثمرها ولا يتغير حالها).

وفى الخبر: كم من قائم حظه فى قيامه السهر والتعب.

ومن صلى صلاة وراء الإمام فلم يدر ماذا قرأ فهو نهاية السهو، فإنه تارك الأمر بالاستماع، فيخاف عليه مجانبة الرحمة، لأن الله تعالى ضمن الرحمة بشرطين: الاستماع والإنصات، قال سبحانه فى المعنيين: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ الأعراف ٢٠٤، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُوا﴾ الأحقاف ٢٩.

وروينا فى خبر: أن النبى ﷺ صلى صلاة، فترك فى قراءته فلما انفتل قال: ماذا قرأت؟ فسكت القوم، فسأل أُبى بن كعب، فقال: قرأت كذا، ونزلت آية كذا، فما أدرى أنسخت أم رفعت؟ فقال: أنت لها يا أُبى) ثم أقبل على الآخرين فقال: (ما بال أقوام يحضرون صلاتهم، ويتمون صفوفهم ونبيهم بين أيديهم، لا يدرون ما يتلو عليهم من كتاب ربهم، ألا إن بنى إسرائيل كذلكم فعلوا فأوحى الله إلى نبيهم: أن قل لقومك تحضرونى أبدانكم، وتعطونى ألسنتكم، وتغيبون عنى قلوبكم باطلاً ما تذهبون).

وقال بعض علمائنا: إن العبد يسجد السجدة عنده أن يتقرب بها إلى الله عز وجل، ولو قسمت ذنوبه فى سجدته على أهل مدينته لهلكوا، قيل: وكيف يكون ذلك يا أبا محمد؟ قال: يكون ساجداً عند الله وقلبه مصغ إلى هوى، ومشاهداً لباطل قد استولى عليه.

وهذا كما قال، لأن فيه انتهاك حرمة القرب، وسقوط هيبة الرب تعالى.

واعلم أن طول الصلاة عليك غفلة، وقصرها سهو، لأنها إذا طالت عليك دل على عدم الحلاوة، ووجود الثقل بها، وكبرها على جوارحك، وإذا قصرت عليك وخفت، دل على نقصان حدودها، ودخول الغفلة والسهو فيها، فالنسيان قصرها، والاستقامة فى الصلاة أن لا تطول عليك، لوجود الحلاوة ولذة المناجاة، وحسن الفهم واجتماع الهم، ولا تقصر عليك لتيقظك فيها ورعايتك حدودها، وحسن قيامك بها، وهذه مراقبة المصلين ومشاهدة الخاشعين.

ذكر أحكام الخواطر فى الصلاة

قد شرحنا هذا الموضوع فى كتاب " أصول الوصول" عقب ذكر أحكام الصلاة، ومن أراده فليراجعه.

الزكاة

تقدم الكلام على أحكامها، والأنواع التى تجب فيها، والمقادير الواجبة فى كل نوع، وشروطها فى كتاب " أصول الوصول" فلا حاجه لذكره، وإنما نريد أن نبين هنا طريقة السلف فى فضائل الصدقة وآداب العطاء.

فضائل الصدقة وآداب العطاء وما يزكو به المعروف ويفضل به المنفقون:

روينا عن رسول الله ﷺ أنه قال: (ليس فى المال حق سوى الزكاة) وأن جماعة من التابعين كانوا يذهبون إلى أن فى المال حقوقاً غير الزكاة، منهم إبراهيم النخعى قال: كانوا يرون أن فى المال حقوقاً غير الزكاة، ومنهم الشعبى سئل: أفى المال حق سوى الزكاة؟ قال: نعم، أما سمعت قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ البقرة ١٧٧ الآية، ومنهم عطاء ومجاهد.

وقد كان المسلمون يرون المساواة والفرض والقيام بمؤن العجزة من أنفسهم وأهلهم من المعروف والبر والإحسان، وإن ذلك واجب على المتقين وعلى المحسنين من أهل اليسار والمعروف.

وكذلك مذهب جماعة من أهل التفسير أن قوله عز وجل: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ البقرة ٣، وقوله: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم﴾ البقرة ٢٥٤، مأمور به، وأن ذلك غير منسوخ بآية الزكاة، وأنه داخل فى حق المسلم على المسلمين، وواجب بحرمة الإسلام ووجود الحاجة.

فمن فضائل الزكاة: أن يخرجها فى أول ما تجب عليه، وإن قدمها قبل وجوبها إذا رأى لها موضعاً يتنافس فيه ويغتنم خوف فوته من غازٍ فى سبيل الله عز وجل، أو فى دين مُطالب، أو جهاد وغزو، أو إلى رجل فقير فاضل طرأ فى وقته، أو ابن سبيل غريب، كان تقدمتها إلى هؤلاء وأمثالهم أفضل وأزكى، لأنه من المسارعة إلى الخير، ومن المعاونة على البر والتقوى،

وداخل فى التطوع بالخير وفعله الذى أمر به، ولا يأمن الحوادث إذ فى التأخير آفات، وللدنيا نوائب وعوائق، وللنفس بدوات، وللقلوب تقليب.

وإن جعل رأس الحول أحد الشهرين كان أفضل فإن فى هذين خاصية من الفضائل ليست فى غيرهما، فأما شهر رمضان فإن الله تعالى خصه بتنزيل القرآن، وجعل فيه ليلة القدر التى هى خير من الف شهر، وجعله زماناً لأداء فرضه الذى افترضه على عباده من الصيام، وشرفه بما أظهر فيه من عمارة بيوته بالقيام، وقد كان مجاهد يقول: لا تقولوا رمضان، فإنه اسم من أسماء الله تعالى، ولكن قولوا شهر رمضان. وقد رفعه إسماعيل بن أبى زياد، فجاء به مسنداً، وأما ذو الحجة فإنا لا نعلم شهراً جمع خمس فضائل غيره: هو شهر حرام، وشهر حج، وفيه يوم الحج الأكبر، وفيه الأيام المعلومات وهى العشرة، والأيام المعدودات وهى أيام التشريق، التى أمر الله تعالى بذكره فيها، وأفضل أيام فى شهر رمضان العشر الأواخر، وأفضل أيام فى شهر الحجة العشر الأول.

وقد استحب بعض أهل الورع أن يقدم فى كل سنة بشهر، لئلا يكون مؤخراً عن رأس الحول، لأنه إذا أخرج فى شهر معلوم، ثم أخرج القابل فى مثله، فإن ذلك الشهر يكون الثالث عشر، وهذا تأخير فقالوا: إنه إذا أخرج فى رجب، ليخرج من القابل فى جمادى الآخرة، ليكون آخر سنته بلا زيادة، وإذا أخرج فى رمضان، فليخرج من قابل فى شعبان، على هذا لئلا يزيد على السنة شيئاً وهذا أحسن، وليتق أن يكون مخرجاً للفرض فى كل شهر.

ثم أن يخرجها طيبة بها نفسه، مسروراً بها قلبه، مخلصاً لربه، مبتغياً بها وجهه، لغير رياء ولا سمعة، ولا تزين ولا تصنع، لا يحب أن يطلع عليها غير الله عز وجل، ولا يرجو فى إعطائها ولا يخاف فى منعها سواه، وليكن ناظراً إلى الله تعالى، عارفاً بحسن توفيقه له، وأن يعتقد فضل من يعطيه من الفقراء عليه، ولا ينتقصه بقلبه، ولا يزدريه، وليعلم أن الفقير خير منه، لأنه جعل طهرة وزكاة له، ورفعة ودرجة فى دار المقام والحياة، وأنه هو قد جعل سخرة للفقير وعمارة لدنياه، كما حدثنا بعض العارفين قال: أريد منى ترك التكسب وكنت ذا صنعة جليلة، فجال فى نفسى من أين المعاش، فهتف بى هاتف لا أراه: تنقطع إلينا وتتهمنا؟ فلك علينا أن

نخدمك ولياً من أوليائنا، أو نسخر لك منافقاً من أعدائنا.

وأن يسر ذلك إلى الفقير سراً ولا يذكر ذلك، فقد جاء فى تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ البقرة ٢٦٤، قال: المن أن تذكرها، والأذى أن تظهرها. وحدثت عن بشر بن الحارث قال: قال سفيان: من مَنَّ فسدت صدقته، قيل: كيف المن يا أبا نصر؟ قال: أن تذكره أو تحدث به، وبعضهم يقول: المن هو أن تستخدمه بالعطاء، والأذى أن تعيره بالفقر. وقيل: المن أن يتكبر عليه لأجل أن يعطيه، والأذى أن تنهره أو توبخه بالمسئلة، وفى الحديث: (أفضل الصدقة جهد المقل إلى فقير فى سر)، وقال بعض العلماء: ثلاثة من كنوز البر منها إخفاء الصدقة. وقد روينا مسنداً من طريق: وذلك أسلم لدينه وأقل لآفاته وأزكى لعمله.

وقد روينا فى الخبر: (لا يقبل الله من مسمع ولا مراء ولا منان) فجمع بين المنة والسمعة كما جمع بين السمعة والرياء، ورد بهن الأعمال، فالمسمع الذى يتحدث بما صنعه من الأعمال ليسمعه من لم يكن رآه، فيقوم ذلك مقام الرؤية، فسوى بينهما فى إبطال العمل، لأنهما عن ضعف اليقين إذ لم يكتف المسمع بعلم مولاه، كما لم يقنع المرائى بنظره فأشرك فيه سواه، وألحق المنان بهما، لأن فى المنة معناهما من أنه ذكره، فقد سمع غيره به، أو رأى نفسه فى العطاء ففخر به، وأداه سراً، فإن أظهره نقل من السر وكتب فى العلانية، فإن تحدث به محى من السر والعلانية، فكتب رياء، فلو لم يكن فى إظهار الصدقة مع الإخلاص بها إلا فوت ثواب السر لكان فيه نقص عظيم، فقد جاء فى الأثر: تفضل صدقة السر على صدقة العلانية سبعين ضعفاً. وفى الحديث المشهور: (سبعة فى ظل عرش الله تعالى يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله، أحدهم رجل تصدق بصدقة فلم تعلم شماله ما أعطت يمينه)، وفى لفظ آخر: (فأخفى عن شماله ما تصدقت به يمينه)، وهذا من المبالغة فى الوصف، وفيه مجاوزة الحد فى الإخفاء أى يخفى عن نفسه، فكيف غيره؟ وقد تستعمل العرب المبالغة فى الشئ على ضرب المثل والتعجب، وإن كان فيها مجاوزة للحد، من ذلك أن الله عز وجل ذم قوماً ووصفهم بالبخل، وبالغ فى وصفهم، فقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ النساء ٥٣، والنقير لا يريده أحد، ولا يطلبه ولا يعطاه، لأنه هو النقطة التى تكون على ظهر النواة من منبت النخلة.

وفيه معنى أشد من هذا وأغمض منه لما قال: فأخفى عن شماله، كان لهذا القول حقيقة فى الخفاء، فهو أن لا يحدث نفسه بذلك، ولا يخطر على قلبه، وليس يكون هذا إلا أن لا يرى نفسه فى العطاء أصلاً، ولا يجرى وهم ذلك على قلبه كما يقول فى سر الملكوت: إن الله تعالى لا يطلع عليه إلا من لا يحدث نفسه به، بمعنى أنه لا يخطر على قلبه ولا يذكره، ولا يشهد نفسه فيه شغلاً عنه بما اقتطع به، وبأنه لا يباليه، فعندها صلح أن يظهر على السر، فإن لم يمكنك على الحقيقة أن تخفى صدقتك عن نفسك، فأخف نفسك فيها حتى لا يعلم المعطى أنك أنت المعطى، وهذا مقام فى الإخلاص، فإن أظهرت يدك فى الإعطاء فأخفها سراً إلى المعطى.

هذا حال الصادق، فقد كان بعض المخلصين يلقى الدرهم بين يدى الفقير أو فى طريقه أو فى موضع جلوسه، بحيث يراه وهو لا يعلم من صاحبه، وبعضهم كان يصر ذلك فى ثوبه وهو نائم، فلا يعلم من جعله، وقد رأيت من يفعل ذلك، فأما من كان يوصل إلى الفقير على يد غيره، ويستكتمه شأنه، فلا يحصى ذلك من المسلمين، وفى الخبر (صدقة السر– وقيل: صدقة الليل – تطفئ غضب الرب تعالى) وقد أخبر الله تعالى أن الإخفاء أفضل، ومعه يكون تكفير السيئات فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ البقرة ٢٧١ .

فإن أظهر مسكين نفسه، وكشف نفسه للسؤال، وآثر التبذل على الصون والتعفف، فلا بأس أن تظهر معروفك إليه، فإن أظهرت زكاتك إرادة السُنة والاقتداء بك والتحريض على مثل ذلك من غيرك لينافسك فيه أخوك، فيسرع إلى مثله أمثالك منهم فحسن، وذلك من التحاض على إطعام المسكين، وقد ندب الله تعالى إليه، وقد قيده فى قوله تعالى: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ الرعد ٢٢، قيل سراً: التطوع، وعلانية: الصدقة المفروضة، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ المزمل ٢٠، القرض الحسن: هو التطوع، وقد قيل: الحلال، كما قال: ﴿وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ هود ٨٨، أى حلالاً، وقد قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾ البقرة ٢٧١، فمدح المبدى بنعم، إلا أن ذلك لا يحسن إلا إلى من أبدى نفسه كأنه هذا السائل الذى يسأل بلسانه وكفه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ﴾ البقرة ٢٧١ الآية، كأنها للمستخفى بالمسألة، وهى لخصوص الفقراء لا يظهرون نفوسهم بما يمنعهم من الحياء والتعفف، فمن أظهر نفسه فأظهر إليه، ومن أخفاها فأخف له، ومن ذلك كشف عورة الفاسق، إنما حرم عليك أن تظهر عورة من يخفى عنك نفسه ويستتر، فإذا أظهر نفسه بها وأعلن، فلا بأس أن تظهر عليه، كما جاء فى الخبر: (من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له).

وينبغى أن يجعل صدقته مما يحبه من المال، ومن جيد ما يدخر ويقتنى ويستأثر به النفوس، فيؤثر مولاه به كما أمره، وضرب المثل له فقال: ﴿أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾ البقرة ٢٦٧، ثم قال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ﴾ البقرة ٢٦٧، وقال فى ضرب المثل بالعبيد: ﴿وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِ﴾ البقرة ٢٦٧، أى لا تقصدوا الردئ فتجعلوه لله تعالى، ولو أعطى أحدكم ذلك لم يأخذه إلا على إغماض - أى كراهية وحياء - ولا يجعل ما لله تعالى دون ما يستجيد لنفسه أو ما يكره أن يقتنيه لعاقبته، أو يأخذه من غيره، أو ما لا يستحسن أن يهديه لنيل من العبيد، فتكون قد آثرت نفسك أو عبداً مثلك على مولاك، فإن هذا من سوء الأدب، ولا يقوم بسوء أدب واحد فى معاملة بجميع المعاملات.

وقد روى فى معنى قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾ الحديد ١١، قال: طيباً فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً.

وفى حديث إبان عن أنس: (طوبى لعبد أنفق من مال اكتسبه من غير معصية). وفى الخبر: (سبق درهم مائة الف درهم).

وقد تهدد الله تعالى قوماً جعلوا له ما يكرهون، ووصفت ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى لا جرم، فكذبهم فى قوله تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَ وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ النحل ٦٢، أى حقاً لهم النار. وفى الآية وقف غريب لا يعلمها إلا الحذاق من أهل العربية، فقف على ﴿لَا﴾ فيكون نفياً لوصفهم أن لهم الحسنى، ثم يستأنف بـ ﴿جَرَمَ﴾ أن لهم النار، أى كسب لهم - جعلهم لله ما يكرهون - النار، أى بجرمهم واكتسابهم.

وإذا دعا لك مسكين عند الصدقة فاردد عليه مثل دعائه حتى يكون ذلك جزاء بقوله، وتخلص لك صدقتك، وإلا كان دعاؤه مكافأة على معروف، فقد كان العلماء يتحفظون من ذلك وهو أقرب إلى التواضع، ولا ترى أنك مستحق لذلك منه لما وصلته به، لأنك عامل فى واجب عليك لمعبودك، أو توفى للمعطى رزقه، وما قسم له من تعبدك بذلك، وكانت عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما إذا أرسلتا معروفاً إلى فقير قالتا للرسول احفظ ما يدعو به، ثم يردان عليه مثل قوله، ويقولان: حتى تخلص لنا صدقتنا.

وفعل ذلك عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضى الله تعالى عنهما.

ولا ينبغى أن تقتضى من الفقير الدعاء لك أو تطالبه بذلك، أو تحب منه الثناء والمدح على ذلك، فإنه ينقص من الصدقة، وإذا كثر منك وقوى أحبطها، وإن كان عليك أن يدعو لك ويثنى به عليك، فإنما يعمل فيما تعبده مولاه به وأمره به، فلا يرى ذلك من حقك عليه.

وإذا أوصلت إلى فقير معروفاً فبحسن أدب ولين جانب ولطف كلام وتذلل وتواضع، وقد كان بعض الأدباء إذا أراد أن يدفع إلى فقير شيئاً، بسط كفه بالعطاء، لتكون يد الفقير هى العلياً، وبعضهم كان يضعها بين يديه على الأرض ويسأله قبولها منه، ليكون هو السائل، ولا يناوله بيده إعظاماً له، وهذا يدل على معرفة العبد بربه، وحسن أدبه فى عبادته.

ومن أحَبَ الثناء والذكر على معروفه كان ذلك حظه منه وبطل أجره، وربما كان عليه فضل من الوزر لمحبته الذكر والثناء، فيما لله تعالى أن يفعله، وفى رزق الله لعبده الذى أجراه على يده، فإن تخلص سواء بسواء، فما أحسن حاله.

واستحب للفقير أن يخص ذا المعروف إليه بدعوات شكراً لما أولاه وتأدباً وتخلقاً بفعل مولاه، لأنه قد جعله سبباً للخير وواسطة للبر، إذ الله سبحانه وتعالى يشهد نفسه بالعطاء، ثم قد أثنى على عبده وشكر له فى الإعطاء، فليقل: (طهر الله قلبك فى قلوب الأبرار، وزكى عملك فى عمل الأخيار، وصلى على روحك فى أرواح الشهداء) فذلك هو شكر الناس والدعاء لهم وحسن الثناء عليهم.

ومن شكرهم أيضاً أن لا يذمهم فى المنع، ولا يعيبهم عند القبض، فذلك تأويل الخبر: (من لم يشكر الناس لم يشكر الله تعالى) فإن فيه إثبات حكم الأواسط، واستعمال حسن الأدب فى إظهار النعم والتخلق بأخلاق المنعم، لأنه أنعم عليهم، ثم شكر لهم كرماً منه.

وكذلك فى الخبر: العبد الموقن يشهد يد مولاه فى العطاء، فحمد ثم شكر للمتقين، إذ جعلهم مولاه سبب جده وظرفاً لرزقه.

وفى الخبر: (من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تستطيعوا فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه)، فإن شكر الله تعالى على العطاء هو اعتقاد المعرفة أنه من الله تعالى لا شريك له فيها، والعمل بطاعته بها.

ومن فضل الصدقة أن يقصد بها الفقراء الصالحين الصادقين من أهل التصوف والدين، ممن يؤثرون التستر والإخفاء ولا يكثرون البث والشكوى، وممن فيه وصف من أوصاف الكتاب: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أى: حبسوا فى طريق الآخرة، لعيلة أو ضيق معيشة أو إصلاح قلوب أو قصور يد ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ البقرة ٢٧٣، لأنهم مقصوصوا الجناح، إذ المال للغنى بمنزلة الجناح للطائر فيتنقل بماله حيث شاء من البلاد وينبسط فى شهواته كيف شاء من المراد، والفقير محصور عن ذلك، لا يستطيعه لقبض يده وقدر رزقه، ومن هذا قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾ الأعراف ٢٦، قيل: المال، وقيل: المعاش ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ البقرة ٢٧٣، فسمى الله تعالى من لا يعرفهم بالفقر ولا يشهد وصفهم بالتقلل لظهور تعففهم عن المسألة جاهلاً بوصف المؤمنين، ثم أكد وصفهم وأظهر للخلق تعريفهم، بياناً منه وكشفاً لحالهم إذ ستروها بالعفة، فقال: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ البقرة ٢٧٣، فالسيمى هى العلامة اللازمة والخليقة الثابتة دون التحلى، واللبسة الظاهرة ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ البقرة ٢٧٣، أى: بهذه العلامة أيضاً تعرفهم إن أشكلوا عليك، فإنهم لا يسألون: عفة وقناعة، إلحافاً: لا يلتحفون بالأغنياء، ولا يلاحفون أهل الدنيا تملقاً وضراعة، أى: هم منفردون بأحوالهم، أغنياء بيقينهم أعزة بصبرهم، والإلحاف: الذى مشتق من اللحاف الذى يلتحف به، فيلزم الجسم، فقال: ليسوا ممن يفعل

ذلك لا يلتحفون الأغنياء كاللحاف، ولا يلتحفون المسألة إلزاماً كالصنعة كما يلتحف بالثوب.

فهذا هو طريق السلف الصالح فى الزكاة، وما كانوا عليه فى تأديتها، وأحوال الفقراء الذين هم أهل لها، وما مدحهم الله تعالى به، وهناك مشاهد أصفى وأعلى تجلى لمن عمل بتلك المبادئ، وتناول لما أخذ بها؛ وجاهد نفسه عليها فى ذات الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ العنكبوت ٦٩.

* * *

الركن الرابع

الصيام

سبق الكلام على شروطه وفرائضه وسننه وآدابه وما يتعلق به من الأحكام الشرعية فى كتاب " أصول الوصول" وأريد بعون الله تعالى وحسن توفيقه أن أبين فضائل الصوم، ووصف الصائمين وما كان عليه السلف الصالح والصحابة والتابعون رضوان الله عليهم أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

فضائل الصوم ووصف الصائمين

صوم الخصوص حفظ الجوارح الست:

١ غض البصر عن الاتساع فى النظر.

٢ صون السمع عن الإصغاء إلى محرم أو الوزر أو القعود مع أهل الباطل.

٣ حفظ اللسان عن الخوض فيما لا يعنى جملة، مما إن كتب عنه كان عليه، وإن حفظ له لم يكن له.

٤ مراعاة القلب بعكوف الهم عليه، وقطع الخواطر والأفكار التى كف عن فعلها، وترك التمنى الذى لا يجدى.

٥ كف اليد عن البطش إلى محرم من مكسب أو فاحشة.

٦ حبس الرِجل عن السعى فيما لم يؤمر به، ولم يندب إليه من غير أعمال البر.

فمن صام تطوعاً بهذه الجوارح الست، وأفطر بجارحتى الأكل والشرب والجماع، فهو عند الله تعالى من الصائمين فى الفضل، لأنه من الموقنين الحافظين للحدود.

ومن أفطر بهذه الست أو ببعضها، وصام بجارحتى البطن والفرج، فما ضيع أكثر مما حفظ، فهذا مفطر عند العلماء، صائم عند نفسه.

وقد قال أبو الدرداء: أيا حبذا نوم الأكياس، كيف يعيبون قيام الحمقى وصومهم، ولذرة من تقوى أفضل من أمثال الجبال عبادة مع المغترين.

ومثل من صام عن الأكل وأفطر بمخالفة الأمر، مثل من مسح كل عضو فصلاته مردودة عليه لجهله.

ومثل من أفطر بالأكل والجماع، وصام بجوارحه عن المنهى، مثل من غسل كل عضو مرة واحدة وصلى، فهو تارك للفضل فى العدد، إلا أنه مكمل للفرض بحسن العمل، فصلاته متقبلة لإحكامه للأصل، وهو مفطر للسعة صائم فى الفضل.

ومثل من صام عن الأكل والجماع، وصام بجوارحه الست عن الآثام، كمثل من غسل كل عضو ثلاثاً ثلاثاً فقد جمع الفرض والفضل، وأكمل الأمر والندب فهو من المحسنين، وعند العلماء من الصائمين، وهذا صوم الممدوحين فى الكتاب، الموصوفين بالذكرى من أولى الألباب.

ومن فضائل الصوم أن يجتنب من حظوظ هذه الجوارح الشبهات من الأشياء، وفضول الحلال، ويرفض الشهوات الداعية إلى العادات، ولا يفطر إلا على حلال متقللاً منه، فبذلك يزكو الصيام.

ولا يُقَبل امرأته فى صومه، ولا يباشرها بظاهر جسمه، فإن ذلك إن لم يبطل صومه فإنه

ينقصه وتركه أفضل، إلا لقوى متمكن مالك لإربه.

وليقلل نومه بالنهار ليعقل صومه بعمارة الأذكار، وليجد مس جوعه وعطشه، وقد كانوا يتسحرون بالتمرتين والثلاث، وبالحبات من الزبيب والجرعة من الماء، ومنهم من كان يقضم من شعير دابته التماساً لبركة السحور.

وليكثر ذكر الله تعالى، وليقلل ذكر الخلق بلسانه، وليسقط الاهتمام بهم عن قلبه، فذلك أزكى لصومه، ولا يجادل ولا يخاصم، وإن شتم أو ضرب لم يكافئ على ذلك لأجل حرمة الصوم، ولا يهتم لعشائه قبل محل وقته، يقال أن الصائم إذا اهتم بعشائه قبل محل وقته، أو من أول النهار، كتبت عليه خطيئة، وليرضى باليسير مما قسم له أن يفطر عليه، ويشكر الله تعالى عز وجل كثيراً عليه.

ومن فضائل الصيام التقلل من الطعام والشراب، وتعجيل الفطر وتأخير السحور، وليفطر على رطب إن كان، وإلا على تمر إن وجد فإنه بركة، أو على شربة من ماء فإنه طهور، هكذا روى عن رسول الله ﷺ، يفطر على جرعة من ماء أو مذقة من لبن أو تمرات قبل أن يصلى.

وفى الخبر: كم من صائم حظه من صيامه الجوع والعطش، قيل: هو الذى يجوع بالنهار، ويفطر على حرام، وقيل: هو الذى يصوم عن الحلال من الطعام، ويفطر بالغيبة من لحوم الناس. وقيل: هو الذى لا يغض بصره، ولا يحفظ لسانه عن الآثام.

ويقال: إن العبد إذا كذب أو اغتاب أو سعى فى معصية فى ساعة من صومه خرق صومه، وإن صوم يوم يلفق له فى صيام أيام حتى يتم بها صوم يوم ساعة ساعة.

وفى الحديث: (الصوم جنة ما لم يخرقها بكذب أو غيبة)، وكانوا يقولون الغيبة تفطر الصائم.

وقد كانوا يتوضئون من أذى المسلم.

وروى عن جماعة فى الوضوء مما مست النار: لأن أتوضأ من كلمة خبيثة أحب إلى من أن أتوضأ من طعام طيب.

وروى عن بشر بن الحرث عن سفيان: من اغتاب فسد صومه، وروينا عن ليث عن مجاهد: خصلتان يفسدان الصوم: الغيبة والكذب.

وروى عن جابر عن رسول الله ﷺ: (خمس يفطرن الصائم: الكذب والغيبة والنميمة واليمين الكاذبة والنظر بشهوة) ويقال: إن من الناس من يكمل له صوم رمضان واحد فى عشر رمضانات وفى عشرين، مثل سائر الفرائض من الصلاة والزكاة التى يحاسب عليها العبد، فإن وجدت كاملة، وإلا تممت من سائر تطوعه.

ويقال: إن العبد يصح له صوم فى خمسة أيام، كما يصح له صلاة واحدة بخمس صلوات ترقع له الأوقات.

وفى الخبر: من اغتاب خرق صومه، فليرقع صومه بالاستغفار، ويقال: إن الله تعالى لم يفترض شيئاً فرضى بدونه، وأنه يطالب بما فرضه، ويحاسب على ما أوجبه، وعفو الله سبحانه وتعالى يأتى على كثير من الذنوب.

والمراد من الصيام مجانبة الآثام لا الجوع والعطش، كما ذكرناه من أمر الصلاة أن المراد بها الانتهاء عن الفحشاء والمنكر، كما قال رسول الله ﷺ: (من لم يترك قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يترك طعامه وشرابه).

الحج

قد تقدم ما يتعلق به من الأحكام والشروط، مفصلاً فيه فرائضه وواجباته وسُننه، بتفصيل يمكن للطالب أن يرجع إليه فى كتاب " أصول الوصول " وأريد بعناية الله وحسن توفيقه أن أشرح جملاً من فضائله وآدابه، وعمل السلف الصالح فى الحج، رضوان الله عليهم أجمعين.

فضائل الحج وآدابه

فضائل الحج وآدابه وهيئاته، وفضائل الحجاج، وطريق السلف السالكين للمنهاج، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَـٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ البقرة ١٩٧، يعنى من أوجبه على نفسه فى هذه الأشهر فأحرم به، وهو شوال وذو القعدة وتسع من ذى الحجة: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ البقرة ١٩٧، الرفث: اسم جامع لكل لغو وخنى وفجر من الكلام، ومغازلة النساء وملاعبتهن، والتحدث فى شأن الجماع، والفسوق: جمع فسق، وهو اسم جامع لكل خروج من طاعة، ولكل تعدى حد من حدود الله تعالى، والجدال: وصف مبالغ للخصومة والمراء فيما يورث الضغائن، وفيما لا نفع فيه.

فهذه ثلاثة أسماء جامعة مختصرة لهذه المعانى المثبتة، أمر الله تعالى بتنزيه شعائره ومناسكه منها، لأنها مشتملة على الآثام، وهن أصول الخطايا والإجرام.

والحج فى اللغة هو القصد إلى من يعظم، وكانت العرب تقول: نحج إلى النعمان، أى: نقصده تعظيماً له وتعزيزاً. فينبغى أن يكون الحاج معظماً لمن قصده بالحج، ليتحقق بمعنى هذا الاسم، والحج أيضاً سلوك الطريق الواضح، الذى يخرج إلى البغية، ويوقف على المنفعة، واشتقاقه من المحجة بمنزلة النسك، وهو اسم للطريق مشتق من المنسك، وهو من أسماء الطريق، وإن كان أصله المذبح، ومنه سمى الناسك، لأنه سالك لطريق الآخرة.

فأول فضائل الحج حقيقة الإخلاص به لوجه الله تعالى، وأن تكون النفقة حلالاً، واليد

فارغة من تجارة تشغل القلب وتفرق الهم، ويكون الهم مجرداً، والقلب ساكناً مطمئناً، مملوءاً بالذكر فارغاً من الهوى، ناظراً أمامه، غير ملتفت إلى ورائه، وصحة القصد بحسن الصدق، ثم طيب النفس بالبذل والإنفاق والتوسع فى النفقة والزاد، وبذل ذلك لأن النفقة فى الحج بمنزلة النفقة فى سبيل الله تعالى، الدرهم بسبعمائة درهم، والحج من سبيل الله، روى ذلك عن رسول الله ﷺ، وقال ابن عمر وغيره: من كرم الرجل طيب زاده فى سفره، وكان يقول: أفضل الحجاج أخلصهم نية، وأزكاهم نفقة، وأحسنهم يقيناً.

وفى حديث ابن المنكدر، عن جابر عن رسول الله ﷺ: (الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة) وقال: سئل رسول الله ﷺ: ما بر الحج؟ قال: (طيب الكلام وإطعام الطعام).

ويقال إنما سمى سفراً لأنه يسفر عن أخلاق الرجال، وبعضهم يقول: يسفر عن صفات النفس وجوهرها، إذ ليس كل من حسنت صحبته فى الحضر، حسنت صحبته فى السفر، وقال رجل لآخر إنه يعرفه، فقال له: هل صحبته فى السفر الذى يستدل به على مكارم الأخلاق؟ قال: لا، قال: ما أراك تعرفه.

ولا يجادل ولا يخاصم ولا يكثر المراء ولا يرفث بلسانه، وروينا عن بشر ابن الحارث قال: قال سفيان: من رفث فسد حجه.

وليتعلم أحكام المناسك ومعالم الحج وهيئاته، وآداب المشاهد قبل الخروج، وليكن ذلك أهم شئ إليه، وليقدمه على جميع أسباب السفر، فإن هذا هو المقصود والبغية، وليعد له رفيقاً صالحاً عالماً محباً للخير معيناً عليه، إن نسى ذكره، وإن ذكر أعانه، وإن جبن شجعه، وإن عجز قواه، وإن أساء ظنه وضاق صدره وسع صدره وصبر، وحسن ظنه، ولا يخالف رفيقه، ولا يكثر الاعتراض عليه.

وليحسن خلقه مع جميع الناس، ويلين جانبه ويخفض جناحه ويكف أذاه عن الخلق ويحتمل آذاهم، فبهذه المعانى يفضل الحج، وإن يحج على رحل أو زاملة، فإن ذلك حج المتقين وطريق السلف، يقال: حج الأبرار على الرحال.

وحدث سفيان الثورى عن أبيه قال: برزت من الكوفة إلى القادسية للحج، ووافيت الرفاق من البلدان، فرأيتهم الحجاج كلهم على زوامل وجوالقات ورواحل، وما رأيت فى جميعهم إلا محملين، وقال مجاهد لابن عمر وقد دخلت القوافل: ما أكثر الحجاج، فقال: ما أقلهم، ولكن قل ما أكثر الراكب، قال: وكان ابن عمر إذا نظر إلى ما أحدث الحاج من الزوامل والمحامل يقول: الحاج قليل والركب كثير، ثم نظر إلى مسكين رث الهيئة خفيف المؤنة، متقللاً من كل شئ، لا يحمل معه من الزاد إلا ما لابد له منه مما يحتاج إليه، ولا يسرف فى المبالغة والتناهى فيه، ولا يقتر ولا يضيق على نفسه ورفيقه، بل يستعمل الاقتصاد فى كل شئ والكفاية، ويجتنب من الزى الحمرة فإن ذلك مكروه.

وروى عن النبى ﷺ أنه كان فى سفر فنزل أصحابه منزلاً فسرحت الإبل، فنظر إلى أكسية حمر على الأقتاب فقال: (أرى هذه الحمرة قد غلبت عليكم) قال: فقمنا نتساعى حتى نزعناها عن ظهورها، حتى شرد بعض الإبل.

ثم ليتجنب من الزى الشهرة، وكل منظور إليه من الأثاث، ولا يتشبه بالمترفين، ولا بأهل الدنيا من أهل التفاخر والتكاثر، فيكتب من المتكبرين، ولا يكثر التنعم والرفاهة، فإن ذلك غير مستحب فى سبيل الله تعالى، لأن المشقة والظمأ والمخمصة واللأواء كلما كثر فى سبيل الله كان أفضل وأثوب.

حج رسول الله ﷺ على راحلة، وكان تحته رحل رث، وقطيفة خلقة، قيمته أربعة دراهم، وطاف على الراحلة لينظر الناس اليه، ويهتدوا بشمائله، وقال عليه الصلاة والسلام: (خذوا عنى مناسككم) وكان يقول: (لبيك اللهم لبيك، حجاً لا رياء فيه ولا سمعة) وقال: (لبيك أن العيش عيش الآخرة).

وأمر ﷺ بالشعث والاختفاء، ونهى عن التنعم والرفاهة، فى حديث فضالة بن عبيد.

وفى الخبر: (إنما الحاج الشعث التفل يقول الله تعالى لملائكته: انظروا إلى زوار بيتى قد جاءونى شعثاً غبراً من كل فج عميق)، وقال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ الحج ٢٩،

التفث: الشعث والاغبرار، وقضاؤه حلق الرأس وقص الأظافر.

وكتب عمر بن الخطاب إلى أمراء الأجناد: اخلولقوا واخشوشنوا، أى: البسوا الخلقان واستعملوا الخشونة من الأشياء، وبعض أصحاب الحديث يصحف هذه الحروف يقول: احلولقوا من الحلق، ولا يجوز أن يأمرهم بإسقاط سُنة، كيف وقد قال لصبيغ حين توسم فيه مذهب الخوارج: اكشف رأسك، فرآه ذات ضفيرتين، فقال: لو كنت محلوقاً لضربت عنقك، ولينح مثال أهل اليمن فى الزى والأثاث، فإن الاقتداء بهم والاتباع لشمائلهم فى الحج طريقة السلف.

على ذلك الهدى والوصف كان رسول الله ﷺ وأصحابه، ومن عدا وصفهم وخالف هديهم فهو محدث ومبتدع، ولهذا المعنى قيل: زين الحجيج أهل اليمن لأنهم على منهاج الصحابة وطريقة السلف، وقيل فى مدحهم بالتقلل والانفراد: لا يغلون سعراً ولا يضيقون طريقاً.

وقد كان العلماء قديماً إذا نظروا إلى المترفين قد خرجوا إلى مكة يقولون: لا تقولوا خرج فلان حاجاً، ولكن قولوا خرج مسافراً، ويقال أن هذه المحامل والقباب أحدثها الحجاج بن يوسف، فركب الناس سنته، وقد كان العلماء فى وقته ينكرونها ويكرهون الركوب فيها.

وأخاف أن بعض ما يكون من تماوت الإبل يكون ذلك سببه لثقل ما يحمل، ولعله عدل أربعة أنفس وزيادة مع طول الشقة وقلة الطعام. وينبغى أن يقلل من نومه على الدابة، فإنه يقال إن النائم يثقل على البعير، وقد كان أهل الورع لا ينامون على الدواب إلا من قعود يغفون غفوة بعد غفوة، وكانوا أيضاً لا يقفون عليها الوقوف الطويل لأن ذلك يشق عليها، وفى الحديث: (لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسى) ولا يحمل على الدابة المكراة إلا ما قاض عليه الجمال أو ما أعلمه به، وقال رجل لابن المبارك: احمل لى هذا الكتاب معك، فقال: حتى أستأمر الجمال فإنى اكتريت.

ولينزل عن دابته غدوة وعشية، يروحها بذلك ففيه سُنة وآثار عن السلف، وقد كان بعض

السلف يكترى لازماً، ويشترط أن لا ينزل، ثم أنه ينزل للرواح، ليكون ما فارقه عن الدابة من حسناته محتسباً له فى ميزانه.

وبعض علماء الظاهر يقول: إن الحج راكباً أفضل، لما فيه من الإنفاق والمؤنة، ولأنه أبعد لضجر النفس وأقل لأذاه، وأقرب لسلامته وتمام حجه، فهذا عندى بمنزلة الإفطار، يكون أفضل إذا أساء عليه خلقه، وضاق به ذرعه، وكثر عليه ضجره، لأن حسن الخلق وانشراح الصدر أفضل، وقد يكون كذلك لبعض الناس دون بعض، ممن يكون حاله الضجر ووصفه التسخط وقلة الصبر، أو لم يكن المشى.

وسألت بعض فقهائنا بمكة - وكان ورعاً - عن تلك العمر التى تعتمر من مكة إلى التنعيم، وهو الذى يقال له مسجد عائشة وهو ميقاتنا للعمرة فى طول السنة، أى ذلك أفضل المشى فى العمرة، أو يكترى حماراً بدرهم يعتمر عليه؟ فيقال: يختلف ذلك على قدر شدته على الناس، فإن كان إنفاق الدرهم أشد عليه من المشى، فالاكتراء أفضل لما فيه من إكراه النفس عليه وشدته عليها، ومن كان المشى عليه أشق، فالمشى أفضل لما فيه من المشقة، ثم قال: هذا يختلف لاختلاف أحوال الناس من أهل الرفاهية والنعمة، فيكون المشى عليهما أشد. وعندى أن الاعتمار ماشياً أفضل، وكذلك الحج ماشياً لمن أطاق الحج ولم يتضجر به وكان له همة وقلب.

وقد روينا فى خبر من طريق أهل البيت: (إذا كان فى آخر الزمان خرج الناس للحج أربعة أصناف: سلاطينهم للنزهة، وأغنياؤهم للتجارة، وفقراؤهم للمسألة، وقراؤهم للسمعة) ويكره أخذ الأجرة على الحج، فيجعل نصيبه وعناه لغيره ملتمساً عرض الدنيا، وقد كره ذلك بعض العلماء، ولأنه من أعمال الآخرة، ويتقرب به إلى الله يجرى مجرى الصلاة والأذان والجهاد، فلا يأخذ على ذلك أجراً إلا فى الآخرة.

وقد قال رسول الله ﷺ لعثمان بن أبى العاص: (واتخذ مؤذناً لا يأخذ على الآذان أجراً). وسئل عن رجل خرج مجاهداً فأخذ ثلاثة دنانير فقال: (ليس له من دنياه وآخرته إلا ما أخذ) فإن كان نية عبد الآخرة أو همته المجاورة واضطر إلى ذلك، فإن الله تعالى قد يعطى

الدنيا على نية الآخرة، ولا يعطى الآخرة على نية الدنيا، رجوت أن يسعه ذلك.

وفى الخبر: يؤجر على الحجة الواحدة ثلاثة، ويدخلون الجنة: الموصى بها، والمنفذ للوصية، والحاج الذى يقيمها، لأنه ينوى خلاص أخيه المسلم، والقيام بفرضه.

وقد جاء: مثل المجاهد الذى يأخذ أجراً على جهاده، مثل أم موسى يحل أجرها، وترضع ولدها، هذا إذا كانت نيته الجهاد، واحتاج إلى معونة عليه، كذلك من كانت نيته فى حجه الآخرة، والتقرب إلى الله تعالى بالطواف والعمرة بعد قضاء ما عليه ولن يضره أخذ الأجرة على حجه إن شاء الله تعالى.

ومن فضائل الحج: أن لا يقوى أعداء الله الصادين عن المسجد الحرام بالمال، فإن المعونة والتقوية بالمال تضاهى المعونة بالنفس، والصد عن المسجد الحرام يكون بالمنع والإحصار، ويكون بطلب المال، فليحتل فى التخلص من ذلك، فإن بعض علمائنا كان يقول: ترك التنفل بالحج والرجوع عنه، أفضل من تقوية الظالمين بالمال، لأن ذلك عنده دخيلة فى الدين، ووليجة فى طريق المؤمنين، وإقامة وإظهار لبدعة أحدثت من الآخذ والمعطى.

وهذا كما قال لأنه جعل بدعة سُنة، ودخولاً فى صغار وذلة ومعاونة على وزر أعظم فى الحرم من تكلف حج نافلة قد سقط فرضه، كيف وفى ذلك إدخال ذلة وصغار على الإسلام والمسلمين مضاهاة للجزية.

وقد روينا عن رسول الله ﷺ: (كل واحد من المسلمين على ثغر من ثغور الإسلام، فإن ترك المسلمون فاشدد، لئلا يؤتى الإسلام من قبلك)، وفى الخبر المشهور: (المسلمون كرجل واحد، ومثل المسلم من المسلمين كمثل الرأس من الجسد، يألم الجسد لما يألم الرأس، ويألم الرأس لما يألم الجسد).

وقد يترخص القائل فى ذلك بتأويل أنه مضطر إليه، وليس كما يظن، لأنه لو رجع لما أخذ منه شئ، ولو خرج فى زى المترفين مما أحدث من المحامل لما أخذ منه شئ، فقد زال الإضرار وحصل منه بالطوع والشهوة والاختيار، ولعل هذا الذنب عقوبة ما حملوا على الإبل فوق

طاقتها من البيوت المسقفة التى علوها عليها.

كان البعير يحمل الرجل ورحله، فجعلوه يحمل مقدار أربعة وزيادة، فأدى ذلك إلى تلفها، فهم مطالبون بقتلها، لأن من حمل بعيراً فوق طوقه حوسب بذلك أو طولب، أو لعله ذنب ما خرجوا به من التجارات وفضول الأسباب، وشبهات الأموال، أو لسوء النيات وفساد المقاصد، وروينا أن أبا الدرداء قال لبعير له فى الموت: يا أيها البعير، لا تخاصمنى إلى ربك، فإنى لم أكن أحملك فوق طاقتك، وقد يعاقب الله على الذنب بذنب مثله أو فوقه.

وينبغى أن يكون فى المشاعر والمناسك أشعث أغبر فإنه سُنة، ويكثر ذكر الله فى طريقه وجميع مناسكه، ويذكر به الغافلين، ويقلل ذكر الناس، ويلزم الصمت فيما لا يعنيه، ولا يتكلف ما قد كفى، ولا يدخل فيما لم يكلف، وإن رأى موضعاً للمعروف أمر به، أو منكراً نهى عنه.

فهذه المعانى تضاعف أمر الحج وتفضل الحجاج، واستحب أن يُقرن بين حجة وعمرة من ميقاته، لأن فيه إيجاب هدى يقربه، وليكون جامعاً بين نسكين من ميقات بلده ويكون قد أتى بالعمرة، لأنها مقرونة بالحج فى الكتاب، ولأن مذهب كثير من العلماء أنها فريضة كالحج، وجماعة من السلف كانوا يستحسنون الابتداء بالعمرة، وتقديمها على الحج، منهم الحسن وعطاء وابن سيرين والنخعى.

وقد روى أن النبى ﷺ جمع بينهما، وأهلَّ بهما معاً، فى حديث أنس عن شقيق بن سلمة عن الضبى بن معبد قال: أردت الغزو فأشار علىَّ رجل من أهل العلم أن أبدأ بالحج، فاستشرت رجلاً من أهل الفقه، فأمرنى أن أجمع بين حج وعمرة جميعاً، فأنشأت ألبِّى بهما حتى قدمنا على عمر فأخبرته بالذى فعلت، فقال: هديت لسنة نبيك.

وإن قدم العمرة فحج متمتعاً، ثم أفرد الحج بعدها من عامه فهو أفضل، وهذا اختيار جماعة من العلماء.

وإن حج مفرداً، كما روى عن رسول الله ﷺ أنه أفرد الحج، فيما روينا عن عائشة

وجابر، وإذا فرغ من حجه رجع إلى ميقات بلده فاعتمر من هناك فحسن، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ البقرة ١٩٦، فإفرادهما من إتمامهما، وهذا قول عمر وعثمان فى الإتمام ولطيف لقرانه، ويسع طوافين وسعيين، ليخرج بذلك من اختلاف العلماء جميعهم.

وليكثر العبد من التلبية فى حال إحرامه، فهى من أفضل الأذكار فيه، وليرفع بها صوته، وإن قال فى تلبيته: لبيك يا ذا المعارج لبيك حجاً حقاً تعبداً ورقاً والرغباء إليك والعمل. فقد روى هذا عن الصحابة، وإن اقتصر على تلبية رسول الله ﷺ فحسن، وفيها كفاية وبلاغ.

وأحب أن يذبح وإن لم يجب عليه، ويجتنب الأكل من ذبح ما كان واجباً عليه، مثل نسك قران أو متعة أو كفارة.

واستحب أن يأكل مما لم يكن عليه واجباً، وليتجنب المعايب الثمانية فى ذبيحته التى وردت بها الآثار، وكذلك فى الأضحية، فقد نهى أن يضحى بالجدعاء والعضباء والجرباء، ونهى عن الشرقاء والخرقاء والمقابلة والمدابرة والعجفاء التى لا تنقى يعنى المهزولة.

وهذا جميع ما جاء به فى عيوب الأضاحى بأخبار متفرقة، فالجدع فى الأنف والأُذن والقطع فيهما، والعضب الكسر فى القرن وفى نقصان القوائم، والجرباء من الجرب، والشرقاء من المشقوقة الأذن من فوق، والخرقاء المشقوقة من أسفل، والمقابلة المخروقة الأذن من قدام، والمدابرة المخروقة من خلف، والتى لا تنقى المهزولة التى لا نقى لها والنقى هو المخ.

وقد روينا فى تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ الحج ٣٢، قيل: تسمين الهدى وتحسينه.

وأفضل الهدى بدنة ثم بقرة ثم كبش أقرن أبيض، ثم الثنى من المعز، وإن ساق هديه من الميقات فهو أفضل، من حيث لا يجهده ولا يكده.

وقد كانوا يغالون بثلاث، ويكرهون المكاس فيهن الهدى والأضحية والرقبة، فإن أفضل ذلك أغلاه ثمناً، وأنفسه عند أهله، وفى حديث ابن عمر أن عمر أهدى نجيبة فطلبت منه

بثلاثمائة دينار، فسأل النبى ﷺ أن يبيعها ويشترى بثمنها بدناً فنهاه عن ذلك، وقال: (بل اهدها) فهذه سُنة فى تخير الهدى، وحسن الأدب فى المعاملة، وترك الاستبدال بها طلباً للكثرة، لأن القليل الجيد خير من الكثير الدون، وإن فى ثلاثمائة دينار قيمة ثلاثين، فكان الخالص الحسن كافياً من الكثير المتقارب.

وفى حديث ابن المنكدر عن جابر: سئل رسول الله ﷺ: ما بر الحج؟ قال: (العج والثج) فالعج: هو رفع الصوت بالتلبية، والثج: هو نحر البدن.

وفى حديث عائشة رضى الله تعالى عنها، عن النبى ﷺ: (ما عمل آدمى يوم النحر عملاً أحب إلى الله عز وجل من إهراق دم، وإنها لتأتى يوم القيامة بقرونها وأظلافها، فإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع بالأرض، فطيبوا بها نفساً) وفى الخبر: لكم بكل صوفة من شعرها، وبكل قطرة من دمها حسنة، وإنها لتوضع فى الميزان فأبشروا.

ولا يضحى بجذع إلا من الضأن فقط، وهو ما كان فى آخر حوله، وبالثنى من المعز والبقر والإبل، فالثنى من المعز ما دخل فى السنة الثانية، والثنى من البقر ما دخل فى الثالثة، والثنى من الإبل ما دخل فى السنة الخامسة.

وإن أحرم من بلده فقد قيل إنه من إتمام الحج والعمرة، ومن عزائم الأعمال، روينا عن عمر وعلى وابن مسعود رضى الله عنهم: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِ﴾ البقرة ١٩٦، قالوا: إتمامها أن تحرم بهما من دويرة أهلك.

ولتكن حاضر القلب فى مشاهد القرب عند المواطن المرجو فيها الإجابة، وفى المشاهد المبتغى منها المنفعة، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم﴾ الحج ٢٨، ويستحب له أن يمشى فى المشاعر من حين يخرج من مكة إلى أن يقف بعرفة، وإلى أن يرجع من طواف الزيارة إلى منى، ومن استحب للحاج الركوب، فإنه يستحب له المشى إلى مكة فى المناسك إلى انقضاء حجه، ولأن عبد الله بن عباس أوصى إلى بنيه عند موته فقال: يا بنى حجوا مشاة، فإن للحاج الماشى بكل قدم يخطوها

سبعمائة حسنة من حسنات الحرم، قيل: وما حسنات الحرم؟ قال: الحسنة بمائة ألف، وأوكدها ما مشى فيه من المناسك وأفضله من مسجد إبراهيم ﷺ إلى الموقف، ومن الموقف إلى المزدلفة فى الإفاضة، ومن المشعر الحرام غداة النحر إلى منى، وفى أيام رميه الجمار.

وصومه يوم عرفة فيه فضل، إن قوى معه على الدعاء والتلبية، ولم يقطعه الصوم عن ذلك، فإن أضعفه فالفطر أفضل، ولم يصمه رسول الله ﷺ بعرفة، ولا أبو بكر ولا عمر، وصامه عثمان رضى الله عنه وعنهم.

وليعتبر فى طريقه وسيره بالآيات، وما يرى من الحكمة والقدرة من تصريف الخلق، وما يحدث الله تبارك وتعالى فى كل وقت، فيكون له فى كل شئ عبرة ومن كل شئ موعظة، فإنه على مثال طريق الآخرة، وليكن له بكل شئ تذكرة، وفى كل شئ فطنة وتبصرة، ترده إلى الله تعالى وتدله عليه، وتذكره به ويشهده منها، فيتفكر فى أمره، ويستدل به على حكمته، ويشهد منه قدرته.

وسئل الحسن: ما علامة الحج المبرور؟ فقال: أن يرجع العبد زاهداً فى الدنيا، راغباً فى الآخرة. وقيل فى وصف الحج المبرور: هو كف الأذى واحتمال الأذى وحسن الصحبة وبذل الزاد، ويقال: إن علامة قبول الحج ترك ما كان عليه العبد من المعاصى، والاستبدال بإخوانه البطالين إخواناً صالحين، وبمجالس اللهو والغفلة مجالس الذكر واليقظة، فمن وفق للعمل بما ذكرناه، فهو علامة قبول حجه ودليل نظر الله إليه فى قصده.

ومن أصيب بمصيبة فى نفسه وماله، فهو من دلائل قبول حجه، فإن المصيبة فى طريق الحج تعدل النفقة فى سبيل الله تعالى، الدرهم بسبعمائة درهم، وبمثابة الشدائد فى طريق الجهاد.

ويستكثر من الطواف بالبيت، لأنه يستوعب بطواف أسبوع مائة وعشرين رحمة، يكون لكل رحمة ما شاء الله لأنه سبحانه: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ آل عمران ٧٤، وأقل ماله بكل رحمة عشر حسنات، لأن فى حديث عطاء عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ: (ينزل الله على

هذا البيت فى كل يوم مائة وعشرين رحمة، ستون للطائفين، وأربعون للمصلين، وعشرون للناظرين)، وفى الحديث: (استكثروا من الطواف بالبيت، فإنه من أثقل شئ تجدونه فى صحفكم يوم القيامة، وأغبط عمل تجدونه).

ولا تتحدث فى طوافك، وعليك بكثرة ذكر الله سبحانه وتعالى من التسبيح والتهليل والحمد وتلاوة القرآن، وامش بسكينة ووقار وخشوع وانكسار ولا تزاحمن أحداً، واقرب من البيت ما أمكن، واستلم الركنين اليمانيين مع تقبيل الحجر فى كل وتر من طوافك إن أمكن، وقد روينا فى الخبر: من طاف بالبيت حافياً حاسراً كان له كعتق رقبة، ومن طاف أسبوعاً فى المطر غفر له ما سلف من ذنوبه، روى ذلك عن الحسن ابن على قاله لأصحابه ورفعه إلى رسول الله ﷺ.

واتق الهمة الرديئة والأفكار الدنيئة، فيقال: إن العبد يؤاخذ بالهمة فى ذلك البلد، وعن ابن مسعود: ما من بلد يؤاخذ العبد فيه بالإرادة قبل العمل إلا بمكة، وقال أيضاً: لو هَمَّ العبد أن يعمل سوءاً بمكة عاقبه الله تعالى ثم تلا: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۢ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ الحج ٢٥ يعنى أنه علق العذاب بالإرادة دون الفعل، ويقال إن السيئات تضاعف بمكة كما تضاعف الحسنات، وأن السيئات التى تكتسب هنالك لا تكفر إلا هنالك، وكان ابن عباس يقول: الاحتكار بمكة من الإلحاد فى الحرم، وقيل: الكذب فيه من الإلحاد.

وروى عن عمر بن الخطاب ﷺ: لأن أذنب سبعين ذنباً بركية أحب إلىَّ من أن أذنب ذنباً واحداً بمكة، وركية منزلة بين مكة والطائف.

وقد كان الورعون من السلف منهم عبد الله بن عمر، وعمر بن عبد العزيز وغيرهما، يضرب أحدهم فسطاطاً فى الحرم، وفسطاطاً فى الحل، فإذا أراد أن يصلى أو يعمل شيئاً من الطاعات، دخل فسطاط الحرم، ليدرك فضل المسجد الحرام لأن المسجد الحرام عندهم فى جميع ما يذكر إنما هو الحرم كله، وإذا أراد أن يأكل أو يكلم أهله أو يتغوط، خرج إلى فسطاط الحل. ويقال: إن الحجاج فى سالف الدهر كانوا إذا قدموا مكة خلعوا نعالهم بذى طوى تعظيماً للحرم، وكان بعضهم لا يتغوط ولا يبول حتى يخرج إلى الحل تعظيماً لشعائر الله

تعالى وتنزيهاً لحرمه وأمنه.

وأعمال البر كلها تضاعف بمكة، والحسنة بمائة ألف حسنة، على مثال الصلاة فى المسجد الحرام، روى معنى ذلك عن ابن عباس وأنس، وعن الحسن البصرى: أن صوم يوم بمائة الف، وصدقة درهم بمائة الف درهم. ويقال: إن طواف سبعة أسابيع يعدل عمرة، وإن ثلاث عمر تعدل حجة، وأن العمرة هى الحجة الصغرى.

وهذا فى دليل الخطاب من قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ التوبة ٣، فدل أن الحج الأصغر هو العمرة.

ومن العرب من يسمى العمرة حجاً، وفى الخبر: عمرة فى رمضان تعدل حجة، فمن وفق للعمل بما ذكرناه فهو علامة قبول حجه، ودليل نظر الله إليه فى قصده.

فضائل الحج والحاجين لوجه الله تعالى

روينا عن رسول الله ﷺ أنه قال: (من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه)، وفى حديث آخر: (من خرج من بيته حاجاً أو معتمراً فمات، أجرى له أجر الحاج والمعتمر إلى يوم القيامة، ومن مات فى أحد الحرمين لم يعرض ولم يحاسب، وقيل له ادخل الجنة)، وروى فى الخبر: (حجة مبرورة خير من الدنيا وما فيها، وحجة مبرورة ليس لها جزاء إلا الجنة)، وفى الحديث: (الحجاج والعمار وفد الله تعالى وزواره إن سألوه أعطاهم، وإن استغفروا غفر لهم، وإن دعوه استجاب لهم، وإن شفعوا شفعوا).

وذكر بعضهم أن إبليس ظهر له فى صورة شخص يعرفه فإذا هو ناحل الجسم مصفر اللون باكى العين مقصوم الظهر، فقال له: ما الذى أبكى عينيك؟ فقال: خروج الحاج إليه بلا تجارة، أقول قصدوه أخاف أن يجيبهم فيحزننى ذلك، قال: فما الذى أنحل جسمك؟ قال: صهيل الخيل فى سبيل الله تعالى، ولو كانت فى سبيلى كان أحب إلىَّ، قال: فما الذى غير لونك؟ قال: تعاون الجماعة على الطاعة، ولو تعاونوا على المعصية كان أحب إلىَّ، قال: فما الذى قصم ظهرك؟ قال: قول العبد أسألك حسن الخاتمة، أقول: يا ويلتى متى يعجب هذا

بعمله، أخاف أن يكون قد قبله).

ولقى رجل ابن المبارك وقد أفاض من عرفة إلى مزدلفة فقال: من أعظم الناس جرماً يا أبا عبد الرحمن فى هذا الوقت؟ فقال: من قال إن الله عز وجل لم يغفر لهؤلاء. وقد روينا حديثاً مسنداً من طريق أهل البيت: (أعظم الناس ذنباً من وقف بعرفة فظن أن الله عز وجل لم يغفر له)، ويقال: من الذنوب ذنوباً لا يكفرها إلا الوقوف بعرفة، وقد رفعه جعفر بن محمد فأسنده، ويقال: إن الله عز وجل إذا غفر لعبد ذنباً فى الموقف غفره لكل من أصابه فى ذلك الموقف.

وزعم بعض السلف: إذا وافق يوم عرفة يوم جمعة، غفر لكل أهل الموقف، وهو أفضل يوم فى الدنيا، وفيه حج رسول الله ﷺ حجة الوداع، ولم يحج بعد نزول فرض الحج غيرها، وعليه نزلت هذه الآية وهو واقف بعرفة: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ المائدة ٣، وقال علماء أهل الكتاب: لو أنزلت علينا هذه الآية لجعلنا يومها عيداً، فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: أشهد لقد أنزلت فى يوم عيدين اثنين يوم عرفة ويوم جمعة على رسول الله ﷺ وهو واقف بعرفة.

وقد روينا فى تفسير قوله تعالى: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾ الحج ٢٨، عن جماعة من السلف قال: غفر لهم ورب الكعبة، وفى تفسير قوله تعالى: ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ الأعراف ١٦، قال: طريق مكة يصدهم عنه، وقال بعضهم إن الحجاج إذا قدموا مكة تلقتهم الملائكة، فسلموا على ركبان الإبل، وصافحوا ركبان الحمير، واعتنقوا المشاة اعتناقاً. وقال الحسن: من مات بعقب شهر رمضان أو بعقب غزو أو بعقب حج مات شهيداً.

وقال عمر رضى الله تعالى عنه: الحاج مغفور له ولمن استغفر له شهر ذى الحجة والمحرم وصفر وعشرين من ربيع الأول، وقد كان من سُنة السلف أن يشيعوا الغزاة، وأن يستقبلوا الحاج، ويقبلوا بين أعينهم ويسألوهم الدعاء لهم، وفى الخبر: اللهم اغفر للحاج، ولمن استغفر له الحاج.

وحدثونا عن على بن الموفق قال: حججت سنة، فلما كان ليلة عرفة بت بمنى فى مسجد الخيف، فرأيت فى المنام كأن ملكين نزلا من السماء، عليهما ثياب خضر فنادى أحدهم صاحبه: يا عبيد الله، فقال الآخر: لبيك يا عبد الله، قال: تدرى كم حج بيت ربنا فى هذه السنة؟ قال: لا أدرى، قال: حج بيت ربنا ستمائة الف، فتدرى كم قبل منهم؟ قال: لا، قال: قبل منهم ست أنفس، قال: ثم ارتفعا فى الهواء فغاب عنى، فانتبهت فزعاً، فاغتممت غماً شديداً، وأهمنى أمرى، فقلت: إذا قبل حج ست أنفس فأين أكون أنا من ست أنفس؟ فلما أفضنا من عرفة وبت عند المشعر الحرام، جعلت أفكر فى كثرة الخلق، وفى قلة من قبل منه فحملنى النوم فإذا الشخصان قد نزلا من السماء على هيئتهما، فنادى أحدهما يا عبد الله، قال: لبيك يا عبد الله، قال: تدرى كم حج بيت ربنا؟ قال: نعم ستمائة الف، قال: فتدرى كم قبل منهم؟ قال: نعم ست أنفس، قال: فتدرى ماذا حَكَمَ ربنا فى هذه الليلة؟ قال: لا، قال: فإنه وهب لكل واحد من الستة مائة الف، قال: فانتبهت وبى من السرور ما يجل عن الوصف.

ذكر فى هذه القصة ستة، ولم يذكر السابع، وهؤلاء هم الأبدال السبعة، أوتاد الأرض المنظور اليهم كفاحاً، ثم ينظر إلى قلوب الأولياء من وراء قلوبهم، فأنوار هؤلاء عن نور الجلال، وأنوار الأولياء من أنوارهم، وأنصبتهم وعلومهم من أنصبة هؤلاء وعلومهم. فلم يذكر السابع وهو قطب الأرض، والأبدال كلهم فى ميزانه، ويقال: إنه هو الذى يضاهى الخضر من هذه الأمة فى الحال، ويجاريه فى العلم، وأنهما يتفاوضان العلم، ويجد أحدهم المزيد من الآخر، فإنما لم يذكر والله أعلم، لأنه يوهب له من مات ولم يحج من هذه الأمة، لأنه أوسع جاهاً من جميعهم، وأنفذ قولاً فى الشفاعة من الجملة.

وقد روينا عن ابن الموفق قال: حججت سنة فلما قضيت مناسكى، تفكرت فيمن لا يتقبل حجه، فقلت: اللهم إننى قد وهبت حجتى هذه، وجعلت ثوابها لمن لا يتقبل حجه، قال: فرأيت رب العزة فى النوم قال لى: يا على تتسخى علىَّ وأنا خلقت السخاء، وخلقت الأسخياء وأنا أجود الأجودين وأكرم الأكرمين، وأحق بالجود والكرم من العالمين، وقد وهبت كل من لم يقبل حجه لمن قبلته.

وكان ابن الموفق هذا قد حج عن رسول الله ﷺ حججاً، وقال: فرأيت النبى ﷺ فقال: (يا ابن الموفق حججت عنى؟ قلت: نعم يا رسول الله، ولبيت عنى؟ قلت: نعم، قال: فهذا يد لك عندى، أكافئك بها يوم القيامة، آخذ بيدك فى الموقف، فأدخلك الجنة والخلائق فى كرب الحساب).

هذا ما كان عليه السلف الصالح رضى الله عنهم أجمعين، وهو النور الذى اهتدى به الخلف من تابعيهم.

العقيدة

طريقة المتكلمين فى العقيدة

ولما كانت كلمة الشهادتين أصل العقيدة ونور العبادة وسر الاخلاق ومأخذ حسن المعاملة، وكان لعلماء الكلام طرق فى العقيدة مختلفة أحببت أن أذكر مذاهب أشهر أئمة الكلام فى طريقة الاعتقاد رغبة أن يكون المطلع على كتابى هذا عالماً بأقوال العلماء تتميماً للفائدة وحفظ لآراء المتكلمين، والله تعالى أسأل أن يجعل ذلك سبباً فى نزع الغل من قلوب المؤمنين حتى نتحقق بقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا﴾ الحجر ٤٧، فإنهم رضى الله تبارك وتعالى عنهم تحروا إصابة الحق واجتهدوا فيما تطمئن به القلوب قال تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا﴾ الجن ١٤، وكلهم على خير من الله تعالى (المؤمن أخ المؤمن) لا يعيبه ولا يضره ولا ينقصه فأقول وبالله التوفيق.

أشهر الطوائف المختلفة فى طرق الاستدلال أربعة

الطائفة الأولى: هى التى تسمى "الأشعرية"، ورأى أكثر الناس أنهم أهل السنة.

الطائفة الثانية: "المعتزلة".

الطائفة الثالثة: التى تسمى "بالباطنية".

الطائفة الرابعة: التى تسمى "بالحشوية".

أما الفرق التى تدعى "بالحشوية" فإنهم قالوا: إن طريق معرفة الله تبارك وتعالى هو السمع لا العقل، أعنى أن الإيمان بوجوده سبحانه الذى كلف الناس التصديق به، يكفى فيه أن يتلقى من صاحب الشرع، ويؤمن به إيماناً، كما يتلقى منه أحوال المعاد، وغير ذلك مما لا مدخل فيه للعقل، وطريقهم هذا نسلمه لمن لم يؤهلوا لتلقى العلوم النظرية، ولا لفهم الآيات والأدلة، وللمبتدئ الداخل فى الإسلام أولاً لأنه لابد من الإيمان قبل العلم.

وأرى أن الله تعالى أقام الحُجج على التوحيد فى أكثر آيات القرآن، وحث على النظر بالفكر فى دلائله القائمة حججاً على قدرته ووحدانيته وحكمته، وتقريراً لأسمائه الحسنى وصفاته العلية، وأراهم قصروا فى حصر الطريق على السماع.

أما الأشعرية والمعتزلة فإن طريقهم فى ذلك هو العقل، وبنوا أصولهم على بيان أن العالم حادث، وحدوثه لأن أجسامه مركبة من أجزاء لا تتجزأ، وأن الجزء الذى لا يتجزأ حادث، والأجسام محدثة بحدوثه.

وهذه الطريقة عويصة حتى على أهل الجدل والرياضة، فضلاً عن العامة، وبيان ذلك مسطور فى كتبهم.

وبين الأشاعرة والمعتزلة اختلاف فى بعض أمور نظرية، أصلها فهم بعض آيات القرآن الشريف، بقدر مواهب كل فريق منهم، وكلهم مؤمنون منزهون لذات الله وأسمائه وصفاته وكلامه العزيز، مجتهدون فى إصابة الحق والوصول إليه ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الحشر ١٠، ومن أراد شرح طرقهم فليراجع كتبهم.

طريق الصوفية

قد تقدم الكلام لنا عليهم فى علم التصوف فى كتاب " أصول الوصول" ، وبينا آراءهم ومآخذهم، ولكنا نذكر هنا ما لابد منه.

القوم رضى الله عنهم لم يسلكوا فى طريق معرفة الله تعالى ومعرفة آياته وآثاره ما سلكه علماء الكلام من البحث بالأشكال المنتجة، ولكنهم - بعد الإيمان بما جاء به رسول الله ﷺ - سلكوا طريق مجاهدة أنفسهم، حتى صفت نفوسهم وتطهرت، وصارت مجردة عن الحظوظ والأهواء، فعلمهم الله علم ما لم يكونوا يعلمون، وجعل لهم نوراً فى بصائرهم يشهدون بها حقائق الكائنات، ويعلمون به أنفسهم، والنشأة الأولى والنشأة الآخرة، وطريقهم هذا خاص لخاص، لا يؤهل له إلا من سبقت لهم الحسنى من الله تعالى حقيقة قوله تعالى:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ البقرة ٢٨٢، وقوله تعالى: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ الأنفال ٢٩، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ سورة العنكبوت ٦٩، وقوله ﷺ: (من عمل بما علم، ورثه الله علم ما لم يعلم).

وهذا الطريق هو طريق الأخذ بالعزائم وقهر النفس على غير مألوفاتها ليصفو جوهرها، وهو للقليل من أهل الخصوصية وليس للعامة ﴿وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡ﴾ ص ٢٤، ومن أراد مزيداً فليراجع هذا الموضوع فى كتاب " أصول الوصول " .

طريقة السلف فى العقيدة

سبق لنا بيان العقيدة التى أجمع عليها أهل العلم بالله تعالى والعارفون به سبحانه فى كتاب " أصول الوصول " وأريد أن أبين ما كان عليه السلف فى العقيدة.

لما كانت العقيدة مأخوذة من الاعتقاد – وهو من أعمال القلوب – فأقول: عقود القلب التى هى السُنة المجمع عليها، نقلها الخلف عن السلف، ولم يختلف فيه اثنان من المؤمنين، فيها ست عشرة خصلة، ثمان واجبات فى الدنيا، وثمان واقعات فى الآخرة.

أولاً الخصال التى هى فى الدنيا

١ بأن يعتقد العبد أن الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ويقوى بالعلم ويضعف بالجهل.

٢ وأن القرآن كلام الله عز وجل غير مخلوق، وعلمه القديم صفة من صفاته هو متكلم به بذاته، وفى الحديث عن رسول الله ﷺ: (ما تقرب العبد إلى الله عز وجل بأفضل من شئ خرج منه وهو كلامه). وروينا عن ابن عباس: أن علياً رضى الله تعالى عنهما دعا عند قتال صفين: (يا ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ مريم ١، أعوذ بك من الذنوب التى توجب النقم، وأعوذ بك من الذنوب التى تغير النعم، وأعوذ بك من الذنوب التى تهتك الحرم، وأعوذ بك من الذنوب التى تحبس غيث السماء، وأعوذ بك من الذنوب التى تديل الأعداء، انصرنا على من ظلمنا)، قال

الضحاك ابن مزاحم: فكان على ﷺ يقدم هذه بين يدى كل شديدة.

وفيما روينا عن النبى ﷺ من قوله: (أعوذ بكلمات الله وأسمائه كلها)، كما قال: (أعوذ بعزة الله وقدرته) دليل أن الكلام والأسماء صفات.

وعن على ﷺ، حين حكم الحكمين فنقم عليه الخوارج ذلك فقالوا: حكم فى دين الله من المخلوقين، فقال: والله ما حكمت مخلوقاً، ما حكمت إلا القرآن، وقال أبو بكر الصديق ﷺ حين سمع قرآن مسيلمة الكذاب الذى افتعله وتخرصه يضاهى به كلام الله تعالى: والله ما خرج هذا من إل ولا من تقيٍّ.

قال أبو عبيدة: يعنى ما خرج من الله تعالى. قال: وفيه دليل أن القرآن غير مخلوق، وأنه خرج من الله تعالى تكلم به، قال: ومن هذا قوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ التوبة ١٠، ومعناه: الله عز وجل لا يرقبونه.

وقد روينا عن رسول الله ﷺ بمعنى ذلك فى قوله: (فضل كلام الله عز وجل على سائر الكلام، كفضل الله تعالى على خلقه) وذلك أنه خرج منه، وقرأت فى مصحف ابن مسعود قال: يا موسى قد فضلتك برسالاتى وبكلامى عن الناس، وهذا لا يجوز فيه إلا التكلم بالذات مع قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ النساء ١٦٤، قال أهل اللغة: المصدر إذا أدخل فى الفعل فهو للمواجهة والوصف، لا للأمر بالفعل ولا على المجاز.

٣ ثم تسليم أخبار الصفات فيما تثبت به الروايات وصح النقل، ولا يتأول ذلك ولا يتشبه بالقياس والعقل، ولكن يعتقد إثبات الأسماء والصفات بمعانيها وحقائقها لله تعالى، وينفى التشبيه والتكييف عنها إذا لا كفء للموصوف فيشبه به، ولا مثل له فيجنس منه، ولا نشبه ونصف ولا نمثل ونعرف ولا نكيف.

وفى رد أخبار الصفات بطلان شرائع الإسلام، من قبل أن الناقلين إلينا ذلك هم ناقلوا شرائع الدين وأحكام الإيمان، فإن كانوا عدولاً فيما نقلوه من الشريعة فالعدل مقبول القول فى كل ما نقلوه، وإن كانوا كذبوا فيما نقلوا من أخبار الصفات، فالكذاب مردود القول فى كل

ما جاء به، والكذب على الله كفر، فكيف تقبل شهادة كافر؟! وإذا جاز أن يجترئوا على الله عز وجل بأن يزيدوا فى صفاته ما لم يسمعوه عن رسول الله ﷺ، فهم إلى أن يكذبوا على الرسول فيما هو من الأحكام أولى، ففى ذلك إبطال الشريعة وتكفير النقلة من الصحابة والتابعين بإحسان، فلذلك كفر أصحاب الحديث من نفى أخبار الصفات.

٤ ويعتقد تفضيل أصحاب رسول الله ﷺ وأهل بيته رضى الله عنهم ورضوا عنه كافة، ويسكت عما شجر بينهم، وينشر محاسنهم وفضائلهم لتأتلف القلوب بذلك.

ونسلم لكل واحد ما فعله، لأنهم أوفر عقولاً منا، فقد عمل كل واحد بعلمه ومنتهى عقله فيما أدى إليه اجتهاده، وإن كان بعضهم أعلم من بعض، كما أن بعضهم أفضل من بعض، إلا أن علومنا وعقولنا تضعف وتنقص عن علم أدناهم علماً، كما فضلوا علينا بالسوابق سبقاً.

ونقدم من قدم الله ورسوله، وأجمع المسلمون الذين تولى الله إجماعهم على الهداية، وضمن لرسوله ﷺ تفضيلاً لهم وتشريفاً لهم أن لا يجتمعوا على ضلالة.

وقد قال عليٌّ لما قيل له: ألا تستخلف علينا؟ فقال: لا أستخلف عليكم بل أكِلُكم إلى الله عز وجل، فإن يرد بكم خيراً جمعكم بعد نبيكم على خيركم، قال إبراهيم النخعى: فلما سلم الحسن بن على رضى الله عنهما الأمر إلى معاوية سميت سنة الجماعة، وقال له رجل: يا مذل المؤمنين، فقال: بل أنا معز المؤمنين، سمعت أبى عليه السلام يقول: لا تكرهوا إمارة معاوية فإنه سيلى هذا الأمر بعدى، وإن فقدتموه رأيتم السيوف تبدر عن كواهلها كأنها الحنظل.

فليعتقد بقلبه من رضى الصحابة وأجمعوا بإمامته على خلافته، واتفق الأئمة من أهل الشورى على تقدمته على حديث ابن عمر فى التفضيل قال: كنا نقول على عهد رسول الله ﷺ: أبو بكر ثم عمر ثم عثمان، فيبلغ ذلك رسول الله ﷺ فلا ينكر، وعلى حديث سفينة مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (الخلافة بعدى ثلاثون سنة، ثم تكون ملكاً).

فهؤلاء الأربعة خلفاء النبوة، وهم أئمة الأئمة من العشرة، وعيون أهل الهجرة والنصرة، وخيار الخيار من الأصحاب.

كما روينا عن النبى ﷺ: (إن الله عز وجل اختار أصحابى على العالمين، واختار من أصحابى أربعة فجعلهم خير أصحابى، وفى كل أصحابى خير، واختار أمتى على الأمم، واختار من أمتى أربعة قرون فكل قرن سبعون سنة)، فإنا نحن قوم متبعون نقفوا الأثر غير مبتعدين بالرأى والمعقول نرد به الخير، إذ لا مدخل للقياس والرأى فى التفضيل، كما لا مدخل لهما فى الصفات وأصول العبادات، وإنما يؤخذ التفضيل توقيفاً وتسليماً، ومن طريق الإجماع والاتباع خشية الشذوذ والابتداع، لقول الرسول ﷺ: (عليكم بسنتى وسُنة الخلفاء الراشدين المهديين بعدى، عضوا عليها بالنواجذ، ومن شذ ففى النار)، وقال تعالى فى تصديق ذلك: ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ النساء ١١٥.

وإنما جاء الترتيب فى التفضيل والخلافة مخالفاً للقياس والمعقول، توكيداً للنبوة وتأييداً للرسالة، لئلا تلتبس النبوة بالملك، ولا ينحو النبى ﷺ فى الخلافة نحو الأكاسرة والأقاصرة فى المملكة.

كما كانت النبوة مخالفة للمُلك، جاءت الخلافة على غير سيرة الملوك من استخلاف أبنائهم وأهل بيتهم، ولو كان للمعقول والقياس مدخل فى التفضيل، لكان أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ الحسن ابنه لأن فيه النبوة، والعباس عمه إذ فيه الأبوة، وقد أجمعوا على خلاف ذلك، وأيضاً فلما سبق فى علم الله تعالى أن يجعل هؤلاء الأربعة خلفاء النبوة بما قدر الله من أعمارهم، فلم يكن يتم ذلك إلا بترتيبهم على ما رتبوا فى الخلافة، فكان آخرهم استخلافاً هو آخرهم موتاً، فدبر خلافتهم على ما علم من آجالهم، ووفى لهم بما وعدهم من استخلافهم فى الأرض، كما استخلف الذين من قبلهم من خلائف أنبيائهم السوالف، ومكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وبدلهم أمناً من بعد خوفهم، كما قال الصادق فيما عهد: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ التوبة ١١١، فذلك تأويل قوله عز وجل: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِى ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ النور ٥٥ الآية.

٥ أن يعتقد أن الإمامة فى قريش خاصة دون سائر العرب كافة إلى يوم القيامة، وأن لا يخرج على الأئمة بالسيف، ويصبر على جورهم إن كان منهم، ويشكر على المعروف والعدل،

ويطيع إذا أمر بالتقوى والبر، حتى تأتيه يد خاطئة أو منية قاضية، كذلك السنة.

قال أبو محمد سهل رحمه الله تعالى: هذه الأمة ثلاث وسبعون فرقة، اثنتان وسبعون هالكة، كلهم يبغضون السلطان، والناجية هذه الواحدة التى مع السلطان، وسئل: أى الناس خير؟ فقال: السلطان، قيل: كنا نرى أن شر الناس السلطان، فقال: مهلاً، إن لله تعالى فى كل يوم نظرتين نظرة إلى سلامة أموال المسلمين ودمائهم، ونظرة إلى سلامة أفكارهم، فيطالع فى صحيفته فيغفر له ذنوبه، وقال أبو محمد: الخليفة إذا كان غير صالح فهو من الأبدال، وإذا كان صالحاً فهو القطب الذى تدور عليه الدنيا، قوله: من الأبدال، يعنى أبدال المُلك، كما حدثنا عن جعفر بن محمد الصادق أنه قال: أبدال الدنيا سبعة على مقاديرهم يكون الناس فى كل زمان من العباد والعلماء والتجار والخليفة والوزير وأمير الجيش وصاحب الشرطة والقاضى وشهوده.

روينا فى الخبر: عدل ساعة من إمام عادل، خير من عبادة ستين سنة، ويقال: إن الإمام العادل يوضع فى ميزانه جميع أعمال رعيته، وكان عمرو بن العاص يقول: إمام غشوم خير من فتنة تدوم.

وقال النبى ﷺ: (يكون عليكم أمراء يفسدون، وما يصلح الله تعالى بهم أكثر، فإن أحسنوا فلهم الأجر وعليكم الشكر، وإن أساءوا فعليهم الوزر وعليكم الصبر)، وفى الخبر الآخر: (يليكم أمراء يقولون ما لا يعرفون، ويفعلون ما ينكرون، وفى لفظ: يفعلون ما لم يؤمروا، قلنا: أفلا نقاتلهم؟ قال: لا، ما صلوا)، وفى الحديث الآخر: (ما أقاموا الصلاة) وكان سهل رحمه الله تعالى يقول: من أنكر إمامة السلطان فهو زنديق، ومن دعاه السلطان فلم يجب فهو مبتدع، ومن أتاه من غير دعوة فهو جاهل، وكان يقول: الخشيبات السود المعلقة على أبوابهم أنفع للمسلمين من سبعين قاضياً يقضون فى المسجد، وقد كان أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى يقول: إذا كان السلطان صالحاً فهو خير من صالحى الأمة، وإذا كان فاسقاً فصالحوا الأمة خير منه، وهذا قول عدل.

٦ ولا يكفر أحداً من أهل القبلة – وإن عظم ذنبه – ولا ينزله جنة ولا ناراً بل يرجو

له ويخاف عليه، وإن من مات مصراً على الكبائر عن غير توبة منها، فى مشيئة الله تعالى إن أثبت وعيده عليه كان عدلاً، وإن عفا وسمح له بحقه كان ذلك منه فضلاً.

٧ ولا نحكم ولا نقطع على الله تعالى بشئ، ولا نوجب لنا عليه شيئاً، إنما نحن بين عدله وفضله، وبمشيئته واختياره، إن حقق علينا وعيده فنحن أهل ذلك، وإن غفر لنا فهو أهل التقوى وأهل المغفرة، كيف وقد روينا عن رسول الله ﷺ أنه قال: (من وعده الله تعالى على عمل ثواباً فهو منجزه له، ومن أوعده على عمل عقاباً فهو فيه بالخيار) والحديث الآخر أن النبى ﷺ سئل عن قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا﴾ النساء ٩٣، فقال: (جزاؤه جهنم إن جازاه) ففى كل قضاء الله تعالى حكمة بالغة وعدل وحكم صادق وحق.

٨ وأن يصدق بجميع أقدار الله تعالى، وأن خيرها وشرها من الله تعالى، سابقة فى علمه جارية فى خلقه بحكمه، وأنهم لا حول لهم عن معصيته إلا بعصمته، ولا قوة لهم على طاعته إلا برحمته، وأنهم لا يطيقون ما حملهم إلا به، ولا يستطيعون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً إلا بمشيئته.

ونؤمن بقدر الله وآياته فى ملكه وغيب ملكوته مما ذكر فى الأخبار من كراماته لأوليائه، وإجاباته لأحبائه، وإظهار القدرة للصديقين والصالحين، مزيداً لإيمانهم، وتثبيتاً ليقينهم، وتكرمة وتشريفاً لهم، وأنه ليس فى ذلك إبطال لنبوة الأنبياء، ولا إدحاض حججهم، من قبل أن هناك غير مثبتين ولا مخالفين للأنبياء، ولا ادعوا ما ظهر بحولهم وقوتهم، ولا أظهروا دعوة إلى أنفسهم، ولا تظاهروا به، ولا اجتلاباً للدنيا، ولا طلباً للرياسة على أهلها، وإنما هو شئ كشفه الله تعالى لهم من سر ملكوته كيف شاء، وأظهرهم عليه من غيب قدرته أين شاء كما شاء، تخصيصاً لهم وتعريفاً، وهم للأنبياء متبعون، وعلى آثارهم مقتفون، ولسنتهم مقتدون، فأتاهم الله تعالى ذلك ببركة الأنبياء، وبحسن اتباعهم لهم، ولأنهم إخوانهم أبدالاً لا أشكالاً لهم، وعنهم أمثالاً قد تواترت الأخبار عن الصحابة والتابعين الأخيار بما ذكرناه، فغنينا بالتواتر عن التناظر.

ثانياً الخصال التى هى فى الآخرة

١ أن يعتقد العبد مسألة منكر ونكير، يقعدان العبد فى قبره سوياً ذا روح وجسد فيسألانه عن التوحيد وعن الرسالة، وهى آخر فتنة تعرض على المؤمن، وهما فتنتا القبر.

كذلك روينا عن رسول الله ﷺ وهو معنى قول الله عز وجل: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ﴾ إبراهيم ٢٧، قيل: عند مسألة منكر ونكير: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ إبراهيم ٢٧.

٢ وعذاب القبر حق وحكمة وعدل على الجسم والروح والنفس، يشتركون فى ذلك حسب اشتراكهم فى المعصية، وإن كان نعيماً كان ذلك على الجسم والروح والنفس، يشتركون فى النعيم كما اشتركوا فى الطاعة، وهذا من أحكام الآخرة يكون بمجارى القدرة ليس على ترتيب المعقول، ولا عرف العقول، يوصل الله العذاب والنعيم إلى الأرواح والأجسام وهى متفرقة، فيتصل ذلك بهما كأنهما متفقان، وليس فى القدرة مسافة ولا ترتيب ولا بعد ولا توقيت.

٣ ويؤمن بالميزان ذى الكفتين واللسان أنه حق وعدل وحكمة وفضل، كما جاء وصفه فى العظم من أن طبقات السماوات والأرض توزن فيه والأعمال بقدرة الله تعالى والصنج يومئذ مثاقيل الذر والخردل بحقيقة العدل ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ طه ١١١، فتكون الحسنات فى صورة حسنة تطرح فى كفة النور فتثقل بها الميزان برحمة الله تعالى، وتكون السيئات فى صورة سيئة تطرح فى كفة الظلمة فيخف بها الميزان بعدل الله تعالى.

٤ ويعتقد أن الصراط حق على ما جاء وصفه فى الآثار كدقة الشعرة وحد السيف، وهو طريق الفريقين إلى الجنة أو النار، يثبت عليه أقدام المؤمنين بقدرة الله عز وجل فيحملهم إلى الجنة بفضل الله تعالى، وتزل عنه أقدام المنافقين فتهوى بهم فى النار بحكم الله عز وجل، وهو على متن جهنم بإذن الله تعالى، من قطعه نجا منها برحمة الله، ومن زل عنه وقع فيها بحكمة الله تعالى.

٥ ويؤمن بوقوع الحساب وتفاوت الخلق فيه، فمنهم من يحاسب حساباً يسيراً، ومنهم

من يدخل النار بغير حساب وهم الكافرون، وكان إمامنا محمد بن سهل رحمه الله تعالى يقول: يُسأل الأنبياء عن تبليغ الرسالة، ويُسأل الكفار عن تكذيب المرسلين، ويُسأل المبتدعة عن السُنة، ويُسأل المسلمون عن الأعمال، فقولنا لقوله تبع.

٦ ويؤمن بالنظر إلى الله عز وجل جلاله عياناً بالأبصار كفاحاً مواجهة تكشف الحجب والأستار، بقدرة الله ومشيئته ونوره ورحمته كيف شاء، وهو معنى قول الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ يونس ٢٦، فالحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى الله تبارك وتعالى، وكذلك فسره رسول الله ﷺ.

٧ ويعتقد إخراج الموحدين من النار بعد الانتقام، حتى لا يبقى فى جهنم موحد بفضل الله.

٨ ويعتقد بشفاعة الشافعين من النبيين والصديقين، وأن لكل مؤمن شفاعة بإذن الله، فيشفع النبيون والصديقون والعلماء والشهداء وسائر المؤمنين كل واحد وسع جاهه وقدر منزلته، أجمعت الرواة بذلك عن رسول الله ﷺ فى إثبات الشفاعة، وفى إخراج الموحدين من النار، وهم الجهنميون من أهل الطبقة العليا من النار، وهو معنى قول الله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ الحجر ٢، قال أهل التفسير: ذلك عند إخراج الموحدين من النار، ويبقى الباقى لرحمة أرحم الراحمين فيخرج من النار بمشيئته وسعة رحمته وفضل فضله، من لم يشفع لهم الشافعون، ولم يقدم فى الشفاعة لهم المرسلون، هكذا روينا معناه عن رسول الله ﷺ.

فهذه عقود السُنة الهادية، وطريقة الأمة الراضية، وقد أجمع السلف من المؤمنين على ما ذكرناه من قبل أنه لم ينقل عن أحد منهم خلافه، ولا روى عن رسول الله ﷺ ضده، بل قد روى فى كل ما ذكرناه أخبار توجب إيجابه، ومعان تشهد لإثباته، وتولى الله تعالى إجماعهم على سُنة رسول الله ﷺ، كما تولى إظهار دينه على الدين كله.

* * *

لا تجتمع أمتى على ضلالة

وروينا عن النبى ﷺ: (إن الله عز وجل ضمن لى – وفى لفظ أخر: أعطانى – أن لا تجتمع أمتى على ضلالة، فإذا رأيتم خلافاً فكونوا مع السواد الأعظم)، والسواد الأعظم يعبر به عن الكثرة، فالمختلفون متفقون على أن السواد الأعظم ما عليه العامة من المسلمين والكافة من العموم، وأن المبتدعة والمخالفة لما ذكرناه إنما هم فرق وشراذم قليلون، وشيع وأحزاب متفرقون، لأن كل مبتدعة منهم فرقة، وكل شرذمة منهم مختلفة، وليس السواد الأعظم والجم الغفير الدهماء إلا أهل السُنة والجماعة وهم السواد والعامة، ولذلك كان عمر بن عبد العزيز وغيره من الصالحين يقولون: ديننا دين العجائز وصبيان المكاتب ودين الأعراب، أى هو القوى السليم العام، وفسر ذلك رسول الله ﷺ فى الحديث الآخر فقال: (من كان على ما أنتم عليه اليوم).

فأجمعت الأمة على أن ما أحدثت الفرق المختلفة لم تكن عليه الصحابة، ولا تكلموا فيه ولا نقل عنهم، وأنهم كانوا على ما ذكرناه آنفاً، لأنه لم يرو عن أحد منهم خلافه، بل قد نقل عنهم وفاقه فى القرن الأول والثانى، ثم حدث ما ذكرناه من الخلاف فى بعض القرن الثالث وفى القرن الرابع، وقد كان عمرو بن دينار وأيوب وحماد بن زيد إذا ذكر أحدهم الإرجاء ومذهب جهم يقول: لعن الله ديناً أنا أكبر منه، يعنى أنه سبق حدوث هذه المذاهب التى تدين بها المبتدعون، فلله الحمد رب السماوات ورب الأرض رب العالمين على حسن توفيقه وجميل هدايته، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

الجماعة خير من الفرقة

فنعمة الله تعالى علينا بالسُنة كنعمته علينا بالإسلام، إذ نعمته علينا برسول الله ﷺ كنعمته علينا بمعرفته لاقتران طاعته بطاعته ولحاجة الكتاب العزيز إلى تفسير سُنته، وقد روينا فى حديث عمر عن رسول الله ﷺ: (الشيطان مع الواحد وهو مع اثنين أبعد، ذئب أحدكم كذئب الشاة يتبع الشاذة والقاصية، فمن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، ومن شذ ففى النار).

وروينا عن أبى غالب عن أبى إمامة: أنه نظر إلى رؤوس الحرورية جئ بها من البصرة، فنصبت على الخشب بدمشق، قال: شر قتلى تحت ظل السماء وخير قتلى من قتلوه، ثم قال: كلاب النار، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ آل عمران ٧، ثم قرأ: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ آل عمران ١٠٦، ويشير بإصبعه إليهم ثم بكى، فقلت: يا أبا إمامة تقول فيهم ما تقول ثم تبكى؟ فقال: قاتل الله إبليس، ما صنع بهؤلاء الناس يا أبا غالب، إنهم كانوا على ديننا فأبكى مما هم لاقون، هؤلاء بأرضك كثير، فأعيذك بالله منهم- ثلاث مرات - فقلت: آمين، يا أبا إمامة أشئ سمعته من رسول الله ﷺ، أو شئ تقوله من قبل رأيك؟ قال: إنى إذاً لجرئ - ثلاث مرات - لقد سمعت رسول الله ﷺ غير مرة ولا مرتين ولا ثلاث ولا أربع، يقول: (تفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، تزيد أمتى عليها فرقة، كلها فى النار إلا السواد الأعظم) فقال رجل كان معنا: يا أبا إمامة إن فى السواد الأعظم بنى فلان، قال: وإن فعلوا، فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم، والجماعة خير من التفرقة، والطاعة خير من المعصية.

ثم نظر إلى الرؤوس فقال: أيغضبون لنا ويقتلوننا؟ هذه رؤوس الخوارج وهم الحرورية الذين خرجوا على أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضي الله عنه بالنهروان، وهم أول قرن نبع من المبتدعة، وأول بدعة ابتدعت فى الإسلام، وكانوا قراء، المصاحف فى أعناقهم والسجادات كركب المعزى فى جباههم، فأنكروا عليه تحكيم الحكمين، وسألوه أن ينقض حكمه فيرجع عنه، وقالوا: لا حكم إلا لله، وأنكروا أمر السلطان، ورأوا الخروج على الإمام، وكفروا عثمان، وصوبوا قتل غوغاء المصريين له، وطالبوا علياً عليه السلام أن يوافقهم على رأيهم ويتابعهم على أهوائهم، على أن يقاتلوا معه المسلمين إن رجع عن تحكيم الحكمين، وكفروا أهل الكبائر بالمعاصى.

فرأى علىٌّ ما أراه الله تعالى، وبما عهد إليه رسول الله ﷺ من قتل المارقين، فقتلهم فهؤلاء فى النار، وقاتلهم علىٌّ وأصحابه خير أهل الأرض فى الجنة، وكان رئيسهم فى الضلال وقاتلهم فى القتال عبد الله بن الكوا الأعور، قد كان علىٌّ يبغضه ويسبه قبل أن يظهر منه ما ظهر، فخرج عليه عبد الله بن الكوا فى ستة آلاف، فأرسل علىٌّ عليه السلام عبد الله بن عباس

إليهم يناظرهم ويحاجهم، فسبوه وبطشوا به، وجرأهم عليه ابن الكوا هذا فقام خطيباً فيهم فقال: أتعرفونى بهذا، أنا أعرفكموه، هذا من القوم الذين قال الله فيهم: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ الزخرف ٥٨، ثم تراجع بعضهم إلى ابن عباس فسأله فكشف له عن الحق، واستتاب منهم الفين، وقاتل علىٌّ كرم الله وجهه أربعة آلاف مرقت من الدين، واتبعت غير سبيل المؤمنين، ثم افترقت الفرقة الثانية بالمدائن فرأوا دين الإرجاء، وأن الإيمان قول وعمل، وأنه لا يزيد ولا ينقص، وكتب بذلك إلى أمير الشام، فَهَمَّ بقتالهم، ثم شُغل عنهم بقتال الروم.

ثم افترقت الفرقة الثالثة بالبصرة، وهم القدرية إمامهم معبد الجهنى وتابعه عمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء الغزال وأصحابهم.

ثم خرجت الفرقة الرابعة من الكوفة وهى الرافضة، سموا بذلك لما رفضوا علىَّ بن الحسين حين خرج يقاتل هشاماً فقالوا له: أتبرأ من أبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما؟ قال: هما جداى إماما عدل لا أتبرأ منهما، فرفضوه، ثم افترقت كل فرقة ثمانى عشرة فرقة، فتمت اثنتان وسبعون فرقة وكلها نبع بأرض العراق، ومنه طلع قرن الشيطان وظهرت الفتن، نعوذ بالله منها ما ظهر منها وما بطن.

وقد روينا عن ابن عباس عن النبى ﷺ: (إن لله عز وجل ثلاثة أملاك، ملك على ظهر بيت الله تعالى، وملك على مسجد رسول الله ﷺ، وملك على ظهر بيت المقدس، ينادون فى كل يوم، يقول الملك الذى على ظهر بيت الله تعالى: من ضيع فرائض الله خرج من أمان الله، ويقول الملك الذى على ظهر مسجد رسول الله ﷺ: من خالف سُنة رسول الله ﷺ لم تنله شفاعة رسول الله ﷺ، ويقول الملك الذى على ظهر بيت المقدس: من أكل حراماً لم يقبل منه صرف ولا عدل).

* * *

طريقة الحكماء فى معرفة الله تعالى

التى استنبطوها من القرآن وحكموا أنها هى الطريقة الشرعية بحسب رأيهم

قالوا: الطريق التى نبه الكتاب العزيز عليها، ودعا الكل من بابها، إذا تأمل المفكر فى آيات كتاب الله تعالى، تبين له أن طريق معرفة الله محصورة فى جنسين:

١ **دليل العناية**: طريق التحقيق بعناية الله تعالى بالإنسان، وخلق جميع الموجودات من أجله، وهى الحجة الأولى وتسمى دليل العناية.

٢ **دليل الإحداث والإبداع**: إبداع وإحداث الأشياء الموجودة كلها، وهذه تسمى دليل الإحداث والإبداع.

أما طريق العناية فتنبنى على أصلين

أ أن جميع ما نراه فى السماوات وفى الأرض موافق لوجود الإنسان.

ب أن هذه الموافقة هى ولا شك من قبل فاعل مريد لذلك، مدبر له مختار، إذ ليس بممكن أن تحصل هذه الموافقة بالاتفاق، فأما كونها موافقة لوجود الإنسان فبديهى، لموافقة الليل والنهار والشمس والقمر والمكان، وموافقة أكثر الحيوان والنبات والجماد والأمطار والأنهار والبحار والأرض والماء والنار والهواء، وتظهر العناية جلية فى أعضاء البدن، ومن عرف منافع الموجودات المعرفة التامة وعرف نفسه عرف ربه.

وأما دلالة الإحداث والإبداع

فيدخل فيها وجود الحيوان والنبات والسماوات، وتنبنى هذه الطريقة على أصلين موجودين بالقوة فى جميع فطر الناس:

أ أن هذه الموجودات مبدعة، وهذا معروف بنفسه من الحيوان والنبات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ الحج ٧٣، فإنا نرى أجساماً جمادية ثم

تحدث فيها الحياة، فنعلم قطعاً أن هاهنا موجداً للحياة ومنعماً بها وهو الله تبارك وتعالى، وأما السماوات فنعلم من قبل حركاتها التى لا تفتر أنها مأمورة بالعناية بما هاهنا ومسخرة لنا، والمسخر المأمور مُبدَع ومُحدَث من قبل غيره ضرورة.

ب أن كل مُبدَع - بفتح الدال - له مُبدِع - بكسر الدال - فيصح من هذين الأصلين أن للوجود فاعلاً مبدعاً له، وفى هذا الجنس دلائل كثيرة فى عدد المبدعات، ولذلك كان واجباً على من أراد معرفة الله حق معرفته أن يعرف جواهر الأشياء، ليقف على الإبداع الحقيقى فى جميع الموجودات، لأن من لم يعرف حقيقة الشئ لم يعرف حقيقة الإبداع، وإلى هذه الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ﴾ الأعراف ١٨٥، وكذلك أيضاً من تتبع معنى الحكمة فى وجود موجود - أعنى معرفة السر الذى من أجله خلق والغاية المقصودة به - كان وقوفه على دليل العناية أتم.

فهذان الدليلان هما دليلا الشرع، وأما أن الآيات المبنية على الأدلة المفضية إلى وجود الصانع سبحانه فى الكتاب العزيز، فهى منحصرة فى هذين الجنسين من الأدلة، وذلك بين لمن تأمل الآيات الواردة فى الكتاب العزيز فى هذا المعنى، وذلك أن الآيات التى فى الكتاب العزيز فى هذا المعنى، إذا تصفحت وجدت على ثلاثة أنواع:

أ آيات تتضمن التنبيه على دلالة العناية.

ب آيات تتضمن التنبيه على دلالة الإبداع.

ج آيات تجمع الأمرين من الدلالتين جميعاً.

١ فأما الآيات التى تتضمن دلالة العناية فقط فمثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ النبأ ٦، إلى قوله: ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ النبأ ١٦، ومثل قوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ الفرقان ٦١، ومثل قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾ عبس ٢٤، الآية . ومثل هذا كثير فى القرآن.

٢ وأما الآيات التى تتضمن دلالة الإبداع فقط، مثل قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ الطارق ٥-٦، ومثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ الغاشية ١٧ الآية، ومثل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ الحج ٧٣، ومن هذا قوله تعالى حكاية عن قول إبراهيم: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الأنعام ٧٩، إلى غير ذلك من الآيات التى لا تحصى.

٣ وأما الآيات التى تجمع الدلالتين فهى كثيرة أيضاً، بل هى الأكثر، مثل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ البقرة ٢١، إلى قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ البقرة ٢٢، فإن قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ البقرة ٢١، تنبيه على دلالة الإبداع، وقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ البقرة ٢٢، تنبيه على دلالة العناية، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ يس ٣٣، وقوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ آل عمران ١٩١، وأكثر الآيات الواردة فى هذا المعنى، يوجد فيها النوعان من الدلالة.

فهذه الطريق هى الصراط المستقيم، التى دعا الله الناس منها إلى معرفة وجوده، ونبههم على ذلك بما جعل فى فطرتهم من إدراك هذا المعنى، وإلى هذا المعنى وإلى هذه الفطرة الأولى المغروزة فى طباع البشر الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الأعراف ١٧٢، إلى قوله: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ﴾ الأعراف ١٧٢، ولهذا فقد يجب على من كان قصده طاعة الله فى الإيمان به، وامتثال ما جاءت به رسله، أن يسلك هذه الطريقة حتى يكون من العلماء الذين يشهدون لله تعالى بالربوبية، مع شهادته لنفسه وشهادة ملائكته له، كما قال تبارك وتعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ آل عمران ١٨، ومن الدلالات الموجودات من هاتين الجهتين عليه، هو التسبيح المشار إليه فى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ الإسراء ٤٤، فقد بان من هذه الأدلة على وجود الصانع، أنها منحصرة فى هذين الجنسين دلالة العناية ودلالة الإبداع والإحداث، وتبين أن هاتين الطريقتين هما بأعيانهما طريقة الخواص، وأعنى

بالخواص العلماء، وطريقة العامة، وإنما الاختلاف بين المعرفتين فى التفصيل، أعنى أن العامة يقتصرون من معرفة العناية والإبداع على ما هو مدرك بالمعرفة الأولى المبنية على علم الحس، وأما العلماء فيزيدون على ما يدرك من هذه الأشياء بالحس، ما يدرك بالبرهان - أعنى من العناية والإبداع، حتى لقد قال بعض العلماء: إن الذى أدركه العلماء من معرفة أعضاء الإنسان والحيوان هو قريب من كذا وكذا آلاف منفعة، وإذا كان هذا هكذا فهذه الطريقة هى الطريقة الشرعية والطبيعية، وهى التى جاءت بها الرسل ونزلت بها الكتب.

والعلماء لا يفضلون العامة فى هذين الاستدلالين من قبل الكثرة فقط، بل ومن قبل التعمق فى معرفة الشئ الواحد نفسه، فإنه مثال العامة فى النظر إلى الموجودات، مثالهم فى النظر إلى المصنوعات التى ليس عندهم علم بصنعتها، فإنهم إنما يعرفون أمرها أنها مصنوعات فقط، وأن لها صانعاً موجوداً، ومثال العلماء فى ذلك مثال من نظر إلى المصنوعات التى عنده علم ببعض صنعتها وبوجه الحكمة فيها، ولا شك أن من حاله من العلم بالمصنوعات هذه الحال، هو أعلم بالصانع من جهة ما هو صانع، من الذى لا يعرف من تلك المصنوعات، إلا أنها مصنوعة فقط.

وأما مثال الدهرية فى هذا - وهم الذين جحدوا الصانع سبحانه - فمثال من استحسن مصنوعات فلم يعترف أنها مصنوعات، بل ينسب ما رأى فيها من الصنعة إلى الاتفاق، والأمر الذى يحدث من ذاته.

إذا تقرر ذلك، فما طريقهم فى وحدانيته سبحانه؟ قالوا: إن طريق الشرع فى ذلك الطريق التى نص عليها الله تعالى فى كتابه العزيز، وذلك فى ثلاث آيات إحداها قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ الأنبياء ٢٢، والثانية قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ المؤمنون ٩١، والثالثة قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ الإسراء ٤٢.

فأما الآية الأولى فدلالتها مغروزة فى الفطر بالطبع، وذلك أنه من المعلوم بنفسه أنه إذا كان ملكان كل واحد منهما فعله فعل صاحبه إنه ليس يمكن أن يكون عن تدبيرهما مدينة

واحدة، لأنه ليس يكون عن فاعلين من نوع واحد، فعل واحد، فيجب ضرورة إن فعلا معاً أن تفسد المدينة الواحدة، إلا أن يكون أحدهما يفعل ويبقى الآخر عاطلاً وذلك منتف فى صفة الألوهية، فإنه متى اجتمع فعلان من نوع واحد على محل واحد، فسد المحل ضرورة، هذا معنى قوله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ الأنبياء ٢٢، وأما قوله تعالى: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ الأنبياء ٢٣، فهذا رد منه على من يضع آلهة كثيرة مختلفة الأفعال، وذلك أنه يلزم فى الآلهة المختلفة الأفعال التى لا يكون بعضها مطيعاً لبعض، أن لا يكون عنها موجود واحد، ولما كان العالم واحد وجب أن لا يكون موجوداً عن آلهة متفقة الأفعال.

وأما قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ الإسراء ٤٢، فهى كالآية الأولى، أعنى أنه برهان على امتناع إلهين فعلهما واحد، ومعنى هذه الآية أنه لو كان فيها آلهة قادرة على إيجاد العالم وخلقه غير الإله الموجد، حتى تكون نسبته من هذا العالم نسبة الخالق له، لوجب أن يكون على العرش معه، فكان يوجد موجودان متماثلان ينسبان إلى محل واحد نسبة واحدة، فإن المثلين لا ينسبان إلى محل واحد نسبة واحدة، لأنه إذا اتحدت النسبة اتحد المنسوب، أعنى لا يجتمعان فى النسبة إلى محل واحد، كما لا يحلان فى محل إذا كانا مما شأنهما أن يقوم بالمحل، وإن كان الأمر فى نسبة الإله إلى العرش ضد هذه النسبة، أعنى أن العرش يقوم به، لا أنه يقوم بالعرش، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ البقرة ٢٥٥، فهذا هو الدليل الذى بالطبع أو الشرع فى معرفة الوحدانية.

وأما الفرق بين العلماء والعامة فى هذا الدليل، فهو أن العلماء يعلمون من إيجاد العالم، وكون أجزائه بعضها من أجل بعض منزلة الجسد الواحد، أكثر مما يعلمه العامة من ذلك، ولهذا المعنى الإشارة بقوله تعالى فى آخر الآية: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ الإسراء ٤٣-٤٤.

* * *

الصفات الواجبة لله سبحانه وتعالى

طريقهم فى إثبات الصفات لله تعالى قالوا: هى التى صرح الكتاب العزيز بها، وهى الصفات الثابتة للمبدع الحكيم موجد جميع العالم، وهى الصفات السبع التى تشاهد فى الإنسان وبها كماله، وهى العلم والحياة والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام.

١ فأما العلم فقد نبه الكتاب العزيز على وجه الدلالة عليه فى قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ الملك ١٤، ووجه الدلالة أن المصنوع يدل من جهة الترتيب الذى فى أجزائه، أعنى كون صنع بعضها من أجل بعض، ومن جهة موافقة جميعها للمنفعة المقصودة بذلك المصنوع، أنه لم يحدث عن صانع هو طبيعة، وإنما حدث عن صانع رتب ما قبل الغاية قبل الغاية، فوجب أن يكون عالماً به، مثال ذلك:

أن الإنسان إذا نظر إلى البيت، فأدرك أن الأساس إنما صنع من أجل الحائط، وأن الحائط من أجل السقف، تبين أن البيت إنما وجد عن عالم بصناعة البناء وهذه الصفة هى صفة قديمة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾ الأنعام ٥٩، فينبغى أن يوضع فى الشرع أنه عالم بالشئ قبل أن يكون على أنه سيكون، وعالم بالشئ إذا كان على أنه قد كان، وعالم بما قد تلف أنه قد تلف فى وقت تلفه، وهذا هو الذى تقتضيه أصول الشرع، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ مريم ٦٤.

٢ وأما صفة الحياة فظاهر وجودها من صفة العلم، وذلك أنه يظهر فى الشاهد أن من شرط العلم الحياة، والشرط عند المتكلمين يجب أن ينتقل فيه الحكم من الشاهد إلى الغائب، وما قالوه فى ذلك صواب.

٣ وأما صفة الإرادة فظاهر اتصافه بها، إذ كان شرط صدور الشئ عن الفاعل العالم أن يكون مريداً له.

٤ وكذلك من شروطه أن يكون قادراً، قال جل ثناؤه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ النحل ٤٠.

٥ فإن قيل: فصفة الكلام له من أين تثبت له؟ قلنا: ثبتت له من قيام صفة العلم به، وصفة القدرة على الإبداع، فإن الكلام ليس شيئاً أكثر من أن يفعل المتكلم فعلاً يدل به المخاطب على العلم الذى فى نفسه، أو يصير المخاطب بحيث ينكشف له ذلك العلم الذى فى نفسه، وذلك فعل من جملة أفعال الفاعل، وإذا كان المخلوق الذى ليس بفاعل حقيقى – أعنى الإنسان – يقدر على هذا الفعل من جهة ما هو عالم قادر، فإنه بالحرى أن يكون ذلك واجباً على الفاعل الحقيقى، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ الشورى ٥١، فالوحى هو وقوع ذلك المعنى فى نفس الموحى إليه بغير واسطة لفظ يخلقه، بل بانكشاف ذلك المعنى له بفعل يفعله فى نفس المخاطب، كما قال تبارك وتعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ النجم ٩–١٠.

ومن وراء حجاب هو الكلام الذى يكون بواسطة ألفاظ تنكشف فى نفس الذى اصطفاه بكلامه، وهذا هو كلام حقيقى، وهو الذى خص الله به موسى، ولذلك قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ النساء ١٦٤.

وأما قوله تعالى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ الشورى ٥١، فهذا هو القسم الثالث، وهو الذى يكون منه بواسطة الملك، فقد تبين لك أن القرآن الذى هو كلام الله قديم، وأن اللفظ منزل من الله تعالى، وبهذا باين لفظ القرآن الألفاظ التى ينطق بها فى غير القرآن، ومن لم يفهم هذا على هذا الوجه، لم يفهم هذه الصورة ولا يفهم كيف يقال فى القرآن إنه كلام الله تعالى، وأما الحروف التى فى المصحف فإنما هى من صنعنا بإذن الله تعالى، وإنما وجب لها التعظيم لأنها دالة على كلام الله تعالى.

٦ و٧ وأما صفتا السمع والبصر فإنما أثبتهما الشرع لله تبارك وتعالى من قبل أن السمع والبصر يختصان بمعان مدركة فى الموجودات، ليس يدركها العقل، ولما كان الصانع من شرطه أن يكون مدركاً لكل ما فى المصنوع وجب أن يكون له هذان الإدراكان، فواجب أن يكون عالماً بمدركات البصر، وعالماً بمدركات السمع، إذ هى مصنوعات له وهذه كلها منبهة على وجودها للخالق سبحانه فى الشرع من جهة تنبيه على وجود العلم له، وبالجملة فما

يدل عليه اسم الإله واسم المعبود يقتضى أن يكون سميعاً بصيراً، لأنه من العبث أن يعبد الإنسان من لا يدرك أنه عابد له، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ مريم ٤٢ وقال تعالى: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ الأنبياء ٦٦، فهذا القدر مما يوصف به الله سبحانه وتعالى ويسمى به، هو القدر الذى نص الشرع أن يعلمه العامة، لا غير ذلك.

ومن البدع التى حدثت فى هذا الباب السؤال عن هذه الصفات: هل هى الذات أم زائدة على الذات؟ أى: هل هى صفة نفسية أو صفة معنوية؟ وتلك البدعة أوقعت فى اختلاف عظيم بين المسلمين، وضياع نفائس الوقت فى الجدل والمعارضات، فمن أراد السلامة والأمن والنجاة يوم القيامة، فليلزم سبيل السلف الصالح، ومنهج الجماعة، والتمسك بسُنة رسول الله ﷺ، عاملاً بها غير ملتفت إلى محدثات البدع ومختلفات الآراء وبواعث الحظ والهوى، والله أسأل أن يجعل لنا نوراً فى قلوبنا، وأن يمنحنا سبحانه الفقه عنه، وأن يسلمنا من البدع المضلة والضلال، إنه مجيب الدعاء، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الركيزة الثالثة: المعاملة

هى إما معاملة الله تعالى أو معاملة خلقه، أما معاملة الخلق، فإن الله سبحانه خلق الخلق محتاجاً بعضهم إلى بعض، لا يمكن لواحد منهم أن يقوم بضرورياته، فضلاً عن كمالياته، إلا بمساعدة كثير من بنى جنسه، ليقوم كل واحد منهم بعمل للآخر، فكان من الحكمة وجود المبادلة، والمبادلة تؤدى إلى المفاوضة، وقد تؤدى المفاوضة إلى المعارضة، ولا تطمئن القلوب إلا بحكم الحكم العدل، فأنزل الله تعالى أحكام المعاملات فى كتابه العزيز، وبين لنا رسول الله ﷺ ذلك، فمن أراد أحكام البيع والشراء والكفالة والحوالة والرهن والشركة والإجارة وغير ذلك، فليراجع ذلك فى كتاب " أصول الوصول" ولكنى فى هذا المختصر أحببت أن أبين فضائل المعاملة، ومعاملة السلف الصالح، ولما كانت معاملة الله سبحانه وتعالى قاصرة على علم القلوب، قد بينت ذلك فى علوم اليقين، من كتاب " أصول الوصول" فما بقى إلا أن أشرح فضائل المعاملة، فأقول وبالله التوفيق:

المعاملات وفضائل المعاملين

المعاملة هى المقام العلى، الذى يتفاضل فيه المسلمون، ويتسابق فيه أهل النفوس العالية، لأنه نتيجة اليقين الكامل بالتوحيد الخالص من شوائب الشكوك، وأدران الحظوظ، ورين التقليد والعصبية، حتى أن الإنسان ليكون أقرب من الملائكة عند الله تعالى، وأحب إلى النفس عند العقلاء من إخوانه بحسن معاملته وجميل أخلاقه، حتى يبلغ درجة من السعادة فى الدنيا والآخرة لا يبلغها الشهداء.

وقد حصر رسول الله ﷺ الدين فى المعاملة حصراً حقيقياً، لأن الدين هو معاملة دائرة بين حقوق عليك لله تعالى ولرسوله ﷺ، ولوالديك وأهلك وأرحامك، وخاصة المسلمين وعامتهم، وجميع بنى آدم، وجميع الحيوانات الحية.

فما من رتبة فى الوجود إلا وأنت تطالبها بحق، وتطالبك بحق، فإذا حسنت معاملتك مع كل رتبة، كنت مسلماً كامل الإسلام.

إذن فالدين المعاملة لا شك، وبها السعادة فى الدنيا والآخرة، والمعاملة نتائج العقيدة، فإن العقيدة تحقق صاحبها بأن له إلهاً متصفاً بجميع الجمالات والجلالات والكمالات، منفرداً بالإرادة والمشيئة فى إيجاد كل موجود، وإمداده بما به بقاؤه، وهو المقدر لكل شئ، وإليه يرجع كل شئ.

فإذا تحقق فى هذا راقبه فى خلقه وعامله فى عباده، فلا يتحرك حركة ولا يتنفس نفساً، إلا وهو ملاحظ عظمة هذا الرب الجبار المقدر المنفرد بالتقدير، فيجعل كل حركاته وسكناته فيما يرضيه، وبما به يفوز لديه بنعيم جزائه، فتحسن معاملته لكل كائن حى، ومراقبته للخالق.

نموذج من حسن المعاملة

وإليك نموذج من حسن المعاملة: إذا تحققت أنك تساء إذا اغتابك آخر، أو سعى فى مضرتك مالاً أو جاهاً أو منزلة، أو استهان بك فى حضورك أو غيبتك، وأنك بهذا تميل إلى الانتقام منه بحولك وقوتك بأكثر مما بلغك عنه، وتتلذذ بمضرته، وينشرح صدرك لذلك وتستحسنه، ولا تقبل نصيحة من ناصح فيه، فأحرى بك أن تمتنع عن أن تعمل فى أخيك ما به يحصل له ما كان حاصلاً لك، فإذا وقعت فى مثل هذا فاعتقد أن أخاك له العذر، وبادر إليه معتذراً لتزيل ما به من نار الغيظ، واسع فى معاملة الناس بما تحب أن يعاملوك به مع المحافظة على النصيحة لهم بطريقتها الشرعية المألوفة للعقل والمروءة، واضعاً نفسك موضع من تنصحه، وأنه هو الناصح لك، فتستعمل الدواء الذى تحب أن تستعمله لنفسك عند انحراف مزاجك، ولا تنس مراقبة الحق، والإخلاص لذاته سبحانه وتعالى فى كل ذلك، حتى تفوز برضاء الله تعالى، ورضاء إخوانك، ورضاء الفضيلة.

وليس كل من صلى وصام وزكى وحج يكون كامل الإسلام حتى تكمل أخلاقه، وتطهر صفاته وتزكو نفسه، فإن تلك الأعمال تنهى عن الفحشاء والمنكر لمن قام بها، عاملاً بحقائقها، مراقباً فى عملها مكانته من العبودية، ومكانة من قام بها لذاته العلية من الألوهية والعظمة، والقدرة والعزة والقوة، منزهاً جنابه العلى عن العلة والغرض والشريك والمعاون،

حتى يتحقق بمقام الخوف والخشية والرهبة من جلاله وكبريائه، وبذلك تتزكى نفسه وتتهذب أخلاقه، وتحسن معاملته لجميع إخوانه والناس أجمعين، وإذا كانت المقدمات لا تنتج فهى على غير وجهها الذى وضعت له، وإذن لا تنتج فى الآخرة.

وإن كثيراً من المسلمين فى هذا الزمان، يتساهل فى القيام بأركان الدين، مادام فى عافية من الأمراض والفقر والخوف، بل تأخذه العزة بالإثم فيعتقد عقيدة قارون ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ القصص ٧٨، فيتكبر ويستهين بأعمال البر ومكارم الأخلاق ومعاملة ربه، ويزدرى بالقربات وبأهل التمسك بالدين، ويفتخر بأعمال الفجار، والمتهتكين وغيرهم، حتى إذا نزلت به نازلة المصائب، وفاجأته فاجئة البلايا ﴿نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ الزمر ٨، وندم على ما فرط، وسعى لأهل الصلاح تائباً مبتهلاً، وأقبل على الله سبحانه، ولكن قل أن ينفعه إقباله، لأنه مخادع كاذب فى دعواه، وما رجع به إلى الله سبحانه إلا سوط النقمة وبادرة البلية.

فالعاقل من تقرب إلى الله فى الرخاء، حتى يتقرب الله تعالى إليه فى الشدائد، هذا وإن لم تبادره المصائب فى حياته، واستدرجه الله سبحانه حتى غادرته منيته، وفاجأته المنون ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ الروم ٥٧.

وكثير منهم من يكثر الصلاة والصيام وغيرهما، مع قيامه بمضرة إخوانه المسلمين، وانتقادهم وإساءتهم وإظهار عيوبهم بغير أسلوب النصيحة، ويبيت الليل والنهار بين غيبة ونميمة، وتنقيص المسلمين، وسعى فى مضرة أفرادهم، ويحسب أنه يحسن عملاً، مع أنه والعياذ بالله أشبه إبليس فى علمه وعمله، وبحقك متى يكون المشابه لإبليس مسلماً حقيقة؟!

فيا أيها المسلم تحقق أن المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه، أتحسب أن الإسلام طهارة بالماء؟! الماء لا يطهر الخبائث النفسانية، ولا يزكى النفوس الشيطانية، ولا يكون المسلم مسلماً إلا إذا أحب لأخيه ما يحب لنفسه، وبذلك يحسب مسلماً حقاً عدلاً عند الله وعند عباده.

* * *

معالمُ السير بعد يقين إيماني ... منها خفى وما قد تشهد العيان

أما الجلى فأعمال الجوارح قد ... وضحت معالمُها بدليل تبيان

هى الصلاةُ صيامٌ والزكاةُ كذا ... والحجُّ والنطقُ بالتهليل بلسان

ورحمةٌ لجميع الخلق عن عمل ... بالقول والفعل فى عجز وإمكان

برُّ الأقارب والأرحامِ وصلتهم ... بالمال والبشر أو بعلوم عرفان

ودُّ البعيد وإكرام الضيوف به ... نيلُ القبول وإحسان لجيران

وغضُّ بصر عن السواء حفظُ يدٍ ... عن الدنئ وعن زور وبهتان

حفظُ اللسانِ عن القولِ القبيح وعن ... كشفِ الستائر عن قاصٍ وعن دان

ولا تأكلَنَّ طعاماً تدر شبهتَه ... وازهد ففى تركه للمرء حصنان

والفرجَ فاحفظه ولا تهتك محارمَه ... ففى الزنا من نعيم كلِّ حرمان

واستحى من عالمٍ يراك مرتكباً ... تلك الفظائعَ وَاخْشَ حرَّ نيران

إياك والقتل للنفس البريئة إذ ... فيه الخلود وفيه كل خسران

ولا تَمُدَّنْ يداً للمال تأخذه ... إلا بحقٍّ بدا فى نص فرقان

والأهلَ والصحبَ والإخوانَ تكرمهم ... بكل لطف ولا تظهر كشيطان

ومن تولاك من خدم ومن حشم ... فراع جانبَ قهارٍ وسلطان

واعلم بأنك عبدٌ واجتنبْ سفهاً ... ودع حماقةَ مغرورٍ وغفلان

واحفظ مواهبَ مولاك التى وُهبت ... بالفضلِ تحظى بإحسانٍ ورضوان

واسترع ما أنت ترعاه بمرحمةٍ ... فكلُّ حيٍّ له حقٌّ ببرهان

الحقوق ثلاثة

حق فيك ❖ حق عليك ❖ حق لك

١ الحق الذى فيك

ولا يتسنى للإنسان أن يفى بما عليه وما له إلا بعلم ما فيه، لأنهما لازمان له وناتجان عنه، وعلمه محظور على من ليس له قلب، لأنه علم بأسرار عالية ومعان غيبية، وأنوار بالحس والحظ والشهوة والهوى محجوبة.

علم به التحقق بما أودع فى العالم من الخواص والفوائد والفطر، وما امتاز به الإنسان من الفضل والإكرام، حتى سخر له كل كائن من عوالم الإمكان.

علم تنكشف به حقيقة النفس، وتظهر به خفيات الحكمة القدسية، وأسرار المعانى العلية، حتى يعرف الإنسان ما فيه من الحكم الربانية، وما أبدعته يد القدرة الإلهية، وجملته به من الصفات، وحلته به من الكمالات، حتى أفرغ فى أجمل الصور، وظهر فى أكمل هيئة، سميعاً مبصراً مفكراً عالماً قادراً مريداً عاقلاً قاهراً لما دونه، مسخراً كل شئ لإرادته، باحثاً فى كل شئ، مخترعاً مبدعاً يدرك ما غاب بما شهد، ويعلم ما احتجب بما ظهر.

علم: هو العلم، من جهله فهو دون مرتبة الحيوان الأعجم - وإن ملك الأرض وما فيها - لأنه بجهله بنفسه لم يملكها، ومن لا يملك نفسه كيف يملك غيره؟! وإنما مثاله كمرض قام بجسد قوى أرقده، فهو يعالج خلاصه منه، مع خضوعه له وإذلاله لحكمه، حتى إذا قوى وزال مرضه فارقه وهو عدو له فى الحالين.

أما من علم هذا العلم، فإنه يملك نفسه، ومتى ملك نفسه، صار كل كائن خاضعاً له، مقتدياً به منقاداً لأوامره.

وهذا الحق الذى هو فى الإنسان: سر الإيجاد والإمداد المفاض من الله سبحانه، لأن الإنسان إما عدم أو طين أو ماء مهين، فهذه المراتب لا يخرج عنها فى الحقيقة، وما زاد عليها

بفيض من المنعم المتفضل المبدئ المعيد بديع السماوات والأرض، فلو كوشف بتلك الأسرار، وتحقق بما ظهر له فيه، كملت معانيه وتيسرت أمانيه، وصار عبداً لخالقه وبارئه، ملكاً حراً لا عبودة فيه لغير مولاه، الذى بمحض الفضل من العدم أنشأه ووالاه، وهذا الخفى الجلى، والنور الكامن المضئ، لا يظهر لطالبه الصادق، ولا يشهد لمريده المخلص، إلا ببيان المرشد الكامل بعد العلم والعمل والرياضة، وترك الحظ والأمل، لأنه حق مبين، ولكنه على عن عقول العالمين.

٢ الحق الذى عليك

إذا تحققت بما فيك، انكشف لك نور الحكمة فى كل شئ، وعلمت مراتب الوجود، ونسبة كل مرتبة إلى موجد الوجود، فقمت عاملاً لله سبحانه، قائماً بتوفيقه فى علمه سبحانه الذى أوجبه عليك، بعد العلم اليقينى بمعرفته سبحانه، وأنك عبد مكلف بتأدية ما أوجب.

عندها تتحقق أنك مطالب بالشكر للمنعم على نعم أسبغها، وبركات أولاها، ثم بالشكر لمن أوصل لك النعمة على يديه من غير مبادلة، بل بالقصد والتخصيص لك كوالديك، ومعلمى الخير، وأئمة المسلمين.

والشكر للمنعم سبحانه، بأن تخصه سبحانه بالعبادة دون غيره، وتراقب جنابه العلى فى كل أحوالك، بالقيام بعمل ما كلفك به، وترك ما نهاك عنه، مخلصاً لذاته صادقاً فى معاملاته.

وشكر غيره ممن أجرى النعمة لك على يدهم بالقصد منهم بدون مبادلة، هو الإحسان إليهم بما يمكنك من المكافأة أو الدعاء، والاتباع لنصائحهم، والتباعد عن مخالفتهم وأذيتهم، معاملة لمولاك وصدقاً فى عبادته، خصوصاً بر والديك، وصلة أرحامك وأقاربك، والعناية بأهلك وأولادك وإكرام جيرانك، والوفاء بالعهود، وإفشاء السلام، وإطعام الطعام، وحسن الأداء، وأداء الأمانة، والعطف على أهل البلايا، والرحمة بالمساكين، والشفقة على الفقراء، وغض البصر عن مساوئ الخلق، وترك غيبة من تستر عنك بذنوبه وسيئاته، والسعى بالصلح بين الناس، وأن يأمن جارك بوائقك، ودفع السيئة بالحسنة، والتواضع

لجميع الخلق لله تعالى، وإلانة الجانب لهم، والإحسان إلى الجليس والمعاشر وإن أساءا، وأن لا يسمع منك جليسك إلا خيراً، وأن تصمت وتظهر الغضب إذا قال شراً فى غيرك فى مجلسك، حتى يعلم أنك تكره الشر من القول والعمل.

ولا تصعر خدك للناس، ولا تمش فى الأرض مرحاً، ولا تفتح على نفسك باب شر، فيشغلك عن عمل الخير، وإذا بليت بشرير، فإما أن تجتهد فى أن تجمل أخلاقه إن كان قابلاً وأهلاً، أو تجتهد أن تحفظ نفسك منه إن كان مفطوراً على الشر، باشتغالك عنه بعمل نافع من صلاة وذكر وقراءة قرآن فى أوقات فراغك، أو عمل نافع فى أوقات عملك حتى يفارقك إذا لم يرك مشابهاً له فى خلقه.

يجب عليك أن تعمر كل أوقاتك بما يناسبها من ذكر أو شكر أو عمل نافع أو راحة لبدنك، وربما كان النوم أفضل من بعض النوافل مع الحمقى، هذا بعض ما يجب عليك، وهى كليات يمكنك أن تفهم بقية الجزئيات منها.

٣ الحق الذى لك

الواجب لك على أخيك، هو عين ما يجب عليك له، فإن قام أخوك بالواجب عليه لك من نفسه، وقمت له بذلك من نفسك كنتما رفيقين فى الجنة.

وإن لم يقم لك بالواجب عليه، فقد نقصت فضيلته، وضاعت مروءته، وحرم ثواب الله تعالى، فقم أنت له بالواجب عليه له، ولا ترض لنفسك بتلك الرذائل والنقائص، ليكون لك الذكر الجميل فى الدنيا، والنعيم المقيم فى الآخرة، وهذا نهج الصديقين وطريق المقربين وعمل المتقين، والله سبحانه وتعالى يوفقنا لما يرضيه، ويحفظنا مما يغضبه، إنه مجيب الدعاء، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم آمين.

***

الركيزة الرابعة: الأخلاق

اعلم يا أخى أن حسن الخلق والسيرة العادلة هما من أخلاق الملائكة، ولكن بعضها من جهة النفوس مركوزة فيها، وبعضها عادة جارية معتادة. وهذا حكم خلق السوء والسيرة الجائرة، هما من أخلاق الشياطين، بعضها جبلة مركوزة فى النفس، وبعضها عادة جارية، هى التى نشأ عليها الصبيان من الصغر ويتربون من الصغر عليها، ويأخذها الناس ممن تصحبه وتتربى معه من الآباء والأمهات والأخوة والإخوان والجيران والمعلمين.

واعلم أنه ربما لا يتفق للإنسان هذه الأمور المحمودة من الصغر على حسب ما ينبغى، ولكن يجب على العاقل أن يتفقد أحواله وأخلاقه وسيرته وعاداته واعتقاداته، ويتبصر فيترك ما كان منها فاسداً رديئاً، ويجتهد وينظر ويميز ويبحث فإن الله تعالى ما بعث الرسل والأنبياء إلا لإصلاح الأمور الفاسدة الثابتة مع الطباع الرديئة والعادة الجارية. وقد ذكر العلماء والحكماء فى كتب الأخلاق أنه ينبغى لكل إنسان أولاً أن يبتدئ بإصلاح أخلاق نفسه وعاداته، فإذا عدلها واستوت، فعند ذلك له أن يصلح غيره، وقال عليه الصلاة والسلام: (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ المائدة ١٠٥.

ثم اعلم أن أكثر الناس قد تركوا وصية ربهم ونصيحة نبيهم، فيما أمرهم به من إصلاح ذات بينهم، وما فيه نجاة نفوسهم من العذاب الأليم، بما رسمه لهم من التعاون والتعاضد والتناصر والتحابب والتودد والألفة فيما بينهم، فاشتغلوا بعمل ما نهوا عنه من ذكر عيوب بعضهم بعضاً، والشنعة من بعضهم على بعض، وصاروا فرقاً ومذاهب وشيعاً، وتوقدت بينهم نيران العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، وذلك أنهم يعيب بعضهم بعضاً بحرقة قلوبهم، وألم نفوسهم، وهم فى العذاب مشتركون أولهم مع آخرهم، كما ذكر الله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ الأعراف ٣٨، التى خالفتها وقالوا: ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ﴾ ص ٥٩، وقالوا: ﴿رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ الأعراف ٣٨، يعنى من كان موافقاً لهم، وقيل لهم: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ

﴿تَكۡسِبُونَ﴾ الأعراف ٣٩، لما تركتم وصية ربكم ونصيحة نبيكم، وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ النحل ١١٨، فكانوا هم الظالمين بتركهم الوصية.

هذه الكلمة المجملة فى الأخلاق، تفصيلها ميسور لكل من تدبر.

الخُلق وأقسامه

الخلق حال داعية للنفس إلى أفعالها، من غير فكر ولا روية، وهى قسمان: منها ما هو من أصل المزاج وتركيب الأبدان، ومنها ما هو مستفاد بالعادة والتدريب وتزكية النفس.

١ فالأول كسرعة الغضب من أقل شئ، والخوف والجبن من أيسر شئ، والتهور والضحك بغير موجب حقيقى، وهذا من أصل الفطرة والمزاج، ومن الصعب علاجه.

٢ أما المستفاد فقد يكون مبدؤه الروية والفكر والمجاهدة، ثم يصير حالاً للنفس لازماً.

وقد اختلف علماء الأخلاق فى الخُلق، فقال بعضهم: من كان له خُلق فطرى لا ينتقل عنه، وقال آخرون: ليس شئ من الأخلاق طبيعياً للإنسان، ولا غير طبيعى، واستدلوا بأن الناس مطبوعون على قبول الخلق، ويؤثر فيهم التأديب والمواعظ، إما بسرعة وإما ببطء. وهذا الرأى أختاره لأنه مشاهد عياناً، ولأن المذهب الأول يؤدى إلى إبطال قوة التمييز والعقل، ورفض التعاليم والتزكية، وترك الناس همجاً، وترك العناية بالصبيان، وهذا ظاهر الفساد والشناعة.

واختلافات القدماء فى الخلق لا لزوم لتفصيلها فى هذا المختصر، وقد ورد فى كتاب الله تعالى ما يدل على أن الإنسان يتغير خلقه، قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ الزمر ١٧-١٨، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ الزمر ٢٣، وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الذاريات ٥٥، وقال تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ سورة فصلت ٣٤، وقال تعالى: ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ الشمس ٨-٩، وكثير من الآيات ورد فى هذا المعنى.

وقد ورد فى السُنة ما يدل على ذلك، ومن طالع سير الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، يظهر له صحة ذلك.

ولما كان ولابد لكل مؤمن أن يحيط علماً بأخلاق سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ ليجاهد نفسه على حسن الاقتداء والتشبه بحضرته المحمدية عليه الصلاة والسلام، كان ولابد من ذكر قطرة من محيط أخلاقه الطاهرة النبوية، التى لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، ونذراً يسيراً من شمائله ﷺ، وليحسن للمريد حسن الاتباع فى القول والعمل اللذين بيناهما فيما سبق من الكتب، ويحصل له جمال الاقتداء به ﷺ، فى جمال أخلاقه الطاهرة الزكية، فيكون فى معيته بالتشبه به صلوات الله وسلامه عليه.

أخلاقه ﷺ

نذكر من أخلاقه ما يمكن للعقل والحس أن يدركها، لأن أخلاقه الطاهرة التى ذكرها الله تعالى بقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ القلم ٤، لا تكشف إلا للروح القدسية، فأقول: كان ﷺ يقول: (اللهم كما أحسنت خَلقى، فحسن خُلقى)، وعند مسلم فى حديث دعاء الافتتاح: (واهدنى لأحسن الأخلاق، لا يهدى لأحسنها إلا أنت) ولما اجتمع فيه ﷺ من خصال الكمال، ما لا يحيط به حد ولا يحصره عد، أثنى الله سبحانه وتعالى عليه فى كتابه الكريم فقال:﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ القلم ٤، وإنما كان خلقه ﷺ عظيماً، لاجتماع مكارم الأخلاق فيه. قال عليه الصلاة والسلام: (إن الله تعالى بعثنى بتمام مكارم الأخلاق، وكمال محاسن الأفعال) وفى رواية مالك رضي الله عنه فى الموطإ: (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)، وقالت عائشة رضى الله عنها: كان خلقه ﷺ القرآن. فكما أن معانى القرآن لا تتناهى، كذلك أوصافه الجميلة الدالة على خلقه العظيم لا تتناهى، إذ فى كل حالة من أحواله ﷺ يتجدد له مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وما يفيضه الله تعالى من معارفه وعلومه ما لا يعلمه إلا الله تعالى، وقد كان ﷺ مجبولاً على الأخلاق الكريمة فى أصل خلقته الزكية النقية، لم يحصل له ذلك برياضة نفس، بل بجود إلهى.

وأصل هذه الخصال الحميدة كمال العقل لأنه به تقتبس الفضائل، وتجتنب الرذائل، وهو

أمر روحانى به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية. وقد كان ﷺ من كمال العقل فى الغاية القصوى التى لم يبلغها بشر سواه. قال وهب بن منبه: قرأت فى واحد وسبعين كتاباً فوجدت فى جميعها أن الله تعالى لم يعط جميع الناس، من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل من جنب عقله ﷺ إلا كحبة رمل من جميع رمال الدنيا، وأن محمد ﷺ أرجح الناس عقلاً وأفضلهم رأياً.

ومن تأمل حسن تدبيره للعرب الذين هم كالوحش الشارد مع الطبع المتنافر المتباعد، وكيف ساسهم واحتمل جفاهم وصبر على أذاهم، إلى أن انقادوا إليه واجتمعوا عليه، وقاتلوا دونه أهليهم وآباءهم وأبناءهم، واختاروه على أنفسهم، وهجروا فى رضاه أوطانهم وأحباءهم، من غير ممارسة سبقت له، ولا مطالعة كتب يتعلم منها سير الماضين، تحقق أنه أعقل العالمين ﷺ.

ولما كان عقله ﷺ أوسع العقول، لا جرم، اتسعت أخلاق نفسه الكريمة اتساعاً لا يضيق عن شئ، فمن ذلك اتساع خلقه العظيم ﷺ فى الحلم والعفو مع القدرة، وصبره عليه الصلاة والسلام على ما يكره. وحسبك وصبره وعفوه عليه الصلاة والسلام عن الكافرين المقاتلين له، المحاربين له فى أشد ما ناله منهم من الجراح والجهد، بحيث كسرت رباعيته، وشج وجهه يوم أحد، حتى صار الدم يسيل على وجهه الشريف، حتى شق ذلك على أصحابه، وقالوا: لو دعوت عليهم: فقال: (إنى لم أبعث لعاناً، ولكن بعثت داعياً ورحمة، اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون)، وفى رواية: (اهد قومى)، وقد وقع له ﷺ أنه غضب لأسباب مختلفة، مرجعها إلى أن ذلك كان فى أمر الله سبحانه وتعالى، وعفوه إنما كان فيما يتعلق بنفسه الشريفة.

وقد روى الحاكم وغيره عن زيد بن سعنة – وهو أجل أحبار اليهود الذين أسلموا – أنه قال: لم يبق من علامات النبوة شئ إلا وقد عرفته فى وجه محمد ﷺ حين نظرت اليه، إلا اثنين لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً، فكنت أتلطف له لأن أخالطه، فأعرف حلمه وجهله، فابتعت منه تمراً إلى أجل فأعطيته الثمن، فلما كان

محل قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة، أتيته فأخذت بمجامع قميصه وردائه، ونظرت إليه بوجه غليظ ثم قلت: ألا تقضينى يا محمد حقى، فوالله إنكم يا بنى عبد المطلب مطل، فقال عمر: أى عدو الله، تقول لرسول الله ﷺ ما أسمع، فوالله لولا ما أحاذر فوته لضربت بسيفى رأسك، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر فى سكون وتؤدة وتبسم ثم قال: (أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر، أن تأمرنى بحسن الأداء، وتأمره بحسن التقاضى، اذهب يا عمر فاقضه حقه، وزده عشرين صاعاً مكان مارعته) ففعل، فقلت: يا عمر كل علامات النبوة قد عرفتها فى وجه محمد ﷺ حين نظرت اليه، أشهدك أنى قد رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً.

عن أنس رضي الله عنه قال: كنت أمشى مع النبى ﷺ وعليه برد نجرانى غليظ الحاشية فأدركه أعرابى، فجبذ بردائه جبذة شديدة، فنظرت إلى صفحة عاتقه وقد أثرت فيه حاشية البرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مر لى من مال الله الذى عندك، فالتفت إليه فضحك، ثم أمر له بعطاء.

وعن عائشة رضى الله عنها: لم يكن النبى ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً، ولا يجزى بالسيئة سيئة ولكن يعفو ويصفح. وقال ﷺ: (إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة، من تركه الناس اتقاء شره) وما ضرب بيده ﷺ شيئاً قط، إلا أن يضرب فى سبيل الله، ولا سئل شيئاً قط فمنعه إلا أن يسأل مأثماً، وما انتقم لنفسه من شئ إلا أن تنتهك حرمات الله فيكون لله ينتقم، وكان عليه الصلاة والسلام كلما أذن له فى التشديد على المنافقين فتح لهم باباً من الرحمة.

ومن اتساع خلقه عليه الصلاة والسلام تواضعه، وحسن عشرته مع أهله وخدمه وأصحابه، وحسبك من تواضعه عليه الصلاة والسلام أن خيره ربه تعالى بين أن يكون نبياً ملكاً أو نبياً عبداً، فاختار أن يكون نبياً عبداً، فأعطاه الله بتواضعه أن جعله أول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع وأول مشفع. قال أنس رضي الله عنه خدمت النبى ﷺ عشر سنين فما قال لى أف قط، ولا قال لشئ صنعتُه: لم صنعته؟ ولا لشئ تركتُه: لم تركته؟

وفى رواية مسلم: ما رأيت أحداً أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ. وسئلت عائشة رضى الله عنها: كيف كان رسول الله ﷺ إذا خلا فى بيته؟ قالت: ألين الناس، بساماً ضحاكاً، لم ير قط ماداً رجليه بين أصحابه، وما دعاه أحد من الأصحاب إلا قال: لبيك.

وذكر الطبرى فى مختصر السيرة النبوية أنه ﷺ ركب حماراً عرياً إلى قباء، وأبو هريرة معه، قال: (يا أبا هريرة أأحملك؟ فقال: ما شئت يا رسول الله، قال: اركب، فوثب أبو هريرة ليركب، فلم يقدر، فاستمسك برسول الله ﷺ، فوقعا معاً، ثم ركب رسول الله ﷺ، ثم قال: يا أبو هريرة أأحملك؟ قال: ما شئت يا رسول الله، فقال: اركب، فلم يقدر أبو هريرة على ذلك، فتعلق برسول الله ﷺ فوقعا جميعاً، ثم قال: يا أبا هريرة أأحملك؟ فقال: لا، والذى بعثك بالحق لا رميتك ثالثاً).

وكان ﷺ فى سفر، وأمر أصحابه بإصلاح شاة، فقال رجل: يا رسول الله علىَّ ذبحها، وقال آخر: يا رسول الله علىَّ سلخها، وقال آخر: يا رسول الله علىَّ طبخها: فقال رسول الله ﷺ: (وعلىَّ جمع الحطب) فقالوا: يا رسول الله نكفيك العمل، فقال ﷺ: (قد علمتُ أنكم تكفونى، ولكن أكره أن أتميزَ عليكم، وإن الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه).

وكان عليه الصلاة والسلام لا يأنف أن يمشى مع الأرملة والمسكين، فيقضى له الحاجة. وفى رواية البخارى: إن كانت الأمة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ، فتنطلق به حيث شاءت. ودخل الحسن وهو ﷺ يصلى وقد سجد، فركب على ظهره، فأبطأ فى سجوده حتى نزل الحسن، فلما فرغ قال له بعض أصحابه: يا رسول الله لقد أطلت سجودك، قال: (إن ابنى ارتحلنى فكرهت أن أعجله).

وبالجملة فمن تأمل سيرته عليه الصلاة والسلام مع أهله وأصحابه، وغيرهم من الفقراء والأيتام والأرامل، والأضياف والمساكين، علم أنه ﷺ قد بلغ من رقة القلب ولينه، الغاية التى لا مدى وراءها مخلوق، وأنه كان يشدد فى حدود الله وحقوقه ودينه حتى قطع يد السارق، إلى غير ذلك.

وكان ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقاً، فكان عليه الصلاة والسلام يمازح أصحابه ويخالطهم، ويحادثهم ويؤنسهم، ويأخذ معهم فى تدبير أمورهم، ويداعب صبيانهم، ويجلسهم فى حجره، ولقد جاء إليهم ﷺ رجل فقام بين يديه، فأخذته رعدة شديدة ومهابة فقال له: (هون عليك، فإنى لستُ بمَلك ولا جبار، إنما أنا ابن امرأةٍ من قريش تأكل القديد بمكة) فنطق الرجل بحاجته. فقام ﷺ فقال: (يا أيها الناس، إنى أوحى إلى أن تواضعوا، ألا فتواضعوا حتى لا يبغى أحدٌ على أحدٍ، ولا يفجر أحدٌ على أحدٍ، وكونوا عبادَ الله إخواناً).

وقد كانت مجالسه ﷺ مع أصحابه رضى الله عنهم مجالس تذكير بالله سبحانه وتعالى، وترغيب وترهيب، إما بتلاوة القرآن، أو بما آتاه الله من الحكمة والموعظة الحسنة، وتعليم ما ينفع فى الدين، كما أمره الله أن يذكر ويعظ ويقص، وأن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، فلذلك كانت تلك المجالس توجب لأصحابه رقة القلوب، والزهد فى الدنيا، والرغبة فى الآخرة. عن أبى هريرة قال: قلنا: يا رسول الله ما لنا إذا كنا عندك رقت قلوبنا وزهدنا فى الدنيا، وكنا من أهل الآخرة، فإذا خرجنا من عندك عفثنا – أى عالجنا – أهلنا وشممنا أولادنا وأنكرنا أنفسنا، فقال ﷺ: (لو أنكم إذا خرجتم من عندى كنتم على حالكم ذلك لزارتكم الملائكة فى بيوتكم)، ومن تواضعه ﷺ أنه ما عاب ذواقاً قط، ولا عاب طعاماً قط، إن اشتهاه أكله وإلا تركه.

وأما حياؤه ﷺ فحسبك ما فى البخارى عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء فى خدرها، وكان من حيائه ﷺ أنه لا يثبت بصره فى وجه، والحياء كما قال ﷺ: (لا يأتى إلا بخير، وهو من الإيمان).

أما خوفه ﷺ من ربه عز وجل، فقد قال ﷺ: (أنا أتقاكم لله، وأشدكم له خشية)، وقال عليه الصلاة والسلام: (ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً).

وأما ما روى عن شجاعته وقوته ونجدته ﷺ، فعن أنس رضي الله عنه قال: كان النبى ﷺ أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس، لقد فزع أهل المدينة ليلة فانطلق ناس قبل الصوت، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعاً قد سبقهم إلى الصوت، واستهدأ الخبر على فرس

لأبى طلحة عرى والسيف معلق فى عنقه وهو يقول: (لن تراعوا)، وقال ابن عمر: ما رأيت أشجع ولا أنجد من رسول ﷺ.

وذكر ابن إسحاق فى كتابه وغيره أنه كان بمكة رجل شديد القوة يحسن الصراع، وكان الناس يأتونه من البلاد للمصارعة فيصرعهم، فبينما هو ذات يوم فى شعب فى شعاب مكة إذ لقيه رسول الله ﷺ فقال له: (يا ركانة ألا تتقى الله وتقبل ما أدعوك اليه؟ فقال له ركانة: يا محمد هل من شاهد يدل على صدقك؟ قال: أرأيت إن صرعتك أتؤمن بالله ورسوله؟ قال: نعم يا محمد، فقال له: تهيأ للمصارعة، قال: تهيأت، فدنا رسول الله ﷺ، فأخذه ثم صرعه، فتعجب ركانة من ذلك، ثم سأله الإقالة والعود، ففعل به ثانياً وثالثاً، فوقف ركانة متعجباً، قال: إن شأنك لعجيب).

وفى البخارى من حديث البراء: وسأله رجل من قيس: أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين، فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر، كان هوازن رماة، وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا، فأكببنا على المغانم، فاستقبلنا بالسهام، وفرت الأعراب ومن تعلم من الناس، ولقد رأيت النبى ﷺ على بغلته البيضاء، وإن أبا سفيان بن الحارث آخذ بزمامها والنبى يقول:

أنا النبىُ لا كذب   أنا ابنُ عبدِ المطلب

وهذا فى غاية ما يكون من الشجاعة التامة، لأنه فى مثل هذا اليوم فى حومة الوغى، وقد انكشف عنه جيشه، وهو مع هذا على بغلة ليست بسريعة الجرى، ولا تصلح لكر ولا فر ولا هرب، وهو مع ذلك يركضها إلى وجوههم، وينوه باسمه ليعرفه من ليس يعرفه صلوات الله وسلامه عليه. وفى حديث: (كنا إذا حمر البأس اتقينا برسول الله ﷺ).

وأما سخاؤه وجوده ﷺ، فقد كان ﷺ أحسن الناس وأشجع الناس وأجود الناس، وما سئل رسول الله ﷺ شيئاً إلا أعطاه، فجاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطى عطاء من لا يخاف الفقر. وقال صفوان بن أمية: لقد أعطانى رسول الله ﷺ ما أعطانى، وإنه لمن أبغض الناس إلىَّ، فما برح يعطينى حتى أنه لأحب الناس إلىَّ. قال ابن شهاب: أعطاه يوم حنين مائة من الغنم ثم مائة ثم مائة، وإنما

أعطاه ذلك لأنه عليه الصلاة والسلام علم أن داءه لا يزول إلا بهذا الدواء، وهو الإحسان، فعالجه به حتى برأ من داء الكفر وأسلم.

وقد حمل إليه ﷺ تسعون الف درهم، فوضعت على حصير، ثم قام إليها يقسمها، فما رد سائلاً حتى فرغ منها، وقد أتى ﷺ بمال من البحرين فقال: (انثروه) بمعنى صبوه فى المسجد، وكان أكثر مال أتى به ﷺ، فخرج إلى المسجد ولم يلتفت اليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه، فما كان يرى أحداً إلا أعطاه إذ جاءه العباس فقال: أعطنى فأعطاه ما استطاع حمله، فما قام عليه الصلاة والسلام وما ثم منها درهم.

وقد كان جوده عليه الصلاة والسلام كله لله وفى ابتغاء مرضاته تعالى، فإنه كان يبذل المال تارة لفقير أو محتاج، وتارة ينفقه فى سبيل الله تعالى، وتارة يتألف به على إسلام من يقوى الإسلام بإسلامه.

وكان يؤثر على نفسه وأولاده، فيعطى عطاء يعجز عنه الملوك - مثل كسرى وقيصر - ويعيش فى نفسه عيش الفقراء، فيأتى عليه الشهر والشهران لا يوقد فى بيته ناراً، وربما ربط الحجز على بطنه الشريفة من الجوع.

وكان ﷺ قد أتاه سبى فشكت إليه فاطمة ما تلقى من خدمة البيت، وطلبت منه خادماً يكفيها مؤنة بيتها، فأمرها أن تستعين بالتسبيح والتكبير والتحميد، وقال: (لا أعطيك، وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع) وأتته ﷺ امرأة ببردة فقالت: أيا رسول الله أكسوك هذه، فأخذها ﷺ محتاجاً إليها فلبسها، فرآها عليه رجل من الصحابة فقال: يا رسول الله، ما أحسن هذه فاكسنيها، فقال ﷺ: (نعم) فلما قام عليه الصلاة والسلام، لامه أصحابه وقالوا: ما أحسنت حين رأيت النبى ﷺ أخذها محتاجاً اليها، ثم سألته إياها، وقد عرفت أنه لا يسأل شيئاً فيمنعه.

وبالجملة فهو ﷺ فى سائر صفات الكمال، أفضل الخلق على الإطلاق، وأكملهم فى جميع أنواع مكارم الأخلاق ﷺ.

الأخلاق الإسلامية الصادقة

الإنسان من حيث فطرته الإنسانية مستأنس ألوف بما أودع فيه من الجمالات الحقيقية، التى ميزته عن جميع الكائنات الأرضية، وإنما المعاشرة والمصاحبة للغير هى السبب الذى أوجد فيه النفور والحب الذى هو سبب من أسباب المزاحمة الإبليسية، وقد يظهر للمتأمل أن الإنسان قد اكتسب من الحيوانات البهيمية خلالاً خاصة بها، كالسلب والنهب وسفك الدماء، والتحايل على اكتساب العيش بأى وجه من الوجوه، وهو الأمر الذى لا يفعله إلا من لا عقل له، ولا علم يكتسب به من وجه حل موافق للائتلاف والعمران، فإن الحق سبحانه وتعالى ربط العمران بعضه ببعض، فجعل هذا مميزاً بصفة خاصة به ينتفع بها بنو جنسه، وينتفع منهم بها آونة أخرى، وهكذا. وأما الحيوانات فجعل لكل نوع منها وقاية تقى ظاهره، ويجلب بها ما يحتاج اليه، وألهمها كيف تشغل تلك القوى.

ثم أفاض على الإنسان – فضلاً منه – قوى إلهية من قواه الربانية، قهرت تلك القوى الحيوانية، ودبرتها على حسب ما به يكون العمران، فاستأنست النافع من الحيوانات بهذا العلم المفاض من الحق، وقهرت الحيوانات الأخرى التى لا تنفع. كل هذا بالحكمة السماوية، فكل إنسان لم يعتن بهذه الحكم السماوية، واللطيفة النورانية، واستعملها فى غير ما وضعت له، انحطت رتبته، واستعمل الحيل الحيوانية فى جلب ضرورياته. كل هذا اكتسبه الإنسان من معاشرته للحيوانات، ولذلك نرى أن الذين يعيشون فى البلاد الكثيرة الحيوانات المفترسة ويشهدونها، يتخلقون بأخلاقها ويستعملون أعمالها.

وقد تفضل الله سبحانه وتعالى فأرسل الرسل بالأخلاق الطاهرة الزكية، والصفات البارة الربانية، وجملهم بأكمل الأوصاف وأعظم الخلال، وأمرهم أن يدعوا الخلق للخالق، وأيدهم سبحانه بالدلائل المعجزة للخلق، التى هى فى قوة صدق عبدى فاتبعوه. فانقاد الناس لاتباع هذا النور، وخصوصاً من وفقهم الله بهدايته للدخول فى دينه، فأتوا بالنواميس الربانية، وبينوا ما يحتاج إليه الإنسان فى دينه ودنياه وآخرته، وطلب ربه سبحانه وتعالى، بأقوالهم وأعمالهم وإشاراتهم، كل شئ بما يليق به من تصريح أو تلويح، فسلم المسلمون

وأسلموا، وخالف المخالفون وتخلفوا.

فالأخلاق المرضية محصورة فى كتاب الله تعالى، وما بينه سيدنا رسول الله ﷺ بقوله وعمله. فكل من علم تلك الأخلاق وعمل بها ظاهراً وباطناً، فهو الإنسان الكامل فى الإنسانية.

ولما كانت النواميس الربانية موجبة وجوباً عينياً القصاص والتعزير، وإظهارها بالحبس والسيف على حسب ما يناسب الحال والشأن، ظهر جلياً أن الرادع الشرعى للإنسان أمران: القرآن والسلطان، والإنسان الذى طهرت أخلاقه وصفاته لا يحتاج لوازع غير القرآن، لأن القرآن الشريف وضح وبيَّن وأظهر ما به سعادة المؤمن، وهذا الإنسان المشاهد بنور بصيرته حقيقة الواجب الشرعى، قام بالواجب الذى إذا قصر عنه لا يكون له حظ فى الدين. ومن حافظ على الواجب فهو مسلم من عامة المسلمين. وبقدر صدقه فى تأدية الواجب ينال الجزاء.

وإنما ينال مرضاة الله تعالى من لم يقف به العزم على حد الواجب، بل يسارع فى القربات، ويبادر إلى النوافل بكل أنواعها، فيتقرب إلى ربه ببذل كل عظيم من مال وزمان وشرف وشهرة وعلو فى الأرض وعافية وقوة وغير ذلك، بسرور وانشراح ومداومة، وتجدد ومزيد غير واقف عندما يزول، بل بغيته رضوان الله وفضله، صغرت فى عينه كل قربة وعمل ومال، فكان فى كل نفس يزداد إقبالاً ومسارعة، ويزداد على عمل العناء والتعب سروراً ونشاطاً، طارحاً كل جزاء وشرف ورفعة فى الدنيا، وملك ونعمة فى الآخرة وراء ظهره. وبهذا ينال العبد رضاء ربه، دليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ الحديد ٢٧، فالواجب واجب لشكر المنعم، والإقرار بالعبودية، وإنما نوال الرضا لا يكون إلا بأن يرخص فى عينه كل نفيس فى جانب بذله للقربة، ونوال الرضا من الله تعالى.

الأخلاق

هــــى الأخلاقُ أسرارُ المعــــالى ... تُفـــاض على أولى الهـمـمِ العــوالى
تـرى الإنـسـان إنـسـانـاً عـيـانـاً ... وتـشـهـده بهـا نـورَ المـثـالى
هــــى الأخلاقُ أسرارُ المعــــالى ... تُفـــاض على أولى الهـمـمِ العــوالى
تـرى الإنـسـان إنـسـانـاً عـيـانـاً ... وتـشـهـده بهـا نـورَ المـثـالى
يلـوح عليه نـورُ الـوصف يُجلَى ... كما يجلَى على المـلَـك المـوالى
بـأخلاق المهـيمن قـد تحلى ... فحل مقـامَ أعلى بـالجمال
فـذلٌّ للعلىِّ به فخـارى ... وفقـرٌ للغَنِـىِّ به نـوالى
بـأضداد الصفات أنال قربى ... وأحظى من إلهـى بـالوصال
بـأخلاق المراد وقد أضاءت ... بـأفق القلب شمسُ الاتصال
على الخلق العظيم به رقـى ... لأفقِ شروقِ أنـوارِ المجالى
به أنا عبـدُ ذاتِ الله شغفـى ... بتحقيقـى بمنزلتى وحالى
بـذل وافتقار واضطرار ... ورغب ثم رهبٌ من جلال
وحالى بين شكر للأيادى ... من الإحسان أو بين ابتهال
وبين العجز عن حصر الأيادى ... وعن حصر العطايا بالمقال
وبين تضرعٍ لـزوال بؤسٍ ... وطمعٍ فى إجابته سؤالى
وأنسٍ بالتجلى حال صفوى ... وطمعٍ فى السعادة فى المآل
عُبَيْدُ وصفُ سيدِه تجلى ... وفى كل المظاهر قد بدالى
فلم تُشهد لى الآثارُ إلا ... ليرى نورَ مبدعِها خيالى
وما شهدت عيونُ الرأسِ أثراً ... فحجبنى عن المعنى المثالى
ولكنى بعين القلب أرأى ... جمالاً ماحقاً صورَ الظلال
به سمعى وبصرى بل ونطقى ... وبطشى لا بمزجٍ وانفصال
وكلُّ معالمى نورٌ تسامى ... يلوح بها بلا قيد اعتقال
فتشهدُه به فيها تعالى ... فنزه عن حلول وانتقال

مقامُ العبد فوق العقل قدراً   عن النفس التى ذاقت مقالى

فقربٌ بالقريبِ إلى قريبٍ   فَفِرَّ عن التشكك والجدال

ونورُ الله سرُّ الحب يعطى   يُنال بفضله محض النوال

وما أخفى لعبد الذات غيب   بأخلاق المهيمن والجمال

بقدر المنعمِ الوهابِ يُعطى   بمولاه سما رتبَ المعالى

ففضل الله مولانا عظيمٌ   وجَمَّله بحلل الاتصال

وعبدُ الذاتِ فردٌ قد تحلى   معارجُه على نهج الرجال

عزيزٌ بالعزيزِ عظيمُ قدرٍ   إلى أوجِ التنزلِ والمجالى

سقاه المصطفى راحاً طهوراً   وحصنُ الحفظِ من كل الوبال

وقرَّبَهُ إليه به فصحت   إلى نيلِ السعادةِ والوصال

هى الأخلاقُ نسبٌ واتصالٌ   وأصحابٌ وأحبابٌ وآل

هى النسبُ القريبُ إلى قريبٍ   يكاد به يكون من المحال

وهدى المصطفى معراجُ قربٍ   وبعدٌ عن بعيدٍ بالعقال

على ذاتِ الحبيبِ صلاةُ ربى   بفضلِ الله لا بالانفعال

السماع والعيان

إذا أشرقت على القلب أنوار اليقين من فضل الله تعالى، تلقى خبر الصادق من حيث التصديق به، والعمل بأمره، كتصديق وعمل المعاين المشاهد، وهو الإيمان حقيقة الذى مدحه الله تعالى، وأثنى على أهله. وذلك لأن الأرواح فى عالم الذر، شهدت الجمال الإلهى، وسمعت الخطاب الربانى، فهى فى شوق إلى ما شهدت وسمعت، فإذا أخبرها الصادق اطمأنت وسكنت إلى الحق لما ذاقته من معانى خبره، الذى صادف ما تشتاق اليه، فوقع موقع الشهود العينى.

ولذلك ترى كثيراً ممن لا يتصورون المعانى الإلهية، ولا الحقائق العلمية، إذا أخبر بحقيقة ما حن إلى تلك الحقيقة، وإذا أمر بأمر قام به بشوق، مسارعاً مداوماً عليه، مشاهداً فيه ما لم يشهده غيره ممن علم. بينما نرى أن كثيراً ممن علموا يتهاونون بالأوامر، وربما وقعوا فى المنهيات، فيستنتج من هذا أن خبر الصادق عند الممنوح، كرفع الحجاب عند أهل اليقين. والوسعة فى العلم لا تقتضى الشوق والحب، ولذلك فالله تعالى أثنى على الذين يؤمنون بالغيب ثناءً حقيقياً، وأخبر أنهم هم المفلحون، وأخبر أنهم يوقنون بالآخرة.

فالإيمان مواهب إلهية، به النور والنجاة، فإذا مَنَّ الله بالعلم لعبده، كان ذلك من الفضل العظيم، وبهذا أرى أن العلم غير الإيمان، وأن الإيمان لابد منه قبل العلم. والصحابة رضوان الله عليهم كانوا يتعلمون الإيمان قبل القرآن، فيزدادون إيماناً بالقرآن على إيمانهم.

ومن هذا ترى أن أهل الله يحبون أهل التسليم والانقياد، لأنهم أول أتباع الرسل عليهم الصلاة والسلام، الذى يقع منهم خبر الصادق موقع عين اليقين لصفاء قلوبهم. وهم الذين يعملون جميع الأركان والنوافل بشوق لشدة مشاهدتهم، وكمال تصديقهم، إلا أنهم يحتاجون إلى المرشد الكامل والحكيم العارف، الذى يخبرهم بما يناسب نفوسهم من العلم والعمل، حتى يكون لهم رقى مناسب لقواهم، لينهجوا على المنهج الوسط، لتكون أحوالهم متوازنة بين الروح والجسد، ويدوم مزيدهم حتى يبلغوا من العلم أعلاه، ومن المعرفة أكملها.

وبـذلك يكون الإنسان مـؤمناً حقيقة، عـاملاً من عمال الله تعالى، مسـارعاً إلى مرضاته من جهـاد وإنفـاق وعبـادة ومعـاملـة، علـماً وكشـفاً. وهـذا الإيمان هـو المطلـوب من كل إنـسان، بـالنسبة للداعى إلى الله سبحانه على بينة، ثـم بعد التصديق والإقرار يتلقى منه العلم، عاملاً بأوامره منتهياً عن نواهيه.

أما أهـل الجدل والغـرة بالله تعـالى ممن أبعـدهم الله عـن نور الـتسليم، أو الهمج الـرعاع الذيـن ينقادون ويتبعون كل ناعق من غير تبصرة ولا عـلم، فإن الداعى إلى الله تعالى يدعو إلى التوحـيد الذى هو صبغة النفوس الزكـية، وإلى الفضيلة من العمل والخلق، وصلة الرحم، وإكرام الجـار، وتقبيـح الطمع والحـرص وكل قبـيح لدى العقول الـسليـمة. أمـا أهل الجدل والهمج، فـإن الله سبحـانه قطع المجـادلين لغـرورهم بعقـولهم المكسـوفة، وعلـومهم التـى هى جهل، وآرائهم الفـاسدة. وأما الهمج فإن الله سبحانه أبعـدهم لحرمانهم من نور العقل، الذى به الـتمييـز بين المحق والمبطل، ولعكوفهم على الحـرص على النفع العـاجل، وصرف هممهم عن الخير الآجل، لأنهم لم يمنحوا نور التسليم للحق، ولا نفساً زكية تتصور معانى الحق.

وهذان النوعان من الناس كثيرون، وهم أعداء ما جهلوا. فالداعى إلى الله تعالى عليه أن يتحـفظ على أهل التسليم من أهل الجدل، ويـتحفظ على نفسه مـن الجهلاء الهمج. فإنهم لا يلبثون معه إلا ريثما يسمعـون ناعقاً بباطل فـيميلون إلـيه ويقصدونه. أو يـسمعون سراً من المرشـد من أسرار الحكـمة، وغـرائب العلوم، ولطـائف المعـرفة، فـينشرونهـا أمام أهـل الغرة والجـدل. أو يزيدون عليهـا من الثناء على المـرشد، وذكر أوصاف يـكرهها وتنكـرها النفوس، فيـفتحون عـلى أنفسهم أبـواب الإنكار، وغـوغاء أهل الفـساد، مـع عجزهم عـن رد أباطيل المفسدين، ومداراة المغرورين.

فـالمرشـد مكلف شرعاً أن لا يـصطفى لأسراره إلا الـذين يـسمعون منـه الحكمة والمعرفة، ليكملوا أنفسهم ويعملـوا ليزداد إيمانهم، لا الـذين يستمعـون القول فيجادلـوا به، ويطلبوا به العاجل الفانى فيكونون أبواباً مفتحة للفساد، أو سرجاً تضئ لتحترق.

والصـالحون المصلحون قليلـون، وواحد منهم كأمـة، فليجتهد العارف بـالله تعالى، ويجاهد

ليفوز بمن يفقه علومه به، ويتجمل بأحواله وأخلاقه، ويكون رحمة للناس ونوراً لهم، يدعو إلى الله تعالى على بينة من أمره، ومنهج الأئمة الهادين، والله ولىُّ التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المواجهة

هى صفاء القلب، واستراحة النفس الملكية من شواغل النفوس، ومن لوازم الجسم اللازمة له بحسن يقين ونور علم، وأمن على النفس والمال والولد، وتوكل حسن وادخار.

فإذا حصلت تلك المواهب للطالب الصادق، تجلى للقلب نور المعية، وللنفس أسرار معانى الأسماء، فتجمل الطالب بجمال الأخلاق، وأنس بالحضور، وغاب عن دواعى النفوس ولوازم الجسد غيبة سرور بما فاز به من الجمالات، وما انكشف له من الكمالات، وما تكشف له من دناءة الدنيا وما فيها من زهرتها، ودام له هذا الأنس حتى صار لازماً له، بمزيد فى كل نفس حتى يكون مقاماً له لا حالاً.

وفى هذه الحالة يكون مؤهلاً للمواجهة، وهى أن يمنح نفثة الروح القدسية، فينظر بعين القدس وينطق ويبطش، ويكون مواجهاً بجميل الوجه وجماله، حاضراً فى مقعد صدق عند مليك مقتدر، وهى منزلة الأفراد المحبوبين، المطلوبين للجانب العلىِّ، وللفوز بمشاهدة الولىِّ، والله ذو الفضل العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وورثته وسلم.

خير الأمور الوسط

معلوم أن التغالى بطلان، والتهاون عن الوسط خسران، ذلك فى الأمر كله، والوسط هو الخير الحقيقى.

والفضيلة الكاملة مختلف فيها، فقيل: ما يحكم به العقل السليم، وقيل: ما دلت التجربة على حقيقة نفعه وصحة خيره، وأجمع أهل التجربة على فائدته. وذلك وسط، ولكنه ليس هو الوسط الذى يطمئن به القلب، وتحصل به السعادة فى الدنيا والآخرة، وينتج الإقبال

والقبول، وتوارد الواردات الحقة والأنوار الربانية.

والوسط الذى هو الفضيلة والخير البحت، والسعادة القصوى التى وعدها الله تعالى عباده الصالحين، هى الأوامر التى أمر الله بها، ورغب فى عملها، وندب إليها من فرض ونفل. وأدنى تلك الفضائل أن يتحصن بالحد الفاصل بين الحق والباطل. وأكملها أن يتجمل بالعزائم والمسارعة إلى العمل الشاق من أعمال البر وتحمل مرارة جميل الأخلاق، من العفو والسماح والتواضع، والإحسان إلى المسئ، وصلة القاطع، وود البغيض. وما أشبهها مما لا يقوم به إلا من أعانهم الله سبحانه بعنايته. هذا هو الوسط.

والوسط فى الاعتقاد أن يعقد قلبه على العقيدة الحقة، التى قررها القرآن وسكن اليها، ولا يبالغ فى ذلك ولا يعادى أهل الإيمان، ولو أنهم لم يبلغوا مبلغه فى العلم، ولا يرفع الخلق إلى درجة تجعله ربما وقع فى الشرك. وليضع كل إنسان موضعه، وكل مخلوق قدره الذى يجب له شرعاً.

هذا وإن كثيراً من أهل الإيمان يظنون بالناس جميعاً خيراً، فيوقعونهم فى مضار كثيرة، وأنا أستحسن أن تظن بالناس خيراً، ولكن تحتاط فى معاملتهم حيطة تحفظ لك مودتهم، وتبقى لك عشرتهم، وليكن الاحتياط بطرق تخفى على الناس، حتى لا يشعروا منك أنك تحطاط منهم، فيسيئون بك الظن، وتقع فى مضرة عملهم.

واجعل حسن ظنك بالله سبحانه وحده، وثقتك به سبحانه وتعالى. واحترس من الناس جميعاً احتراساً لا يجعلك تقطعهم، ولا تتهاون لهم تهاوناً يفسدهم. ولكن كن يقظاً، لا ينسيك حسن عملهم، وخضوعهم وإقبالهم، وسوسة الشيطان لهم، وإفساده لقلوبهم، وإبعادهم وتغيير حالهم.

فكن معهم إن أحسنوا متوسطاً لهم، حتى إذا أساءوا لم تنزعج، لأنك متيقظ لهذا، متحقق أنهم محل الإحسان والإساءة، فتحذر السوء منهم فى أكمل أحوال إحسانهم، فإن الحاجة والضرورة والخوف ورغبة الخير، ظواهر تضطر الإنسان أن يظهر بالبر والإحسان والخشوع

والخضوع. كما ترى الملتصقين بالسلاطين، كيف يخضعون ويتذللون لهم، ويمدحونهم ويقبلون منهم القبيح بأحسن القبول، بسرور من قبولهم الحسن من غيرهم، حتى إذا نكبتهم نكبات القضاء، تنكروا عليهم.

وكذلك المريدون، فإنهم – مع حسن إقبالهم وجمال أعمالهم وكمال تصديقهم– لا يؤمن عليهم من لمة الشيطان، وحظوظ النفس والهوى، فربما انقلبوا أعداء للحق.

فالعارف اليقظ فى كل نفس ينتظر ذلك، ويعمل بكل حيطة، لحفظ إخوانه من الفتور أو التهاون، أو الغفلة أو القطيعة. فإذا حصل شئ من ذلك، لم ينزعج لعلمه بالنفوس، وسرعة تغيرها، وينتظر فيئة الأخ إن كانت مما يعتاده المريد من الأحوال التى تحصل من المؤمنين، كالتساهل بالزيارة أو البحث عن حقيقة، أو العمل بأكثر مما أمر به. أما إن كانت ناتجة عن خبث فى النفس، وسوء فى العقيدة، وظلمة فى القلب، وسابقة السوءى – والعياذ بالله تعالى – فالأولى للعارف أن يداريه مداراة تجعله بدلاً من أن يشغله بإساءته، يستريح من شره، ويحفظ إخوانه من كيده، والله هو الحفيظ.

والوسط فى العبادة اقتداء بالسيد ﷺ، حتى لا يدخل على نفسه الغرور بالغلو، ولا نسيان للخير بالتهاون، فالوسط خير الأمور والله تعالى هو الموفق لا إله سواه.

العارف

العلوم الإلهية أسرار غامضة، تدرك لقوى خاصة بالإنسان، تلك القوى التى هى نور العقل الكامل، الذى لم يقهره عامل الأخلاق الإنسانية، ولا باعث الطبع الحيوانى، ولا داعى الحظ الإبليسى، بل تجرد عن لوازم الانفعالات الحيوانية، وداعيات المنافسات العمرانية، وإن اشتغل لضروريات الحياة، فإنها لابد منها من وجوهها الفاضلة، بل المراد عدم الاشتغال بالكمالات التى تميل النفس إلى الانفراد بها دون غيرها من بين نوعها، الناتجة عن حب الذات، والأمل فى البقاء.

فإذا تخلى الإنسان عن تلك المقدمات المنتجة للمفاسد الخلقية، وتحقق أنه عضو لمجموع الوجود الحى متمم له، وأنه به يحيى حياة طيبة، فخدم الكل لصالح نفسه، متحققاً بأن الكل هو عينه، وذاق لذة أنه نافع نفعاً عاماً، أنس بكل شئ، واستأنس به أنساً يدفعه إلى التنعم بمزاياه وخواصه، وتجردت نفسه من دواعى المضار، وبواعث الفساد، فتزكى وتتطهر من نية السوء وقصد المضار، وانشرح صدره بكل بنى نوعه، وبذلك يحفظ من الشر منهم، ويحفظون من شره، فيستريح قلبه ويشتغل بما يقربه إلى ربه، لأن أعضاءه مطهرة من النجس، وفكره صاف من شواغل الخلق، فيميل بكليته إلى الله تعالى مخلصاً صادقاً، حتى يمنحه الله تعالى واردات الإحسان.

وهذا يترقى إلى مقام القرب، ويذوق حلاوة الحب، فتنكشف له غوامض العلوم، التى لا يلمسها إلا مطلوب، وتلوح عليه أنوار الربوبية فيعلم الحق، وينكشف له الحق، وعندها يتحقق بأنه عارف بالحق، ويترقى إلى مراتب المعرفة، حتى ينتهى إلى مقام العجز عن إدراك الحقيقة.

فالعارف من عرف الحق كشفاً وعلماً، وعجز عن الحقيقة كشفاً وعلماً، وهى الرتبة التى بعدها يعد العارف عبداً كاملاً لله تعالى، متحققاً بمقام العبودية، والله ولى المؤمنين.

العارفون لهم ظهرت حقيقتُهم   فجملتهم بعلم الحق خشيتُهم
بعلمهم نفسهم علموا مقامَ علا   فأوقفتهم على الآداب رهبتُهم
عرفوا نفوسَهمُ ذلاً ومسكنةً   وقد حباهم فدامت فيه رغبتُهم
عكفوا عليه بإخلاص فواجههم   بالوجهِ فانبلجت من ذاك نشوتهم
سكروا فطابوا به أنِسُوا فأنزلهم   منازلَ القرب فاتضحت محبتهم
فروا اليه به والوجه مقصدهم   والعلو والسفل لا تحويه فكرتهم
الله معبودُهم وهو المراد لهم   وقد رأت نورهُ علناً بصيرتهم
وجنةُ الخلدِ لو ظهرت بطلعتها   لفارقت حُسْنَها بالزهد همتهم
لا كفؤ لله يحجبهم فيبعدهم   أحد تنزه تعلمه سريرتهم
هو الولِيُّ تولاهم فحصنهم   عن العوالمِ قد رُفعت مكانتهم
العرشُ والفرشُ والكرسىُّ خلفهم   وجنةُ الخلدِ والفردوس حيطتهم
لا يخطرُ الملكُ والملكوتُ فى نَفَس   على قلوبهم والخوفُ شيمتهم
حصنُ الجلالِ وسرُّ الكبرياء بدا   فحُصِّنُوا فيه واتضحت هدايتهم
قد قُربوا لجناب القدسِ منزلةً   رُفعت بها بين أهلِ القربِ نسبتهم
فى غيبٍ غيبٍ عن الأكوان قد رفعوا   عن الشئونِ وقد وافتك حالتهم
الذلُّ عزهم والجهلُ علمُهم   وخشيةُ الله بهجتُهم ولذتهم
رضوا عن الله فى الدنيا فجملهم   منه بحق يقين فيه نعمتهم
أنسوا بما استوحش الجهالُ منه وقد   صحت بدايتُهم طابت نهايتهم
لم تستفزهم الدنيا وبهجتُها   والوجهُ مشهدهم والكونُ آياتهم
تدرعوا باليقين الحق واتشحوا   بالصدق حتى به دامت معيتهم
ما حيطةُ الملكِ والملكوتِ عندهم   إلا منازل سفران أوبتهم
ومرجعُ الكلِّ لله العلىِّ على   حق اليقين وقد وضحت طريقتهم
لم يلتفت أحدٌ منهم لعاجلهِ   والكل لله قد خلصت سريرتهم
يا رب صل على طه وعترته   وآله الغر من رفعت مكانتهم

أُنس العارف بالله وحده

الأُنس بهجة النفس بمطلوب متمنى، مع الأمن من الزوال والعقوبة، والعارف مقبل على الله بكله سبحانه بعين يقين، عن رسوخ فى علم يقين، وجاذب عناية إلهية، فلا يصرفه عن الإقبال على جناب القدس الأعلى شئ من حظ أو هوى أو ملكوت، لأن فى ذلك وحشة له، وألم فراق يعتريه، يجعله حزين القلب منقبض الصدر نافراً فاراً، ولذلك ترى العارف يفر من كل من لم يشهد فيه مشهداً إلهياً يأنس به، ولذلك قال سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ الشعراء ٧٧، وقال: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ إبراهيم ٣٦، وقد يفر العارف من نفسه إذا شغلته بمجاهدتها فى حظ، فإنه يفر إلى قمم الجبال، حتى لا ترى نفسه ما تتمناه إذا اطمأن إلى الله، فإذا سمعت أن عارفاً ترك العمل أو ترك الطعام وفر إلى القفار، فلا تنكر، فإنه يتلذذ من كل مؤلم إذا استأنست فى عمل المؤلم بالله سبحانه وتعالى.

الأنسُ بعد سكون القلبِ بالله ... هو الرضا لأخى وجد وأوَّاه
وهو السعادة فى الدنيا وآجلةٍ ... والأنسُ بالدونِ للمعبودِ واللاهى
أنسٌ به القربُ للقدسِ العلىِّ على ... براقِ وُدٍّ من الإقبالِ والجاه
يحيى سعيداً به فى حصن خالقه ... منعماً بمعانى وصفه الباهى
الأنسُ بالله أغناه وأسعده ... والحظ بالدونِ للمحجوبِ والساهى
دامت معيته بالحقِّ واتصلت ... بالقدس همته بغير تناهى
أنِسَ العارفون بالأنوار ... إذ أضاءت فى تلكُم الآثارِ
كلُّ شأنٍ يبده به سر غيبٍ ... يتراءى لهم كشمس النهار
لم يغيبوا عن وجهِ مولى تعالى ... عن قيودِ العقولِ والأنظار
شاهدوه فى كل شئ فغابوا ... بجمالٍ سما عن الأقمار
كلُّ شأنٍ يرون فيه جمالاً ... بعيونِ القلوبِ والأبصار
فعيونُ القلوبِ فى أفقِ أعلى ... وعيونُ الأبصارِ فى التذكار
بين أنسٍ وبهجةٍ وسرورٍ ... بتوالى البشرى ورفعِ الستار
يا مرائى الشهودِ أنت كنوزٌ ... طُلسِمت عن محجب بالديار

مــن لــه تفـتـح الكـنــــوز يهنـــى بــشرابِ الــطـهــورِ بــالمـــدرار
فيك حــســن محجب عــن عقــول شغلتهـــا محبـــةُ الــدينــار
أنِـسَتْ بــالــدنئ بعـدت وغـابـت عــن جمـــالٍ فى بـــاطـنِ الآثـــار
زهــرةُ الكــونِ حجبـتـهم فهــامــوا وهــــواهــم هَــــوَوْا بـه فى الـنـــار
ضـيعــوا عـمــرهـم بقـيل وقــال بـين ظلـمٍ ولــــذةٍ بـــالعقـــار
وأولُــوا القــربِ فى صفـــاءٍ وبـسطٍ وشهـــــودٍ لمـنعـم غفـــــار
شــاهــدوا الكــون أفقَ حقٍّ مبـينٍ فــدعـــاهـم مـــا فيه للـستـــار
سـمعــوه يـــدعـــو بحـــالٍ وقـــالٍ حـــالِ أيٍ والقـــول للمختـــار
فـــاستجـــابــوا لله والحـــولُ منه فــصفـــاهـم بـمـشهـــد الأنـــوار
صـــار كلُّ الـــوجـــودِ علـــواً وسفلاً روضَ قـــدسٍ مجـملٍ ببهــــار
تـتـــوالى البـــشرى عليهـم دوامـــاً فــاقــرأنهـــا فى الــذكــر بـالاعتبـار
فــرحــوا بـالعطــاء من فـضل مــولى وهـــو خـيرٌ مـن جـــوهـــر ودرارى
يبـتغــون الــرضــوان والفـضلَ منه ركَّعـــاً سُجَّـــدً لـــدى الأسحـــار
حجبَ الكــونَ وجهُه فـتهـنــوا بـــشهـــــودِ الجـمالِ والأسرار
كلُّ فـــانٍ فـنـــى ومـــا هـــو بـــاق عـــاينـــوه بـــالكـشف لا الأخبـــار
جـسمُ هــذا الكيـــان حجب عنهـم وتـــراءى مـــا فـيه للأبـصـــار
شــاهــدوه مــرآة أسماء قــدس قـــد تجلـت به بـسر اقـتـــدار
عــشقــوهـــا فهيـمــوا وتَخَلَّــوْا عن دواعـــى الهـوى وداعـــى العـــار
عـــشقـتـه أرواحُهـم وهـــو حُـــسن سجـــد العَقـلُ دونه بـــاعـتــــذار
وخيـــالى كـم صـــور الحــسنَ قبلاً حـــال عـــشقـــى بصـورة الأذكـــار
بعـد كـشفـى سجـدَ الخيــالُ صغـاراً لمقـــامٍ عـــالٍ عــن الإكـبـــار
يـــا خيـــالى حقُّ اليقـين شهـودى لا تمـثل فــذاك شـــأن الـســـارى
ذا مقـــامُ منـــزهُ متعــــالٍ عــن بـيـــانِ الأرواحِ والأفكـــار
كـن كـما كـنتَ طـينـــةً أو منـيــاً أو طـــفـــــيـــلاً فى أول الأدوار

وتلقَّ عنه به سرَّ مجلى وتجمَّلْ بحلةِ الافتقار
وتحقَّقْ برتبةِ العبدِ واعلَمْ أن نيل الوصولِ بالمختار
فردُ ذاتِ العليِّ شمس هداه كعبة الرُّوح مقصدى وفخارى

ادع نفسك فإن أطاعتك فادع غيرك

الداعى إلى الله سبحانه، إنما يدعو إلى الإقرار والتصديق، والعمل والخلق والمعاملة التى جاء بها رسول الله ﷺ من عند الله سبحانه وتعالى، وبينها بعمله وقوله وحاله، صلوات الله وسلامه عليه، واقتدى به فى ذلك كله خلفاؤه الراشدون وأصحابه المخلصون رضوان الله عليهم أجمعين.

فمن المكلف بالإقرار به والتصديق: الإيمان بالله تعالى، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقضاء والقدر خيره وشره من الله تعالى، وأن الله واحد أحد، فرد صمد، خالق رازق، حى عليم، قادر مريد، قريب مجيب، سميع بصير، يبصر عبده، وهو سبحانه مع عبده حيث كان، مطلع على السرائر وأخفى منها، وأنه سبحانه رغب فى الآخرة، وجعلها هى دار النعيم، ودار الشهود والخلود والبقاء واللذة، وزهد فى الدنيا وذمها، وشنع على أهلها، وقبح عملهم، ورد عليهم فعلهم، وجعل لهم فى الآخرة عذاباً أليماً، وسخطاً وغضباً دائمين، ثم جعل لكل عامل أجراً، إذا صدق فى عمله، لا توازيه الدنيا، ولا ما فيها بأجمعها، وجعل لأهل الإخلاص فى العقيدة والقول والعمل والحال جزاء عاجلاً هو نور اليقين، ومشاهدة الآيات ومكاشفة الملكوت، حتى يبلغ درجة اليقين الحق، والطمأنينة الحقيقية، التى متى بلغها السالك صارت الجنة مرأى عينيه، والجحيم مشهودة لبصيرته.

ثم يترقى إلى أن يكاشف بما هو أكمل وأجمل من ذلك جمال الوجه العلى، وهذه المشاهدات تجعله يرى الدنيا جيفة قذرة، تشمئز منها نفسه فيفر من نتنها وقبح ما يراه فيها، من سوء القطيعة عن النعيم المقيم، ودنس الأعمال الشيطانية التى يعملها أهل الدنيا، ورجس الأعمال البهيمية التى يتلذذ بها أهل الشهوات والحظوظ البدنية، وينزه نفسه عن

تلك الدنايا ويعلو بها عن هذا الحضيض الأسفل الذى هو سجن البُعد وهاوية المقت.

فإذا طالب نفسه أن تطيعه على تحمل المجاهدات والرياضات، فى سبيل البعد عن الوقوع فى مشتهياتها وحظوظها، والفرار عن الميل إلى تلك الدار الفانية، الغادرة الضارة، والبغض لزينتها، والتجافى عن ملاذها ومسراتها، وأجابته مسرورة بما لا يلائمها من الزهد والجد، والخشوع والذل والانكسار والفقر والسهر، امتحنها بالدنيا واختبرها بالميل اليها، فإن نفرت عنها، وفرت عنها إلى الحق والفقر والمسكنة ورضيت بالابتذال، كان منها بعد ذلك على حذر، وراقبها أشد مراقبة، لتدوم على هذا الصفاء، وقام مسروراً أن ينجى غيره من هذا الهلاك، ويرفع إخوانه من حضيض الأرذلين وعمل الضالين، لين الجانب معهم، زاهداً فيما فى أيديهم، باذلاً ما فى يده، يخصهم بملاذ الدنيا ويرضى لنفسه الخشن والجوع وتحمل مرارة المجاهدة، حتى يتعلموا بعمله جميل الأخلاق، مجداً فى عمل النوافل بعد الفرائض، حتى يلين أبدانهم على أكمل الأعمال وأجملها وأدومها، غاضاً بصره عن عيوبهم، حافظاً لسانه عن الوقوع فيهم، ليتعلموا منه حسن المعاملة، ويتخلقوا بأخلاق رسول الله ﷺ.

ثم يجدد أحوالهم بالحكمة على قدر عقولهم، والموعظة على قدر أحوالهم ومعلوماتهم. يبغض أمامهم الفواحش والطمع وسفه الغيبة وسوء الخلق. ويبغضهم فى كل عمل سئ وحال قبيح وخلق ردئ، ليكون نوراً لأبدانهم، وطهوراً لأرواحهم، وكعبة لأنفسهم، يزدادون علماً بمجالسته، وقرباً من الله تعالى بمقاربته، وتزكية لنفوسهم بمعاشرته، ورغبة فى الملكوت الأعلى بالرغبة فيه، وكشفاً لأسرار القرآن بعباراته، وتمكيناً فى التوحيد بإشاراته، وتخلقاً بأخلاق الله تعالى وأخلاق رسوله ﷺ بمحبته ومعرفته.

فيفيض الله سبحانه عليهم من سوابغ فضله، حلل المقربين وشراب المحبوبين، فيكون من ورثة الرسل عليهم الصلاة والسلام، القائمين على الحق والداعين إلى الله تعالى، والمجددين لسُنة الله تعالى وسُنن رسوله ﷺ، والمعلين لكلمة الله تعالى، والجامعين الخلق على الله تعالى. أولئك هم صفوة الله من خلقه، وأحباؤه من عباده، وخلفاؤه الراسخون فى علم الله تعالى ومعرفته سبحانه.

من أنس من نفسه بهذا فهو الداعى إلى الله تعالى، النائب عن الوارث لرسول الله تعالى. ومن لم يجد نفسه تطيعه، فليكن مع المريدين الذين هم فى مراتب المجاهدات والإرشاد، ولا يتعرض للدعوة، فإنه يكون داعياً لغير الحق، ضالاً مضلاً أو كالشمعة يضئ لغيره ويحرق نفسه، أو داعياً من دعاة جهنم، نعوذ بالله من غضبه ومقته، وأسأله سبحانه نوراً وهداية وتوفيقاً لى ولأولادى وأهلى وإخوانى جميعاً، آمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وورثته، آمين.

ما اشتياقى يا نفسُ ما تحنانى ... وحبيبى مشاهدٌ لجَنَانى
أنِسَ السرُّ بالحبيبِ ونفسى ... فى هيامٍ ولهفةٍ للمعانى
كلما لاح للخيالِ مثالٌ ... من جمالِ الغيوبِ والتبيان
جدد الشوقَ والتألهَ حتى ... كادت النفسُ تَزْهَقَنْ للتدانى
أنتِ يا نفسُ فى هيامٍ ولهفٍ ... واشتغالٍ عن بهجةٍ فى الجنان
فيمن أنت قد تألهت نفسى ... بجميلٍ منزهٍ عن ثان
بعلىٍّ فى عزةٍ وجلالٍ ... وعظيمٍ ومنعمٍ رحمان

الصفا بالوفا

إن العقل الكامل لا تنكشف له برؤيته واستنباطه من معلوماته الكونية؛ إلا ما يكون به فى تلك الدار الدنيا ناهجاً منهج الحسن من القول والعمل النافعين للدنيا، ولا يمكنه أن يدرك ما يقربه إلى الله تعالى، ويجعله من اللذين يفوزون بالسعادة فى الدارين، وينالون رضاء الله تعالى، لأن هذه أنوار قدسية لا ينالها الإنسان إلا على لسان رسول الله ﷺ وعمله ﷺ، لأن عمله وقوله وحاله بأمر الله تعالى، وبالنور الذى أنزله الله تعالى على رسوله ﷺ.

فلزم الوقوف بالأدب عند ما أمر به سبحانه وتعالى، وما عمله ﷺ بالمحافظة على ذلك بعزم صحيح واحتياط، حتى يتحقق العامل أنه متابع متابعة حقيقية مع الاستطاعة،

والمحافظة على ذلك فى كل فروع الشريعة، من أعمال القلوب وأعمال الأبدان، فأعمال القلوب كالإيمان والخشوع والرغبة والرهبة والخشية والخوف والإخلاص، والحب فى الله والبغض فى الله والرجاء والطمع، والإنابة والتوبة، ومكارم الأخلاق من التواضع والعفو، والرحمة والشفقة والصلة والبر والإحسان، وعمل الأبدان كالصلاة والصيام والزكاة والحج، وذكر اللسان ومعاونة المسلمين، والعبادة، وإكرام الضيف والجار، والسعى لطلب العلم وطلب الرزق، والإصلاح بين الناس.

وأحواله التى تشمل أعمال القلوب والأبدان، من الزهد والورع وطول الفكرة، ودوام العبرة والوجد والوله، والتأليف وحسن المعاملة وما أشبهها مما يعلمه ويعمل به أهل الله الصالحون، كل هذه معارج للقرب ومشاهد للحب، وبقدر الوفا يكون الصفا.

إنما يعشق من عرف

الإنسان يشهد بحسه ما به نفعه وتلذذه ودفع ألمه ونوال خيره، فتراه يألف ويشتاق إلى تلك الأشياء التى يحس بخيره فيها أو منها أو بها، وهذا الشعور ضرورى ليس فى الإنسان فقط، بل فى كل كائن – حتى الحيوانات والنباتات – فإنك ترى أغصان الشجر تميل إلى الجهات الموجودة فيها الشمس، وتمتد جذوره إلى الجهات الخصبة من الأرض، الممزوجة بالماء، ويترك الأماكن الصلبة، أو التى ليست خصبة، وقد تكون شجرة فى حجرة فيها نافذة، فتمتد أغصانها حتى تخرج من النافذة، ما ذاك إلا للشعور بالنافع. إذ كان ذلك فى النفس النباتية والحيوانية، فهى فى الإنسان أعظم ميلاً وأكثر شعوراً.

ولما كان الإنسان صورة الرحمن المجملة بالنفس الملكية، وقد يرقى إلى أن يمنح النفس القدسية، كان له جمال خاص به، وخير يناله بتلك النفس الملكية أو القدسية، وهذا الجمال ليس كالجمال الكونى الذى هو خير للجسم، بل هو خير خاص بالنفس ولذة حقيقية للروح تحن إليه وتشتاقه، إذا لم تشغلها الحواس والحظوظ والأهواء فى ظلماتها الكثيفة، التى تحجب الروح عن حقيقة ملاذها.

فإذا زكت النفس، وتطهرت أدواتها الجسمانية من شغلها، أنست بالجمال المنطوى فى الكائنات، وتشوقت إلى حضرة الملكوت، حتى تشاهدها، فإذا شهدت جمال الملكوت حنت إليه، وجذبت الجسم معها إلى نوال الفوز بالوصول إلى هذا النعيم المقيم، والسعادة الأبدية فى دار الفردوس، ومقعد صدق عند مليك مقتدر، ولديها تلوح أنوار الأسماء ومعانى الصفات، وتشرق شمس التجلى مشرقة على أفق القلب، بنور على وسر جلى ويتوجه القلب إلى العزة بوله شديد، حتى تضمحل ظلال الأوهام، ويعجز الخيال عن التمثيل، ويشتد الوله حتى يتأله المراد إلى حضرة الجبروت، فينكسر قلبه من أجل العظيم، المتكبر الكبير الجبار، فينال فضل القرب والحب، ويكون الله تعالى عند العبد الكامل المنكسر قلبه من أجله، بعد أن كان العبد عند ربه، وهو مقام محبوب، ومواهب الله لمطلوب، ثم تتجلى أنوار مجلى الذات، لا على صور وهيئات، ولا على آيات وصفات، ولكنه نور على نور، والعين تنجلى بلا أين، وتشهد بلا بين، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تم بحمد الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الخاتمة

اللهم لك الحمد ولك الشكر، ولك الثناء الحسن الجميل، على ما تفضلت به وأنعمت، ومننت به على عبدك وأحسنت، لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، بيدك الخير وأنت على كل شئ قدير، وأصلى وأسلم على سيدنا ومولانا محمد وآله، الذى أنقذتنا به من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، الوسيلة العظمى لنوال رضوانك الأكبر، والشفيع المشفع يوم الهول والفزع، وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعد، فقد مَنَّ الله تعالى على عبده المسكين، بأن فتح له أبواب الخير وهو الفتاح العليم، فوفقنى وأعاننى وهو الموفق المعين لوضع هذا الكتاب الذى أسأل الله أن ينفعنى به، وينفع إخوانى المسلمين، وأن يجعله عملاً خالصاً لذاته المنزهة مقبولاً عنده سبحانه، وأن يعيذنى وأهلى وإخوانى من الذنوب التى توجب النقم، ومن الذنوب التى تغير النعم، ومن الذنوب التى تهتك الحرم، ومن الذنوب التى تحبس غيث السماء، ومن الذنوب التى تديل الأعداء، وأن يهب لى ولأهلى وأولادى وإخوانى مواهب المنعم المتفضل الولى العطوف الرءوف، الباسط الودود، الفتاح العليم، التواب الغفور، العفو الكريم، الحنان المنان، الرحمن الرحيم، ذو الفضل العظيم، وأن يحفظنى وأهلى من شر الأشرار وكيد الحساد، ويختم لى ولهم بالسعادة إنه مجيب الدعاء، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الخويدم المسكين

محمد ماضى أبو العزائم

الفهرس

مقدمة ٥

موضوع البحث وتنبيهاته ٦

الباب الأول

الاعتصام بالكتاب والسنة ١٠

الآيات الواردة فى الاعتصام بالكتاب والسنة ١٠

الأحاديث الواردة فى الاعتصام بالكتاب والسنة ١٠

الباب الثانى

العلم والإيمان ١٦

الفصل الأول

العلوم وشرفها ١٦

تعريف العلم ١٦

علم للوصول وعلم للأعمال ١٧

العلم الذى هو للوصول ١٨

العلم الذى هو للأعمال ١٨

الوصول ١٩

الحكمة ١٩

عين اليقين وحق اليقين ٢١

عين اليقين ٢١

حق اليقين ٢١

الفكر فى آلاء الله لا فى ذات الله ٢٢

تعاريف تلزم لمن زاق حلاوة الفكر فى الآيات ٢٤

قاعدة لمعرفة الكائنات المحيطة بنا ٢٥

الفصل الثانى

العلم والإيمان ٣١
حقيقة العلم والإيمان ٣٢
نتائج الإيمان ٣٢
أول الإيمان ٣٣
تفاوت المؤمنين ٣٣
أنواع الناس ٣٤
شروط الإيمان وخصال المؤمنين ٣٦
الإيمان الظاهر ٣٦
الإيمان الباطن ٣٧
المؤمن ظاهراً ٣٧
المؤمن ظاهراً وباطناً ٣٧
أكمل شرائط المؤمنين ٣٨
أولاً: التوكل على الله ٣٨
ثانياً: الإخلاص فى العمل والدعاء ٣٩
ثالثاً: الصبر ٤٠
رابعاً: الرضا بالقضاء والقدر ٤١
علامة المؤمنين المتحققين ٤٢
أفضل خصال المؤمن ٤٢
ما يخاف عاقبته الإنسان وما يرجو عاقبته ٤٣
بغية المؤمن العالم العامل ٤٣
المؤمن مطيع فى الشدة والرخاء ٤٤

الـزهد فى الدنـيا والرغـبة فى الآخرة ٤٤
استفت قلبك ولو أفتاك المفتون ٤٦
اتقـوا الله ويعلـمكم الله ٤٩
حكمـة بعثة الرسل ٥٠
حكمة أحكام الشريعة ٥١
تـذكـرة ٥٣

الباب الثالث

الطـريق إلى الله تعـالى ٥٥
تعـريف الطـريق إلى الله ٥٥
المقـدمات والضوابط ٥٦
المقـدمـات ٥٦
الـضوابـط ٥٧

الفصل الأول

الأصل الأول فى حـقيقة الـطريق إلى الله : صفـاء جوهـر النفس ٥٩
صفـاء جـوهـر الـنفس ٥٩
تعـريف الـنفس ٦٠
الـنفس واحدة وقواها ثلاث ٦٣
فضائل النفـس ورذائلها ٦٤
رذائـل النفـس ٦٧
تعـريف الفضـائل ٦٨
دواء النفـس من أمـراضها ٦٨
لـذة النفوس الطـاهرة ٦٩
الـتنـافـس ٧٤

السرائر ٧٢
قد أفلح من تزكى ٧٣
تزكية النفس ٧٣
تزكية الجسم ٧٤
أقسام التزكية ٧٥
أولاً: تزكية النفوس ٧٥
النفس القدسية ٧٥
النفس الملكية ٧٦
النفس الحيوانية وهى نوعان ٧٦
نفس غضبية ٧٦
نفس شهوانية ٧٧
ثانياً: تزكية الأجسام ٧٧
السعادة الحقيقية ٧٩

الفصل الثانى

الأصل الثانى فى حقيقة الطريق إلى الله ٨٠
الطريقة المستقيمة ٨٠
واجبات المرشد ٨٢
الطريقة المستقيمة ٨٥
متى يكون المريد على الطريقة المستقيمة ٨٦
نواب المرشد ٨٧
آداب صحبة المرشد ٨٨
فقه القلوب ٩٢
معاملة المرشد للمسترشد ٩٣

الأخ فى الله تعالى	٩٦
الإخوان ومعاشرتهم	٩٧
اختيار الإخوان	٩٨
اختيار الخاصة منهم	٩٩
التحفظ من مؤاخاة من لا يليق	١٠٠
التحفظ من الأدعياء	١٠١
دعاة الجهالة	١٠٢
الحرص على من ظفرت به من الإخوان	١٠٣
لا تثق إلا بالله وذر الإخوان	١٠٣
معاملة الصديقين	١٠٥
شر الناس	١٠٥
متى تحصل السعادة الحقيقية للإخوان	١٠٧
المحسن هو من سبقت له الحسنى	١٠٨
المعانى التى تصح بها إرادة المريد	١٠٩
مجاهدة النفس	١١١
المشاكلة هى القرابة	١١٢
حجب السالكين	١١٣
المراقبة	١١٤
السماع	١١٧
الذكر مراقبة للمذكور ومجاهدة للنفس والهوى	١١٨
الذكر	١٢٠
أنواع الذكر	١٢٠
ذكر القلب	١٢٠

ذكر اللسان ١٢٠

الباب الرابع

الفصل الأول

أركان الاسلام وأركان الإيمان ١٢٢
الإسلام والإيمان ١٢٢
أركان الإسلام ١٢٣
أركان الإيمان ١٢٤
أركان الإسلام ١٢٥
الركن الأول الشهادتان ١٢٦
الصلاة والزكاة والصيام والحج ١٢٧
الركن الثانى الصلاة ١٢٨
فضائل الصلاة وآدابها ١٢٨
ذكر الحث على المحافظة على الصلاة وطريقة المصلين من الموقنين ١٣٦
ذكر أحكام الخواطر فى الصلاة ١٤٣
الركن الثالث: الزكاة ١٤٤
فضائل الصدقة وآداب العطاء وما يزكو به المعروف ويفضل به المنفقون ١٤٤
الركن الرابع: الصيام ١٥١
فضائل الصوم ووصف الصائمين ١٥١
الركن الخامس: الحج ١٥٥
فضائل الحج ولآدابه ١٥٥
فضائل الحج والحاجين لوجه الله تعالى ١٦٦

الفصل الثانى

العقيدة وطريقة المتكلمين فى العقيدة ١٧٠

أشهر الطوائف المختلفة فى طرق الاستدلال أربعة ١٧٠
طريق الصوفية ١٧١
طريقة السلف فى العقيدة ١٧٢
الخصال التى هى فى الدنيا ١٧٢
الخصال التى هى فى الآخرة ١٧٨
لا تجتمع أمتى على ضلالة ١٨٠
الجماعة خير من الفرقة ١٨٠
طريقة الحكماء فى معرفة الله تعالى ١٨٣
دليل العناية ١٨٣
دليل الإحداث والإبداع ١٨٣
طريقة العناية فتنبنى على أصلين ١٨٣
دلالة الإحداث والإبداع ١٨٣
الصفات الواجبة لله سبحانه وتعالى ١٨٨

الفصل الثالث

الركيزة الثالثة المعاملة ١٩١
المعاملات وفضائل المعاملين ١٩١
نموذج من حسن المعاملة ١٩٢
الحقوق ثلاثة حق فيك وحق عليك وحق لك ١٩٥
الحق الذى فيك ١٩٥
الحق الذى عليك ١٩٦
الحق الذى لك ١٩٧

الفصل الرابع

الـركيزة الرابعة: الأخلاق ١٩٨
الخُلق وأقسامه ١٩٩
أخلاقه ﷺ ٢٠٠
الأخلاق الإسلامية الصادقة ٢٠٧
الأخـلاق ٢٠٩
السماع والعيان ٢١١
المواجهـة ٢١٣
خير الأمور الوسط ٢١٣

الباب الخامس

العـارف ٢١٦
أنس العارف بـالله وحده ٢١٨
أدع نفسك فإن أطاعتك فادع غيرك ٢٢٠
الصفا بالوفا ٢٢٢
إنما يعشق من عرف ٢٢٣
الخاتمة ٢٢٥
الفهرس ٢٢٦